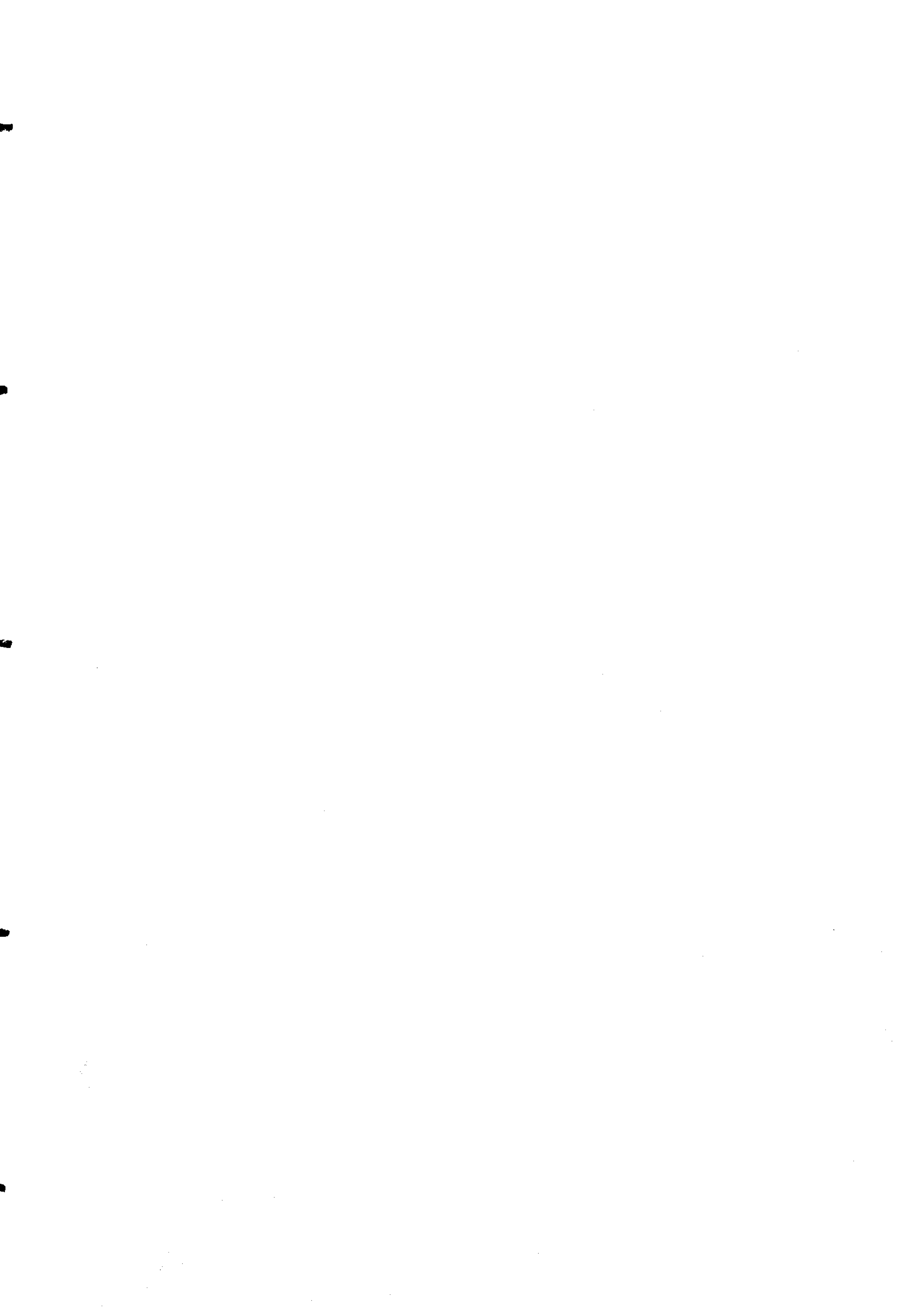
الجزء الثاني
ثمرات الايمان



ثمـرات الإيمـان
في ضوء
الكتاب والسنّة

الفصل الأول
ثمرات الإيمان العقائدية

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : الإيمان والتوحيد.
المبحث الثاني : الإيمان والولاء.
المبحث الثالث : الإيمان والشكر.
المبحث الرابع : الإيمان والخوف والرجاء.
المبحث الخامس : الإيمان والجهاد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الأول
الإيمان والتوحيد

١ ـ أهمية التوحيد ودلائله:

أ ـ فضائل التوحيد:

التوحيد ثمرة من ثمرات الإيمان الحق، وقد جاءت الإشارة إلى هذا في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[١].

فالمؤمن الحق هو الذي لا يلبس إيمانه بظلم، والظلم هو الشرك، فقد روى الإمام البخاري وأحمد عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» إنما هو الشرك[٢].

والمؤمن الحق هو الذي آمن بالله ورسله دون أن يفرق بين أحد منهم، وهذا من مقتضى التوحيد، قال تعالى: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾[٣].

---

(١) الأنعام ٨٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٩٤.

(٣) الحديد ١٩.

كذلك فإن من التوحيد أن يحتكم المؤمن إلى الله وإلى الرسول ﷺ، وقد قرن المولى سبحانه بين الإيمان وبين الاحتكام في قوله: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ (النساء ٦٥).

وللتوحيد فضائل عظيمة كثيرة منها أن من جاء به خالصاً وجبت له الجنة يوم القيامة، فقد روى الشيخان عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

قال النووي رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث: «هذا حديث عظيم، جليل الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها[1]».

ومن الأحاديث التي رويت عن رسول الله ﷺ في فضل التوحيد ما جاء في الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

ومن أحسن ما قيل في تفسير هذا الحديث وأمثاله ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره أن من قالها ومات عليها خالصاً من قلبه، مستيقناً بها قلبه، غير شاكٍ فيها بصدق ويقين، فإنه من شهد أنه لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك.. وأكثر الناس الذين يقولونها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت، فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها

---

(١) يتسيير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٧٢ ـ المكتب الإسلامي ط ١٤٠٠/٤.

تقليداً أو عادة ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء[1].

والتوحيد يغفر الذنوب وإن كانت قراب الأرض لما رواه الترمذي وحسنه عن أنسٍ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة ﴾».

قال ابن رجب في تعليقه على هذا الحديث:

«من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عزّ وجلّ، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذ بذنوبه، ثم كان عاقبته ألا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة، فإن كمل توحيد العبد، وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، وحينئذٍ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر»[2].

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من الشرك في أحاديث كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار». والمراد أنه من جعل لله نداً فيما يختص به تعالى ويستحق من الربوبية والإلهية دخل النار لأنه مشرك.

ومنها ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار».

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٩٧.

قال النووي رحمه الله: «أما دخول المشرك إلى النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بينه وبين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة من المرتدين والمعطلين، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة، فإن عفا عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عذب في النار ثم أخرج فيدخل الجنة»[1].

ب ـ أهمية التوحيد:

وتتجلى أهمية التوحيد ومنزلته في أمور كثيرة منها:

● **مهمة الرسل دعوة الناس إلى التوحيد:**

إن الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى كانت مهمتهم الأساسية دعوة الناس إلى توحيد الله في الألوهية والعبادة، والمبدأ في هذا قوله تعالى:

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (الأنبياء ٢٥) فإلى التوحيد دعا نوح عليه السلام قومه ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين ألا تعبدوا إلا الله ﴾ (هود ٢٦)، وبرسالة التوحيد أرسل هود عليه السلام ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ (هود ٥٠)، وإلى دعوة الناس إلى توحيد الله بعث صالح عليه السلام ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ (هود ٦).

وهكذا جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كانت مهمتهم الأولى إخراج أقوامهم من ظلمات الشرك والوثنية، إلى نور التوحيد، توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وعبادته.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ١٢١.

● **التوحيد شعار الإسلام**[1] :

إن من المميزات العظيمة التي يمتاز بها الإسلام عن سائر الديانات السماوية المحرفة والوثنية أن التوحيد شعاره، وصار عنوان الإسلام يتجسد في كلمتين أو جملتين من شهد بهما فقد دخل الإسلام، أولى هاتين الكلمتين (شهادة أن لا إله إلا الله)، والثانية (شهادة أن محمداً عبده ورسوله).

وأصبح المسلم يكرر هذا التوحيد ويعلنه في أذانه وصلاته وإقامته، واستقباله للمولود، إذ من السنّة أن يستقبله بالأذان في أذنه اليمنى، ويقيم في أذنه اليسرى لتكون كلمة التوحيد أول ما يطرق سمعه من أصوات الناس، بل إن آخر ما يودع به المسلم هذه الحياة الدنيا هو كلمة التوحيد، فمن السنّة إذا حضر الوفاة أن يلقن شهادة (لا إله إلا الله)، فقد روى مسلم أنه ﷺ قال:

«لقنوا موتاكم لا إله إلا الله».

ولقد رغب رسول الله ﷺ أصحابهُ الإكثار من ذكر كلمة التوحيد، ففي الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذاك حتى يمسى».

● **التوحيد رسالة الإسلام إلى الأمم** :

وتتجلى أهمية التوحيد في أن رسالة الإسلام إلى الأمم جميعاً دعوتها إلى توحيد الله في ألوهيته وعبادته وأسمائه وصفاته، وبهذا أمر الله رسوله ﷺ وأمته:

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمتهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن

---

(١) انظر حقيقة التوحيد ـ د. يوسف القرضاوي ـ ص ٣٠ مكتبة وهبة.

يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ (النساء ١٧١).

وإلى هذه الدعوة دعوة التوحيد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو إليها المشركين من العرب فقال تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ (يونس ٦).

والناس جميعاً مدعوون إلى توحيد الله ونبذ كافة أنواع الشرك أخذاً بهذه النصوص القرآنية: ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴾ (المائدة ٧٢)، ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ (النساء ١١٦)

وإن الله تعالى شرع الجهاد للأمة المسلمة لإيصال دعوة التوحيد إلى الناس وتبليغهم إياها، ونزع الحواجز المادية التي تقف دون تحقيق هذه الغاية العظيمة، ولقد سن رسول الله ﷺ لأصحابه وأمته سنّة حسنة حين أمرهم بأن يدعوا أعداءهم قبل القتال إلى كلمة التوحيد، فإن أبوا فإما القتال وإما الجزية، فقد روى مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أو صاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً وقال: «ادعهم إلى ثلاث خصال: فَأَيَّتهُنَّ ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين.. فإن أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[1].

وهذا ربعي بن عامر رضي الله عنه يرسله سعد بن أبي وقاص رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فيدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت الثمينة العظيمة، وعليه تاجه، وقد جلس

---

(١) فقه السنّة ـ سيد سابق ١١/١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧ دار البيان ـ الكويت.
وانظر نيل الأوطار ـ جـ ٨/٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣.

على سرير من ذهب، دخل عليه ربعي بثياب صفيقة، وترسٍ وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه فقالوا له: «ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديانِ إلى عدل الإسلام»(١).

جـ - دلائل التوحيد:

وللتوحيد دلائل أذكر منها الدلائل الآتية:

- دليل النقل:

إن أعظم دليل في إثبات التوحيد ونفي الشرك إنما هو دليل النقل، وليس هناك نقل أوثق وأضبط وأصح من النقل الذي جاءنا عن طريق الأنبياء والرسل، فالكتب السماوية التي أنزلها الله عليهم كلها تثبت التوحيد وتنفي الشرك بأنواعه عن الله، والكتاب السماوي الأخير الذي أنزله الله تعالى على خاتم النبيين محمد ﷺ تضمن عقيدة التوحيد التي بعث بها المرسلون جميعاً، وليس هناك في أيدي الناس كتاب أوثق وأصح وأصدق من القرآن الكريم، واقرأ هذه الآيات الكريمة:

﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون ﴾ (النحل ٥١).

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ (المائدة ٧٣).

وقال تعالى: ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله

---

(١) معالم في الطريق - ص ١٨٣.

خير أما يشركون، أمن خلق السموات والأرض وأنزل إليكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ (النمل ٥٩ ـ ٦٠).

● **وحدة الخلق دليل على وحدانية الخالق:**

وإن الذي ينظر إلى خلق الله في السموات وما فيها من نجوم وكواكب ومجرات، وإلى الأرض وما فيها من بحار وأنهار، وجبال ووديان، وهضاب وسهول، ونبات وحيوان يجد وحدة في الخلق، وهذه الوحدة إنما تدل على وحدانية الخالق الذي له مطلق المشيئة والإرادة في الخلق، فهو وحده المتفرد في خلق الكون، المتفرد في إبداعه، المتفرد في مشيئته، المتفرد في إرادته، المتفرد في الإحياء والإماتة، لا ينازعه في خلقه أو سلطانه أو ملكه منازع.

ومن صور وحدة الخلق الوحدة في خلق الأجرام الكونية[1]، فالكون كله من حيث الحركة وحدة واحدة، فالأجرام المرئية كلها تتصف بصفة مشتركة لا يحيد عنها كوكب صغير ولا نجم كبير ألا وهي صفة الحركة، فالقمر يدور حول الأرض، وكذلك سائر الأقمار، كل قمر يدور حول كوكبه، والكواكب السيارة والمذنبات تدور في أفلاكها حول الشمس، والشمس وسائر النجوم في مجرتنا تدور حول مركز المجرة هي وما يتبعها من كواكب وأقمار.

إن أصل الحركة المضاد للسكون، وحركة الجرم السماوي والجسيم الذري حول نفسه وحول غيره ثم الاتجاه الواحد للأجرام السماوية من الغرب إلى الشرق كل ذلك من دلائل الوحدانية، لأنه لو كان فيها آلهة إلا الله لكان للآلهة الأخرى أسلوب مختلف للخلق لا يلتزم بالحركة، بمعنى أن تكون بعض الأجرام التي يخلقونها ساكنة.

ثم لماذا تتحرك الأجرام السماوية جميعاً من الغرب إلى الشرق فلا نجد

---

(١) انظر في هذا مفصلاً في كتاب وحدانية الله ـ جمال الدين عياد ـ ص ١٣ ـ ١٥ نشر عكاظ جـ ١/٢/١٤٠٢ هـ.

جرماً يتحرك من الشرق إلى الغرب؟ والجواب على هـذا السؤال يسير وهـو أن الله الـذي خلق هذا الكـون إله واحـد لا يشركـه في خلقه أحـد، فله المشيئـة المطلقة النافذة في اختيار نظام معين للكون الذي خلقه وأبدعه.

ومن صور وحدة الخلق الأسس الحيوية(1)، فالحياة مهما اختلفت صور الكائن الحي من النبات إلى الحشرة الصغيرة إلى الحيوان الكبير إلى الإنسان العاقل تقوم على أسس واحدة وهي:

أولاً : حصول الكائن الحي على الغـذاء ثم تحويله إلى صـورة صالحـة ينتفع به.

ثانياً : تـوليد الـطاقة الحـرارية لقيـام خلايـا الجسم وأجهزتـه بوظـائفهـا الحيوية، وهذا التوليـد للطاقة هـو المسمى بالتنفس، وهـو عملية هدم أو تحلل للمواد الغذائية بتكسير الروابط الكيماوية المـوجودة بين وحداتها، فبسببه تنطلق الطاقة.

ثالثاً : بناء الجسم بتكوين الخـلايا والأنسجـة الجديـدة التي يستخدمهـا الكـائن الحي في النمو، وهـذه العمليـة البنـائيـة تتم بـاستخـدام المواد الغذائية والطاقة الحرارية المتولدة من هدم الغذاء.

رابعاً : التخلص من الفضلات الضرورية أو غير الضرورية بإخراجهـا من الجسم.

هذه الأسس الحيوية الأربعة نجدها في النبات، فأمـا بالنسبـة للأسـاس الأول وهو حصوله على الغذاء، فـإن النبات يتغـذى كما يتغـذى الحيوان فهـو يحصـل على غذائـه من الهواء والتـربة، فهـو يأخـذ من الهـواء ثـاني أوكسيـد الكربون الذي يدخـل أوراق النبات من خـلال ثغور في بشـرتها، ويمتص من التربة ما يلزمه من ماء وأملاح معدنية عن طريق الشعيرات الجذرية.

---

(1) أنظر كتاب وحدانية الله ـ جمال الدين عياد ص ٢١ ـ إلى ص ٣٣

والنبات يتنفس كما يتنفس الحيوان ولكن بأسلوبه الخاص، فالنباتات الورقية تحصل على الأوكسجين من الهواء الجوي عن طريق الثغور الموجودة على سطح الورقة السفلى، وتخرج أيضاً ثاني أوكسيد الكربون كالإنسان، وهذا الأوكسجين الذي يتنفسهُ النبات بالإضافة إلى الأوكسجين الذي يحصل عليه من عملية التمثيل الضوئي يؤكسد المواد الغذائية التي صنعها النبات فيحللها ويكسر الروابط الكيميائية الموجودة بين وحداتها، فتنطلق الطاقة التي يستخدمها النبات في أداء وظائفه الحيوية من تكوين للخلايا الجديدة، وتعويض عن التالف منها.

وبالنسبة للأساس الثالث فإن النبات يبني جسمه وينمو وذلك باستخدامه للبروتينات التي صنعها كغذاء في بناء المادة الحية المعروفة بـ (البروتلا بلازم) وهي مادة الخلايا.

وكذلك فإن النبات يخرج فضلاته، فبخار الماء وغاز ثاني أوكسيد الكربون يخرجان بطريقة الانتشار البسيط خلال ثغور الأوراق.

هذه الأسس الأربعة للحياة نجدها في الحيوانات سواء أكان دودة في الطين، أو سمكة في الماء، أو طائراً في الهواء، أو وحشاً في الغابة، وهي ذات الأسس التي نجدها عند الإنسان.

فالأسس الواحدة تدل على أن الخالق واحد، وسبحان الله القائل في محكم كتابه ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾.

وصدق الله القائل في القرآن العظيم ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ (المؤمنون ٩١ ـ ٩٢).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف

والعبادة، ولو كان مع الله إله لذهب كل إله بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق غاية الكمال، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون عبروا عنه بدليل (التمانع)[1] وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً[2]

● **دليل الفطرة:**

والفطرة التي فطر الله الناس عليها هي خير دليل على وحدانية الله، وهذه الفطرة قد يصيبها الران، أو قد تغطيها هالة من العقائد الوثنية، أو تسترها عن حقيقتها ركام من الأهواء البشرية المنحرفة، ولكنها سرعان ما تتنبه وتستيقظ إذا وقع صاحبها في ضائقة أو نزلت به في نفسه أو أهله، أو أحاطت به محنة كادت أن تودي بحياته، فحينئذٍ تتحرك هذه الفطرة وتعود إلى صفائها، فإذا بها تتجهُ إلى الله وحده لدفع المصيبة، وكشف البلاء.

والله تعالى الذي خلق النفس الإنسانية وهو وحده العليم بخصائصها يشير إلى هذه الحقيقة فيقول سبحانه: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ (العنكبوت ٦٥).

وإنه التناقض والاضطراب، فهم إذا ركبوا في الفلك، وأصبحوا على وَجْهِ اليَمِّ كاللعبة تتقاذفها الأمواج، لم يذكروا إلا الله، ولم يشعروا إلا بقوة واحدة يلجأون إليها هي قوة الله، ووحدوه في مشاعرهم وعلى ألسنتهم سواء، وأطاعوا فطرتهم التي تحس وحدانية الله، فلما نجاهم الله نسوا وحي الفطرة

---

(١) أنظر كتاب (مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢٢ من ص ١٤٩ ـ ١٥٦).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٥٧٣، وانظر كتاب (الله جلّ جلاله) سعيد حوى ص ١٣١ ـ ١٣٢ دار الكتب العلمية ط ٣/١٣٩٩ ـ بيروت.

المستقيمة، ونسوا دعاءهم لله وحده مخلصين له الدين، وانحـرفوا إلى الشـرك بعد الإقرار والتسليم[1].

وقـد ساق القـرآن الكريم نمـوذجـاً من هؤلاء الـذين طغـوا في الأرض، وادعوا الألوهية، وأخذهم الغرور والكبريـاء، إنه فـرعون الـذي قال للنـاس أنا ربكم الأعلى وهو في رخائه وملكه وسلطانه، وبين حاشيته وجنده، فانظر إليـه حين أخذه الغرق، تخلى عن شـركه وطغيـانه، وتخلى عن ألـوهيته وربـوبيته، وأقـر بوحـدانيـة الله تعـالى، واقـرأ الآيـة الكـريمـة لتقف على هـذه الحقيقـة ﴿ وجـاوزنا ببني إسـرائيل البحـر فأتبَعَهم فـرعون وجنـوده بغياً وعـدوا حتى إذا أدركـه الغرق قـال آمنت أنه لا إلـه إلا الذي آمنت بـه بنـوا إسـرائيـل وأنـا من المسلمين، آلان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ (يونس ٩٠ ـ ٩١).

إنه لما رأى الأمواج ترفعه وتخفضه، وتـراكمت فوقـه، وغشيته سكـرات الموت، وعاين أنه هالك لا محالة أقر بوحدانية الله في ألوهيته وعبادته.

* * *

٢ ـ مقتضيات التوحيد:

التـوحيد في عـرف الشـرع[2] نفي الكفـء والمثـل عن ذات الله تعـالى وصفاته وأفعاله ونفي الشرك في ربوبيته وعبادته عزّ وجـلّ، قال تعـالى في نفي الكفـء:

﴿ قـل هو الله أحـد، الله الصمد، لم يلد ولم يـولـد ولم يكن لـه كفـواً أحد ﴾ وقال في نفي الشرك في الربوبية ﴿ قل من رب السموات والأرض قـل الله ﴾ (الرعد ١٦).

وقـال في نفـي الشـرك في العبادة ﴿ قـل إن صـلاتي ونسكي ومحيـاي

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٥١.

(٢) انظر عقيدة المؤمن ص ٧٣.

ومماتي لله رب العالمين، لا شريك لـه، وبذلـك أمرت وأنـا أول المسلمين ﴾ (الأنعام ١٩٢).

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام، توحيد الله في ذاته وأسمائه وصفـاته، وتوحيد الله في الربوبية، وتوحيد الله في الألوهية.

ـ توحيد الأسماء والصفات:

والأصـل في هذا التـوحيد «أن يـوصف الله بما وصف بـه نفسـه، وبمـا وصفه به رسله نفيـاً وإثباتـاً، فيثبت لله ما أثبتـه لنفسه، وينفي عنـه ما نفـاه عن نفسـه»[١]، يقول تعـالى في ذم الـذين يلحـدون في أسمـائـه وآيـاتـه: ﴿ ولله الأسماء الحسنى، فادعوه بها، وذروا الـذين يلحدون في أسمـائه سيجـزون ما كانوا يعملون ﴾.

وقـد اتفق أهل السنّـة[٢] على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاتـه، ولا في صفاته ولا في أفعاله. ولقد ذكر الله تعالى من أسمائـه وصفاتـه[٣] ما أنـزله في محكم آيـاتـه، سمىٰ الله نفســه حيـاً فقـال: ﴿ الله لا إلـه إلا هــو الحي القيوم ﴾، وسمىٰ نفسه بـالرؤوف الـرحيم ﴿ إن الله بالنـاس لرؤوف رحيم ﴾، وسمىٰ نفسه بالعزيز الجبار المتكبر فقال: ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾، ووصـف نفسه بالمشيئة فقال: ﴿ ومـا تشاؤون إلا أن يشـاء الله رب العالمين ﴾ ووصـف نفســه بـالـرضـا ﴿ رضي الله عنهم ورضـوا عنـه ﴾، ووصـف نفســه بـالمنـاداة والمناجاة ﴿ ونـاديناه من جـانب الطور الأيمن وقـربناه نجيـاً ﴾، ووصف نفسه بالغضب ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم ﴾ ووصف نفسه بالاستواء على العـرش

---

(١) نفائس ـ الرسالة التدمرية ـ بتحقيق محمد حامد الفقي ص ٦ ـ مكتبة السنّة المحمـدية ط ١٣٧٤/٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٩٨.

(٣) انظر في هذه الأسماء والصفات كتاب نفائس ـ الرسالـة التدمـرية لابن تيميـة ص ١١ ـ ١٥.

﴿ ثم استوى على العرش ﴾، ووصف نفسه ببسط اليدين ﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾.

«ونظائر هذا كثيرة، فلا بد من إثبات ما أثبته الله لنفسه، ونفي مماثلته لخلقه، فمن قال ليس لله علم، ولا قوة ولا رحمة ولا كلام ولا يحب ولا يرضى، ولا نادى، ولا ناجى، ولا استوى كان معطلاً جاحداً ممثلاً لله بالمعدومات والجمادات»[١].

ولقد كان الكفار يقرون بجنس هذا النوع من التوحيد[٢]، وإن كان بعضهم ينكر بعض ذلك إما جهلاً وإما عناداً، كما قالوا لا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، فأنزل الله فيهم ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ (الرعد ٣٠).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة «إن هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: وما ندري ما الرحمن الرحيم؟»[٣].

أما موقف المؤمن من صفات الله تعالى فهو موقف السلف الصالح وهو الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسول الله ﷺ، مع العلم يقيناً أن هذه الصفات محال أن يكون شيء منها يشبهُ صفات المخلوقين (ليس كمثله شيء)، ومع هذا فلا حاجة إلى تعطيل صفات الله أو تأويلها[٤].

وهذا ما كان عليه سلف هذه الأمة، كانوا يثبتون الصفات ويمرونها بغير تعطيل أو تشبيه أو تأويل، وإليك نماذج من أقوالهم كما جاء ذكرها في كتاب (الفتوى الحموية الكبرى) لابن تيمية رحمه الله.

---

(١) هذا كلام ابن تيمية رحمه الله في الرسالة التدمرية ص ١٥.
(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٣٥.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨١.
(٤) انظر عقيدة المؤمن ص ٦٩.

روى أبو بكر الخلال في كتاب السنّة عن الوليد بن مسلم قال: سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات؟ فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف[1].

وروى البيهقي عن يحيى بن أبي يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، وأمر به أن يخرج[2].

وقال أبو عمر بن عبد البر إمام أهل المغرب: «أهل السنّة مجتمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن الكريم والسنّة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك»[3].

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التأويل: «لا يجوز رد هذه الأخبار، ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله لا تشبه صفات سائر الموجودين بها من سائر الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها.. ويدل على إبطال التأويل أن الصحابة ومن بعدهم حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها، ولا صرفوها عن ظاهرها، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا أسبق إليه لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة»[4].

وقال أبو الحسن الأشعري في كتابه: «الإبانة عن أصول الديانة»، وهو آخر كتاب صنفه، جملة قولنا[5].. إن الله مستوٍ على عرشه كما قال:

---

(١) نفائس ـ الرسالة الحموية الكبرى ص ١١١.
(٢) المرجع السابق ص ١١٢.
(٣) المرجع السابق ص ١٤٥.
(٤) المرجع السابق ص ٤٦.
(٥) المرجع السابق ص ١٤٩.

(الرحمن على العرش استوى) وأن له وجهاً كما قال: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأن له يدين بلا كيف كما قال: (بل يداه مبسوطتان) وأن له عينين بلا كيف كما قال: (تجري بأعيننا).

ثم قال رحمه الله: «وقد قال القائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية أن معنى قوله: (الرحمن على العرش استوى)، أنه استولى وقهر وملك، وأن الله عزّ وجلّ في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، قال: لو كان كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة لأن الله قادر على كل شيء، والأرض لله قادر عليها وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء لكان مستوياً على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الأقذار، لأنه قادر على كل الأشياء مستولٍ عليها، ولم يُجِزْ أحدٌ من المسلمين أن يقول: إن الله مستوٍ على الحشوش والأخلية ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون الأشياء كلها[1].

من هذه النصوص وسواها يتبين لنا كمؤمنين أن واجبنا تجاه صفات الله تعالى أن نؤمن بها، ونقرها ونحملها على الحقيقة دون أن نتشاغل بتأويلها مع الاعتقاد أنها لا تشبه صفات المخلوقين.

ـ توحيد الربوبية:

والمراد بتوحيد الربوبية «الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك»[2].

---

(١) نفائس ـ الرسالة الحموية الكبرى ص ١٥١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٣٣.

وهـذا التوحيـد حق لا ريب فيه، وهـو الغايـة عند كثيـر من أهـل النـظر والكـلام، «ولـم يذهب إلى نقيضـه طـائفـة معـروفـة من بني آدم، بـل القلوب مضـطرة على الإقـرار بـه من كـونهـا مفـطورة على الإقـرار بـغيـره مـن الموجودات»(١).

وكان المشركون من العرب قبل البعثة النبوية يقرون بهذا التوحيد، قـال تعـالى: ﴿ قل من يـرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمـع والأبصـار ومن يخـرج الحي من الميت ويخـرج الميت من الحي ومن يـدبـر الأمـر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون؟ ﴾ (يونس ٣٢).

وقال تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ (العنكبوت ٦٤).

وتـوحيد الـربوبيـة لا يكون بـه الإنسان مسلمـاً فهؤلاء المشركـون الذين اعترفوا بـأن الله هو الخـالق والرازق والمحيـي والمميت لم يكـونوا بـاعترافهم هـذا مسلمين بل قـال تعالى: ﴿ ومـا يؤمن أكثرهم بـالله إلا وهم مشـركـون ﴾ (يـوسف ١٠٧). ومع ذلـك أوجب الله تعالى سفـك دمائهم، وسبي نسـائهم، وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذلك إلا لإشـراكهم في توحيـد العبادة الذي هو معنى لا إله إلا الله»(٢).

وجاء في شرح العقيدة الطحاوية: «فلو أقر رجل بتوحيد الـربوبيـة، وهو مع ذلك لم يعبد الله وحده، ويتبرأ من عبادة ما سواه كان مشركاً من جنس أمثاله من المشركين»(٣).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية. ص ٧٩ حققها وراجعها جماعـة من العلماء، خـرج أحاديثهـا محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ط ١٤٠٤/٨.
(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٣٤.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٨٥.

- توحيد الألوهية:

وهذا التوحيد المراد منه «إخلاص التأله لله تعالى من المحبة والخوف، والرجاء والتوكل، والرغبة والرهبة، والدعاء لله وحده، وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئاً لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾، وهو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره»[1].

ولهذا التوحيد أهمية عظيمة إذ به بعث الرسل، قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (البقرة ٢٢). ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (الأنبياء ٢٦).

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وهو أول واجب على المكلف، ومن أجله شرع الجهاد كما جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

* * *

٣ - نواقض التوحيد:

وللتوحيد نواقض، أذكر منها ما يأتي:

أولاً: نواقض توحيد الربوبية:

ومن نواقض توحيد الربوبية ما يلي:

أ - اعتقاد النفع والضر في الصالحين وأصحاب القبور:

لقد بينت لدى حديثي عن توحيد الربوبية أن هذا النوع من التوحيد

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٦.

يتضمن الاعتقاد بأن الله وحده الذي بيده النفع والضر، فالله عزّ وجلّ يقرر في محكم كتابه أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ «فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها، وتنشىء آثارها، وتحقق نتائجها، وهذه قاعدة كلية في التصور الإسلامي لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن»[١].

ويأمر الله رسوله ﷺ أن يتجرد، ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الله الواحد الذي يعبده، فهو وحده الذي يملك الضر، ويملك الخير، وبهذا يتجرد النبي ﷺ في المقدرة على النفع والضر، وتنفرد الذات الإلهية بهذا الأمر، قال تعالى آمراً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ وإذا كان رسول الله ﷺ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فهو لا يملك لهم الضر والنفع بطبيعة الحال فالأمر إذن لله[٢]. (وإنْ يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإنْ يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير»[٣]. وعلى ضوء هذه الكلية من كليات التصور الإسلامي يتبين أن من اعتقد النفع أو الضر في نبي أو في ولي أو صاحب قبر فإنما أشرك بالله تعالى، لأن الذين يتخذون القبور مشاهد، إنما يعتقدون في أصحابها النفع والضر، فهي إذاً بمثابة أصنام وأوثان، ويعاملونها معاملة المشركين للأصنام، إذ يطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويخاطبون الموتى، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد، «وكل قوم لهم رجل ينادونه إذا وقعت فيهم مصيبة، أو أرادوا جلب منفعة، فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلاني في أوقات الشدة، وأهل مصر يا رفاعي ويا بدوي، وأهل اليمن يا ابن علوان، وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام كما قال الشاعر»:

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ـ أحمد فائز، جـ ٢/١٠٦ مؤسسة الرسالة ط ١٤٠٠.
(٢) المرجع السابق جـ ٢/١٠٨.
(٣) الأنعام ١٧.

أعـادوا بهـا معنى سـواع ومثله يغـوث وود، بئس ذلـك من ود
وقد هتفوا عند الشدائـد باسمهـا كمايهتف المضطربالصمدالفرد[1]

ولقد سد الإسلام الأبواب التي قـد تفسد عقيدة التوحيـد لدى المؤمن، ومنها الغلو في الصالحين من الأنبياء والعلماء والأولياء، قال تعالى: ﴿ يا أهـل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾، وقال: ﴿ وقـالوا لا تـذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾، عن ابن عباس قـال: هذه أسمـاء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكـوا أوحى الشيطان إلى قـومهم أن انصبوا إلى مجـالسهم التي كانـوا يجلسون فيهـا أنصابـاً وسموهـا بـأسمـائهم ففعلوا، ولم تعبـد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبـدت، وقـال ابن القيم: قـال غيـر واحد من السلف لما ماتوا عكفـوا على قبورهم ثم صـوروا تماثيلهم، ثم طـال عليهم الأمد فعبدوهم[2].

وفي الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسولـه». وفي حديث آخـر صحيح عن ابن عبـاس قال: قـال رسول الله ﷺ: «إيـاكم والغلو فإنمـا أهلك من كان قبلكم الغلو».

ومن هذه الأبواب التي سدها الإسلام حماية لعقيدة المؤمن وحفاظاً لهـا من أدران الشـرك، بنـاء المسـاجد على قبـور الأنبيـاء والصـالحين، لأن ذلـك سيؤدي إلى اعتقاد النفع والضر فيهم، وقد علمنـا أن الله وحده هـو الذي بيـده النفـع والضر، جـاء في الحـديث الصحيـح عن عـائشـة أن أم سلمـة ذكـرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه

---

(١) تـطهير الاعتقـاد عن أدران الإلحاد ـ محمـد بن إسماعيـل الصنعاني ص ٢١ ـ مؤسسـة النور.

(٢) مجموعة التوحيد ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ المكتبة السلفية ـ المدينة المنوّرة ط ١٣٩٦/٣.

تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله» وهؤلاء جمعوا بين فتنتين الأولى فتنة القبور لأنهم افتتنوا بقبور الصالحين، وعظموها تعظيماً مبتدعاً فحال بهم إلى الشرك، الثانية: وهي فتنة التماثيل، أي الصور فإنهم لما افتتنوا بقبور الصالحين وعظموها، وبنوا عليها المساجد، وصوروا فيها الصور ليتأسُّوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، ويعبدوا الله عند قبورهم ثم جاء الخلف بعدهم. فوسوس إليهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فحذر رسول الله ﷺ عن ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك[1].

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألَا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»، وللإمام أحمد بسند جيد أنه ﷺ قال: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد».

ورسول الله ﷺ إنما ينهي هذا النهي الشديد لأنه قد وقع بسبب البناء على القبور مفاسد لا يعلمها إلا الله تعالى كما نبه على ذلك ابن القيّم رحمه الله[2].

«ومنها اعتياد الصلاة عنها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ومنها تحرى الدعاء عندها، ويقولون: من دعا الله عند قبر فلان استجاب له، ومنها ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء، ويقولون: إن البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين، ومنها أن المدفون فيها أعظم في قلوب عُبَّادِ القبور من الله وأخوف، ولهذا لو طلبت من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً، وأذا طلبت بصاحب القبر لم يقدم إن كان كاذباً، ومنها سؤال الميت قضاء الحاجات وتفريج الكربات، والتضرع عند مصارع الأموات والبكاء بالهيبة والخشوع لمن

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦.

فيها أعظم مما يفعلونه مع الله في المساجد والصلوات.

ومن هذا النوع من الشرك اعتقاد الضر والنفع في التمائم والرقىٰ والتعاويذ والحلقة والخيط، ولقد جاء النهي الشديد عن اتخاذ هذه الأشياء وسائل لدفع المضرة، وجلب المنفعة، وإليك هذه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ:

روى الإمام أحمد بسند لا بأس به[1] أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: ما هذه، قال: من الواهنة، فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً».

وفي النهي عن التمائم يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» والتميمة خرزه كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات، أو يتقون بها العيون، والودعة شيء يخرج من البحر يشبهُ الصدف يتقون به العيون قال ابن عبد البر: إذا اعتقد أنها ترد العين، فقد ظن أنها ترد القدر واعتقاد ذلك شرك[2].

وفي النهي عن الرقي يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: «إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك». والتمائم هي العزائم، والتولة، شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والزوج إلى امرأته. والرقي المحرمة ما كان فيها استعانة بغير الله تعالى، وما عدا ذلك فلا بأس به، لأن الرقىٰ الموصوفة بكونها شركاً هي الرقىٰ بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك، أما الرقي بالقرآن وأسماء الله وصفاته فليست شركاً بل مستحبة أو جائزة»[3].

على ضوء ما تقدم من نصوص ثابتة في القرآن والسنّة وأقوال السلف الصالح أقول:

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ١٥٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٠.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٥.

إن من الشرك الذي ينقض التوحيد اعتقاد الضر أو النفع في الأنبياء أو الأولياء والصالحين، وأن الرقىٰ والتمائم والتعاويذ والودع تدفع عن الإنسان ضراً، أو تجلب له خيراً، والمبدأ في كل هذا قوله تعالى: ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيءٍ قدير ﴾.

ب ـ قبول البدع التي يشرعها المشعوذون[1]:

ومن نواقض توحيد الربوبية «تقديس المشايخ من رجال التصوف والمشعوذين، وطاعتهم في غير طاعة الله ورسوله ﷺ، وقبول ما يشرعون لهم من البدع»[2].

وقبل أن أشير إلى نماذج من البدع التي شرعها أصحاب الطرق المنحرفون لا بد أن نعّرف البدعة؟.

البدعة لغة اسم من الابتداع، يقال بدع الشيء يبدعه وابتدعه أنشأه وبدأه، وفي التنزيل: ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ أي ما كنت أول من أرسل، بل أرسل قبلي كثيرون، والبدعة في المصطلح الشرعي الحدث وما ابتدع من الدين بعد الإكمال[3].

ولقد جاء التحذير والنهي الشديد عن إحداث البدع في الدين، والأحاديث في ذلك كثيرة، فمنها قوله ﷺ في حديث رواه الترمذي وحسنه عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: أوصيكم بتقوى الله

---

(١) ذكر هذا الناقض من ناقض توحيد الربوبية الشيخ أبو بكر الجزائري في كتابه عقيدة المؤمن ص ٨٢.

(٢) عقيدة المؤمن ص ٨٢.

(٣) انظر مفصلاً في البدعة والمصالح المرسلة د. توفيق يوسف الواعي ص ٨٣ ـ مكتبة دار التراث ـ الكويت ط ١٤٠٤/١ هـ.

والسمع والطاعة وإنْ عبداً حبشياً، فإنه من يـعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيـراً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وفي الحديث المتفق عليه «من أحـدث في ديننا مـا ليس منه فهـو رد»، وفي رواية «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

أمـا البدع التي أحـدثها المشعـوذون والمنحرفـون من أصحـاب الـطرق وسواهم فهي كثيرة وأذكر هنا بعضها طلباً للإيجاز:

فمن أعظم البدع والمنكرات الاعتقاديـة التي أحدثـوها الإيمـان بوحـدة الوجود، وتقوم هذه العقيـدة الفاسـدة على أنه لا شيء إلا الله، وأن كـل شيء غير الله ليس إلا مظاهر خارجية وأحوالاً لله، وعلى هذا الزعم قامت نظرية ابن عَرَبي»[1].

ومن أصحـاب الطرق الصـوفية الـذين يؤمنـون بهـذه العقيـدة الفـاسـدة أصحـاب الطريقـة التيجانيـة، جاء في قـول أحد هؤلاء المبتـدعين: «القائلون بوحدة الوجود أولوا الذوق الصحيح، والكشف الصريـح، وأهل هـذا التصديق الجامع فإنهم قائلون بأن الله تعالى هو الوجود المطلق بالإطلاق الحقيقي»[2].

ومذهب أهل السنّة والجماعة فيمن آمن بوحدة الوجود كافـر بالله خـارج عن ملة الإسلام، يقول ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر أقوال هؤلاء المبتدعين المارقين: «فهذا كله كفر باطناً وظاهراً بإجمـاع كل مسلم، ومن شـك في كفر هؤلاء بعـد معرفتـه قولهم ومعـرفة دين الإسـلام فهو كـافر كمن يشـك في كفر اليهود والنصارى والمشركين»[3].

---

(١) الصـوفية معتقـداً ومسلكاً ص ٢٠٥ د. صـابـر طعيمـة ـ عـالم الكتب ـ الـريـاض ـ ط ١٤٠٥/١ هـ.

(٢) انـظر كتـاب ميـدان الفضـل والإفضـال ـ ص ٦٦ و٦٨ ـ ٦٩. عبيـدة بن محمـد الشنقيطي ـ المطبعة الرسمية العربية ـ تونس ـ ١٣٢٩ هـ.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٦٨/٢ مطابع الرياض ـ ط ١٣٨١/١ هـ.

ومن البدع التي ابتدعوها قولهم بوحدة الشهود أو الفناء، والمراد بوحدة الشهود هو ما يسمونه مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، أو هو كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظراً عينياً وتحقيقاً يقينياً»[1].

يقول أحد هؤلاء المشعوذين المرتدين في كتاب (جواهر المعاني):

«إن الحضرة القدسية في غاية الصفا لا تقبل التلويث بوجه من الوجوه، فإن من دخلها غاب عن الوجود كله فلم يبقَ إلا الألوهية المحضة حتى نفسه تغيب عنه، ففي هذه الحال لا نطق للعبد ولا عقل ولا هم ولا حركة ولا سكون ولا رسم ولا كيف ولا أين ولا حد ولا علم، فلو نطق العبد في هذا الحال لقال: «لا إله إلا أنا سبحاني، ما أعظم شأني، لأنه يترجم عن الله عزّ وجلّ»[2].

وحكم أهل السنّة والجماعة في هؤلاء الذين يقولون بفناء العارف في ذات الله أن كفرهم شر من كفر النصارى»[3].

ومن البدع التي أحدثها بعض هؤلاء المشعوذين ما يراه أصحاب الطريقة التيجانية أن صلاة الفاتح لما أغلق أفضل من القرآن، ونص تلك الصلاة «اللهم صلِ على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم». يقول مؤلف جواهر المعاني: «ثم أمرني رسول الله ﷺ بالرجوع إلى صلاة الفاتح لما أغلق، فلما أمرني بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها فأخبرني بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات»[4].

ومنها قول بعضهم أنه يرى رسول الله ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا، جاء

---

(١) الصوفية ص ٢٣٩.

(٢) التيجانية ص ٩٦ ـ ٩٧ علي بن محمد الدخيل الله ـ دار طيبة ـ الرياض.

(٣) مجموع الفتاوى ٢/٣٦٧ ـ ٣٦٨ ط ١/١٣٨١.

(٤) نقلاً عن كتاب (التيجانية) ص ١١٦.

في كتاب جواهر المعاني «أخبرني سيد الوجود يقظة لا مَنَاماً ما قال لي أنت من الآمنين ومن رآني من الآمنين مات على الإيمان. . »[١].

وقد يقول بعضهم: إن هذه البدع التي ذكرتها بدع سيئة مذمومة، بيد أن هناك بدعاً حسنة فما المانع من الأخذ بها، واتباع أصحابها؟ والجواب على هذا السؤال أن الرأي الصحيح في هذه المسألة أنه ليست في الإسلام بدعة حسنة وبدعة سيئة فكل البدع سيئة مذمومة، وإلى هذا الرأي ذهب جمع غفير من علماء السلف والخلف منهم الإمام مالك بن أنس والبيهقي وابن تيمية، والزركشي، وابن رجب الحنبلي، والإمام ابن حجر وسواهم كثير[٢].

عرف ابن رجب الحنبلي البدعة فقال:

«المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً وإن كان بدعة لغة»[٣].

وخير سبيل يحفظ المؤمن من الوقوع في هذه البدع المنكرة الفاسدة هو الاتباع، اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه في كل شيء، في جانب العقيدة والعبادة والخلق، وأدلة الاتباع من القرآن والسنّة، وآثار الصحابة والتابعين كثيرة، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ومن السنّة قوله ﷺ فيما رواه الترمذي: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين عضواً عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة». ومن آثار الصحابة قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته الشهيرة في سقيفة بني ساعدة «إنما أنا متبع ولست بمبتدع»[٤].

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٧.

(٢) انظر مفصلاً كتاب (البدعة) د. توفيق الواعي ص ١٠٣ وما بعدها.

(٣) جامع العلوم والحكم ـ ص ١٦٠ ـ ابن رجب الحنبلي ط ١/ الهند.

(٤) البداية والنهاية جـ/ ص ابن كثير.

ومن أقوال التابعين قول الإمام مالك:

«خير مورد الدين ما كان سنّة، وشر الأمور المحدثات البدائع»[1].

جـ ـ الاحتكام إلى غير شرع الله:

ومن نواقض توحيد الربوبية الاحتكام إلى غير شرع الله وحكمه[2] لأن الأمر في الإسلام بل في دين الله كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ هو لمن الربوبية على هؤلاء الناس؟ هل الربوبية لله أو لشركاء من خلقه، أو لشركاء من دون خلقه؟ فإما أن تكون الربوبية لله وحده، فهي العبودية من الناس لله وحده، وهي الدَّيْنَوية من العباد لله وحده، وهي الطاعة من البشر لله وحده، فالله وحده هو الذي يختار للناس منهج حياتهم، وهو وحدهُ الذي يسن للناس شرائعهم ويضع موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم... يقول الله تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾. فما يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة. والآية تنفي صفة الإيمان عمن لا يرضى بحكم الله ورسوله، ومن يتولى عنه، ويرفض قبوله»[3].

ولكن لماذا يجب الاحتكام إلى شرع الله؟

«إن الله هو الخالق، خلق هذا الكون، وخلق هذا الإنسان وسخر ما في السموات والأرض لهذا الإنسان، وهو سبحانه متفرد بالخلق لا شريك له في كثير منه أو قليل. **وأنه هو** المالك بما أنه هو الخالق، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما. **فهو سبحانه المتفرد** بالملك لا شريك له في كثير منه أو قليل، وإن الله هو الرازق، فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئاً لا من

---

(١) الاعتصام جـ ١/ص ٥٧.

(٢) عقيدة المؤمن ص ٨٣.

(٣) طريق الدعوة جـ ٢/١٦٧ ـ ١٦٨ ـ ١٧٤.

الكثير ولا من القليل، وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف في الكون والناس . . فالإيمان هو الإقرار لله سبحانه بهذه الخصائص الألوهية، الملك، السلطان متفرداً بها لا يشاركه فيها أحد[١].

ولقد ذهب العلماء من السلف الصالح إلى أن من أنكر وجوب الاحتكام إلى شرع الله يعد كافراً، قال ابن تيمية رحمه الله: حول معنى قوله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (المائدة ٤٤).

«ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير منهم من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله كسواليف البادية ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنّة، وهذا هو الكفر، فإن كثيراً من الناس أسلموا، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها هؤلاء المطاعون، فإن استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار»[٢].

وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾:

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يصنعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفي كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً

---

(١) طريق الدعوة جـ ٢ / ١٩٠ .

(٢) نقلاً عن مجموعة التوحيد ص ٢٩٣ .

متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، **فمن فعل ذلك منهم فهو كافر**[1].

يقول الشيخ أحمد شاكر تعليقاً على كلام ابن كثير السابق:

«أفيجوز - مع هذا - في شرع الله أن يحكم المسلمون بتشريع مقتبس من تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة؟ بل تشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون لا يبالي واضعهُ أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟.. والمسلمون الآن أسوأ حالاً وأشد ظلماً وظلاماً لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك (الياسق) الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر - يريد جنكيز خان - هذه القوانين التي يصنعها ناس ينتسبون للإسلام ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباءً وأبناءً، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا (الياسق العصري) ويحقرون من يخالفهم في ذلك ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم رجعياً وجامداً.. الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا عداوة ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام في العمل بها، أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤ نفسه، وكل امرؤ حسيب نفسه»[2].

ولا بد هنا من بيان أن أنواع الحكم بغير ما أنزل الله أربعة[3]، فأما النوع الأول أن يستحل الحاكم الحكم بغير ما أنزل الله، والنوع الثاني أن يلغي الحاكم الحكم بالشريعة الإسلامية، ويحل محلها الحكم بالقانون الوضعي، ويُنفذهُ كذلك بسلطته الوظيفية، النوع الثالث: أن يحكم بغير ما

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢/٦٧.

(٢) عمدة التفسير جـ ٤/١٧١ - ١٧٢ اختيار وتحقيق أحمد محمد شاكر ط ١/ دار المعارف ١٣٧٧.

(٣) انظر كتاب (الردة عن الإسلام - د. عبد الله أحمد قادري ص ٥٦ وما بعدها) مكتبة طيبة - المدينة المنوّرة - ط ٢/١٤٠٥ هـ.

أنزل الله معتقداً أن ما أنزل الله غير صالح لعصره، النوع الرابع: أن يحكم بغير ما أنزل الله في جزئية من الجزئيات وهو يعتقد أنهُ عاصٍ وأن الحكم بغير ما أنزل الله محرم، وأن الواجب عليه هو الحكم بما أنزل الله ولكنه غلبه هواه كمال أو جاه ففعل ما فعل.

فأما الأنواع الثلاثة من الحكم فإنها تجعل الحاكم بها كافراً، وأما النوع الرابع وهو اعتراف الحاكم بوجوب التحاكم إلى شريعة الله ولكنه قصر في تطبيقها وتنفيذها فلا يعد كافراً، إنما هو حاكم عاصٍ فاسق.

وهذا ما جاء ذكره في العقيدة الطحاوية: «هنا أمر يجب أن يتفطن له، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة، وقد يكون معصية، كبيرة أو صغيرة ويكون كفراً إما مجازياً وإما كفراً أصغر على القولين المذكورين بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه، أو استهان فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهو كفر أكبر، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه وعدل عنه مع اعترافه أنه مستحق للعقوبة فهذا عاصٍ ويسمى كافراً كفراً مجازياً، أو كفراً أصغر[1].

فهذه هي أهم النواقض التي تنقص توحيد الربوبية، اعتقاد النفع والضر في الصالحين وأصحاب القبور، قبول البدع التي يشرعها المشعوذون، والاحتكام إلى غير شرع الله، فإذا ما أراد المؤمن أن يحافظ على توحيد الربوبية صافياً نقياً فمن واجبه أن يحفظ نفسه من الوقوع في هذه النواقض وأمثالها حتى يلقى الله تعالى على العقيدة الصافية، عقيدة السلف الصالح.

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

ثانياً: نواقض توحيد الألوهية:

ولتوحيد الألوهية نواقض أذكر منها النواقض الآتية:

أ ـ صرف العبادة لغير الله:

من نواقض توحيد الألوهية صرف العبادة لغير الله، فما المراد بالعبادة[1]؟ العبادة تطلق على الطاعة والخضوع، ومنه قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ أي نطيع الطاعة التي يُخْضَعُ معها، وتطلق أيضاً على التأله والتنسك، والعبادة بمعنى التأله تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه القرآن الكريم:

أولهما: أن يؤدي المرء لأحد من الشعائر كالسجود والركوع والقيام والنذر وبقصد التأله والتنسك، ولا عبرة بأن يكون المرء يعتقده إلهاً مستقلاً بذاته، أو مؤمناً بكونه شريكاً للإله الأعلى.

الثاني: أن يظن المرء أن هناك من يسيطر على نظام الأسباب في هذا العالم ثم يدعوه في حاجته ويستغيث به في ضره وآفته.

ولقد أرسل الله تعالى الرسل من أولهم إلى آخرهم يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، لا إلى إثبات أنه خلقهم، إذ هم مقرون بذلك، ولذلك قالوا: «أجئتنا لنعبد الله وحده» أي لنفرده بالعبادة، وتخصه بها من دون آلهتنا؟ فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره[2].

لقد كان المشركون منهم من يعبد الملائكة ويناديهم عند الشدائد، ومنهم من يعبد المسيح، ومنهم من يعبد الكواكب، فبعث الله رسوله محمداً

---

(١) انظر المصطلحات الأربعة ص ٢٠ وما بعدها ـ عبد المتعال الجبري ـ دار الاعتصام ط ١٣٩٩/٢ هـ.

(٢) تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد ـ الصنعاني ص ١٢ ط ١٣٩٦/٣ هـ مؤسسة النور ـ الرياض.

ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، بأن يفردوه بالعبادة كما أفردوه بربوبيته للسموات والأرض كما قال تعالى: ﴿ فإياي فاعبدون ﴾ ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ (النساء ٣٦).

والعبادة كما قال الإمام الصنعاني أنواع: «اعتقادية وهي أساسها، وذلك أن يعتقد أنه الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وأنه الذي لا شريك له، وأنه لا معبود بحق غيره. ومنها لفظية وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، وكان كإبليس فإنه يعتقد التوحيد إلا أنه لم يمتثل أمر الله بالسجود فكفر. . وبدنية كالقيام والركوع والسجود في الصلاة. . ومالية كإخراج جزء من المال امتثالاً لما أمر الله تعالى به»[1].

ومن طرق العبادة لغير الله الذبح لغير الله، لأن الذبح عبادة، والعبادة لا توجه إلا لله كما قال تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ (الأنعام ١٦٤). والنسك هو الذبح، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فصل لربك وانحر ﴾.

وروى مسلم رضي الله عنه أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات:

«لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثاً ولعن الله من غير منار الأرض».

قال الإمام النووي: «المراد به يذبح باسم غير اسم الله تعالى، كمن يذبح للصنم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى عليهما السلام أو للكعبة ونحو ذلك، وكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلماً أو

(١) تطهير الاعتقاد ص ١١.

نصرانياً أو يهودياً، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان ذلك كفراً»[1].

ومن طرق العبادة لغير الله النذر لغير الله لأن النذر عبادة ومن صرفها لغير الله كان مشركاً، وقد مدح الله المؤمنون بقوله: ﴿ يوفون بالنذر ﴾ (الدهر ٨).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

«ما نذره المؤمنُ لغير الله كالنذر للأصنام، والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة، فإن كليهما شرك، والشرك ليس له حرمة»[2].

وقال الإمام الأذرعي في «شرح منهاج النووي».

«وأما النذر للمشاهد التي بُنِيَتْ على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حلها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأنبياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك وهو الغالب أو الواقع تعظيم البقعة والمشهد والزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد»[3].

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء، وأثبت الأجر في ذلك:

«فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله فيكون باطلاً. . وقد قال الفقهاء: خمسة لغير الله شرك: الركوع والسجود والنذر والذبح واليمين، والحاصل أن النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور؟»[4].

---

(١) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ص ١٩٠.
(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ص ٢٠٤.
(٣) نقلاً عن المرجع السابق ص ٢٠٥.
(٤) نقلاً عن المرجع السابق ص ٢٠٧.

ب ـ الاستغاثة بغير الله :

ومن نواقض توحيد الألوهية الاستغاثة بغير الله ، والمراد بالاستغاثة إزالة الشدة ، ويدخل فيها دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله »[1].

ولقد جاء النهي الشديد عن استغاثة غير الله لرفع الشدة والبلاء ، أو دعاء غير الله لكشف الضر والمصيبة ، والدعاء كما جاء في القرآن الكريم نوعان ، دعاء عبادة ، ودعاء مسألة فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع ، أو كشف ضر ، فالمعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر ، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً كقوله ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وهو السميع العليم ﴾ (المائدة ٨٠) فالله تعالى يُدْعَىٰ للنفع والضر دعاء المسألة ، ويُدْعَىٰ خوفاً ورجاءً ودعاء العبادة ، فعلم أن النوعين متلازمان ، فكل دعاءِ عبادةٍ مستلزمٌ لدعاء المسألة ، وكلُّ دعاءِ مسألةٍ متضمنٌ لدعاء العبادة»[2] .

فالله وحده هو الذي تلجأ إليه وحده وتُنِيبُ إليه ، وتدعوه وحده لكشف الضر كما قال تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ (النحل ٦٢) . ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ (الأحقاف ٦) .

وحذر رسول الله ﷺ المؤمن أن يستغيث بغير الله ، روى الإمام الطبراني بإسناده أنه كان في زمن رسول الله ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : «إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله» .

والظاهر كما جاء في كتاب تيسير العزيز الحميد : «أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله في الألفاظ ، لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق من

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٢١٥ .

الأمور التي يقدر عليها إما بزجره أو تعزيره، فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ، والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد، وتعظيم الله تبارك وتعالى، فإذا كان هذا كلامه ﷺ في الاستغاثة به فيما يقدر عليه، فكيف بالاستغاثة به أو بغيره في الأمور المهمة التي لا يقدر عليها أحد إلا الله؟»[1].

يتبين من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية أن الاستغاثة بالموتى ودعاءهم شرك يخرج من الملة كقولهم: يا علي، يا عبد القادر، يا عدوي[2]، يسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكروب، ومما جاء في الاستغاثة برسول الله ﷺ تلك الاستغاثة التي لا تكون إلا بالله قول البرعي:

يا سيدي يا رسول الله يا أملي ... يا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني
هبني بجاهك ما قدمت من زللٍ ... جودا ورجِّحْ بفضلٍ منك ميزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني ... من الخُطوب وَنَفِّسْ كلَّ أحزاني
فأنت أقرب من ترجى عواطفه ... عندي وإن بعدت داري وأوطاني
فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي ... برحمة وكرامات وغفران[3]

فماذا أبقى هذا الشاعر المشرك لله تعالى؟ وقد جعل رسول الله ﷺ موئله وملاذه، وسأله أن يكشف ما يساوره من الخطوب، وينفس كل أحزانه وينزل عليه الرحمات والمغفرة؟.

ولقد ذهب علماءنا من السلف الصالح أن الاستغاثة بغير الله شرك، وإليك بعض أقوالهم: قال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي في كتابه (الفنون) «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن نصائح الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، وهم عندي كفارٌ لهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها:

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢.
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٠.
(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٢٥.

يا مولاي إفعل بي كذا وكذا. . »[1].

وقال شيخ الإسلام في الرسالة السنّية: إن المنتسب إلى الإسلام والسنّة في هذه الأزمان قد يمرق من الإسلام وذلك بأسباب، منها الغلو الذي ذمهُ الله في كتابه فقال: ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ (النساء ١٧١)، وكذلك الغلو في بعض المشايخ مثل أن يقول: «يا سيدي! يا فلان سفرني، أو أغثني، أو ارزقني، أو اجبرني، أو أنا في حسبك. . فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه»[2].

وقال الإمام ابن النحاس الشافعي في كتاب (الكبائر):

«ومنها إيقادهم السرج عند الأحجار والأشجار والعيون والآبار، ويقولون: إنها تقبل النذر، وهذه كلها بدع شنيعة، ومنكرات قبيحة تجب إزالتها، ومحو أثرها، فإن أكثر الجهال يعتقدون أنها تنفع وتضر، وتجلب وتدفع وتشفي المرضى، وترد الغائب إذا نذر لها، وهذا شرك ومحادة لله تعالى ولرسول الله ﷺ»[3].

فالمؤمن الذي يخاف على عقيدته، ويخشى على توحيده يرجو الله في دعاء العبادة، فلا يخاف ولا يرجو أحداً إلا الله، ويوحده في دعاء المسألة فلا يسأل غير الله لدفع الضر أو جلب المنفعة.

يتبين من كل ما سبق أن التوحيد من أعظم ثمرات الإيمان، بل هو أصل الإيمان فلا يصح إيمان مؤمن إلا بتوحيد الله في أسمائه وصفاته، وفي ربوبيته وألوهيته، وأن المؤمنين في هذا العصر الذي نعيش فيه في أمس الحاجة أن يحفظوا عقيدتهم من مظاهر الشرك التي شاعت في كثير من المجتمعات الإسلامية، فمظاهر من الشرك تتناول جانب الربوبية كرفض بعضهم ما شرعه

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

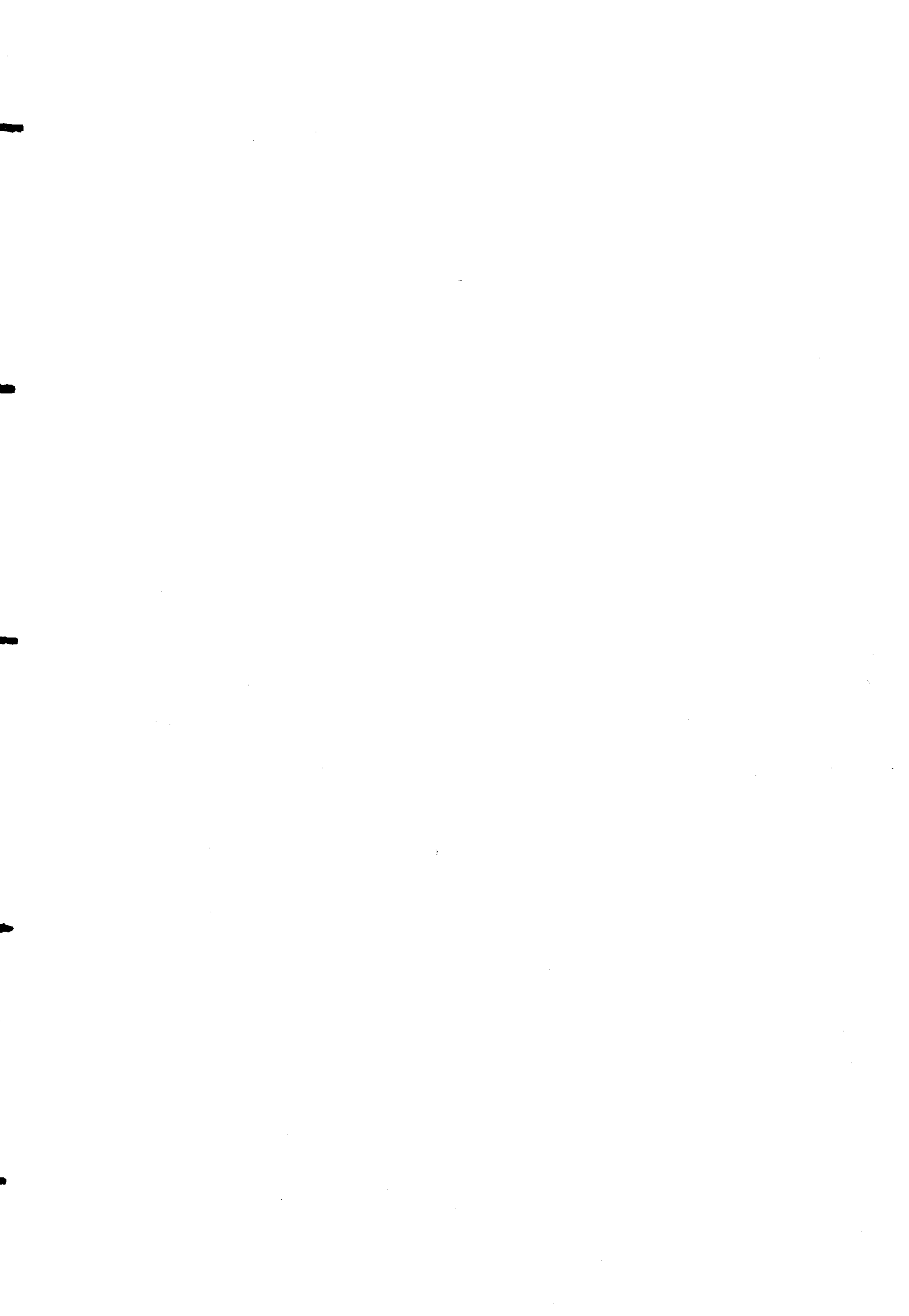
الله ، أو قبول البدع التي يشرعها المشعوذون والمنحرفون، ومظاهـر من الشرك تتنـاول جانب الألـوهية كصـرفهم العبـادة لغيـر الله ، أو استغـاثتهم بـأصحـاب القبـور، واعتقادهم أنهم يملكـون النفع والضـر، وصـدق المـولى القـائـل في محكم كتابه :

﴿ إن الله لا يغفـر أن يشرك بـه، ويغفر مـا دون ذلـك لمن يشـاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ (النساء ٤٨).

* * *

المبحـــث الثاني
الإيمـــان والـــولاء

- حقيقة الولاء.
- صور من الولاء.
- لماذا لا يجوز إعطاء الولاء للكافر؟.
- مقتضيات الولاء لله.
- ما لا يدخل في موالاة الكافرين.



المبحث الثاني
الإيمان والولاء

١ ـ حقيقة الولاء:

● **الولاء لله وحده:**

من آثار الإيمان في حياة المؤمن أنه لا يعطي ولاءه إلا لله وحده ولرسوله ﷺ وللذين آمنوا، وقد جاء ذكر هذا الأثر في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ (آل عمران).

فالولاء لا يكون إلا لله وحده، فالله وحده هو الخالق، والله وحده هو المالك، والله وحده هو الرازق، فالعبودية إذاً لا تكون إلا لله، والولاء كذلك لا يكون إلا لله، قال تعالى: ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ﴾[٢]، « وإن هذه القضية قضيَّةُ اتخاذ الله وحده ولياً هي قضية العقيدة في صميمها، فإما إخلاص الولاء لله فهو الإسلام، وإما إشراك غيره معه فهو الشرك لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام... وإنه منطق الفطرة القوي العميق لمن يكون الولاء؟ لمن إن لم يكن لفاطر السموات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما؟ لمن إن لم يكن لرازق من في السموات والأرض الذي يطعم ولا يطلب طعاماً؟ »[٣].

---

(١) المائدة ٥١.

(٢) الأنعام ١٤.

(٣) في ظلال القرآن ٢/١٠٥٤.

الـولاء الحق لواهب الحيـاة لذرات الأرض، ومجـرات السماء، وأوراق الشجر، وأفراد البشر، الولاء لمانح الحركة لـلأرض القفر، وللبـراعم الذابلة، والنبات الميت، والشجر الجاف، الولاء لمن يخرج من بين الأحشاء طفلاً في أحسن صورة وأحسن تقويم، الولاء لله القيوم الذي لا تأخذه سنّة ولا نوم وبيده خزائن السموات والأرض.

ويأمر المولى سبحانه رسولـه ﷺ بأن يعلن في وجـوه الكفار أن وليـه الله ﴿ إن وليـي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾[1].

● **الولاء لرسول الله والذين آمنوا:**

وإعطاء الولاء لله يقتضي توجيهه كذلك إلى رسول الله ﷺ والذين آمنوا، ولكن مـا هي الصفات التي يجب أن تتـوفر في المؤمنين حتى تعـطي الـولايـة لهم؟ إن الله تعـالى لم يترك تحـديد صفـات هؤلاء لأهل الإيمـان أنفسهم إنما تولى سبحانه الأمر بنفسه فقال في محكم كتابه:

﴿ يـا أيها الـذين آمنوا من يـرتد منكم عن دينـه فسـوف يـأتي الله بقـوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيـل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (المائدة ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦).

فمن صفـاتهم[2] الحب والرضى المتبـادل بينهم وبين ربهم، أذلـة على المؤمنين فالمؤمن ذليل لأخيه المؤمن، غير عصى عليـه ولا صعب، هين لين، سمح ودود، وليست في الذلة للمؤمنين مذلـة أو مهانـة، إنما هي الأخـوة التي ترفع الحواجز وتزيل التكلف.

---

(١) الأعراف.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٢/٩١٩ ـ ٩٢٠.

ومن صفاتهم أنهم أعزة على الكافرين، وليست العزة للذات ولا الاستعلاء للنفس، إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين.

ومن صفاتهم أنهم يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم، وذلك لإقرار منهج الله في الأرض، وإعلان سلطانه على البشر، وتحكيم شريعته في الحياة، إنهم يجاهدون في سبيل الله، لا في سبيل أنفسهم، ولا في سبيل قومهم، ولا في سبيل جنسهم، إنما الجهاد في سبيل الله بلا خوف، وفيم الخوف من لوم الناس وقد ضمنوا حب رب الناس؟.

ومن صفاتهم إقامة الصلاة لا مجرد أداء الصلاة، وإقامة الصلاة تعني أداءها أداء كاملاً تنشأ عنه آثارها التي يقررها قوله تعالى: ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾.

ومن صفاتهم إيتاء الزكاة، إذ ليست الزكاة ضريبةً مالية، إنما هي عبادة مالية.

● **النهي عن ولاء الكافرين:**

وإعطاء الولاء لله ولرسوله وللذين آمنوا يقتضي عدم موالاة الكافرين، ولقد قرر القرآن الكريم أنه يحرم على المؤمن أن يعطي الولاء للكافرين عامة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾[1] يقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية الكريمة:

«إن الأمر كله لله، والقوة كلها لله، والتدبير كله لله، والرزق كله بيد الله، فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله؟ إنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون، ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد، وهذا التقرير الحاسم بخروج

(١) آل عمران ٢٨.

المسلم من إسلامه إذا هو والى الكافرين، سواء كانت الموالاة بمودة القلب أو بنصره»[1].

وقال تعالى في آية أخرى يحذر فيها من اتخاذ الكافرين عامة أولياء من دون المؤمنين: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾[2].

والكافرون ملل ونحل مختلفة ومنهم اليهود والنصارى، ولقد حذر الله تعالى المؤمن من أن يتخذ هؤلاء أولياء من دون المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾[3].

وأي تهديد هذا الذي يهدد به الله تعالى المؤمن إن هو تولى اليهود أو النصارى؟ إنه إن فعل ذلك فإنه منهم. وعلى ضوء هذه الآيات الكريمة أقول:

إنه لا يجوز للمؤمن أن يوالي الشيوعيين أياً كانت جنسياتهم وصورهم وأشكالهم وأوطانهم، لأنهم كفرة، ومن فعل ذلك فليس من الله في شيء، ولا يجوز للمؤمن أن يعطي ولاءه لأصحاب العقائد الإلحادية من علمانية، إلى وجودية، إلى دعوات جاهلية، لأنهم كفرة بنص الآية القرآنية الكريمة، ومن فعل ذلك فليس من الله في شيء، ولا يجوز للمؤمن كذلك أن يعطي ولاءه لليهود أو للنصارى لأنهم مشركون، ومن فعل ذلك فإنه إما أن يكون يهودياً أو نصرانياً.

* * *

٢ ـ صور من الولاء لله:

إن من يستقرء حياة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم يجد أن

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٥.
(٢) النساء ١٤٤.
(٣) المائدة ٥١.

العقيدة قد فصلت بين الولد ووالده، والزوج وزوجته، والأخ وأخيه، والرحم ورحمه، والرجل وعشيرته، فكان الولاء لله وحده، وإليك صوراً من حياة الرسل الكرام وأتباعهم في ذلك.

● **المفاصلة بين الولد ووالده:**

لقد نقل القرآن الكريم قبساً من هذه المفاصلة، فنوح عليه السلام واجه أقرب الناس إليه، واجه وَلَدَهُ حين أصر على كفره وشركه، ولما أخذه الموج فكان من المغرقين قال نوح عليه السلام: ﴿ونادى نوح ربه إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[1].

والخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام نزع ولاءه لأبيه وتبرأ منه، قال تعالى:

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم﴾[2].

«فلا أسوة بإبراهيم في استغفاره لأبيه، فإنما كان استغفاره لأبيه بسبب وعده له أن يستغفر الله له لعله يهديه، فلما تبين له أن أباه مات على الشرك، وأنه عدو لله لا رجاء في هُداهْ، تبرأ منه، وقطع صلته به»[3].

وهذا الصحابي الشاب عبد الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه تبرأ من أبيه وهو زعيم المنافقين في المدينة المنوّرة، روى ابن جرير بسنده عن ابن زياد قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبي قال: «ألا ترى ما يقول أبوك؟ قال: ما يقول أبي بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال: فقد صدق والله يا

(١) هود ٤٥ ـ ٤٦
(٢) التوبة ١١٤.
(٣) في ظلال القران ٣/١٧٢١.

رسول الله، أنت والله الأعزّ وهو الأذل، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله، وإنَّ أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بوالده مني، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتيهما به، فقال رسول الله ﷺ: لا». فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه، قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ والله لا يأويك ظلها، ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله، فقال: يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، فقال، والله لا يدخلن إلا بإذن من الله ورسوله، فأتوا رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «اذهبوا إليه فقولوا له: خله ومسكنه، فأتوه فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم»[١].

وهذه أم حبيبة رضي الله عنها تضرب أعظم المثل في توجيه الولاء لله ولرسوله ﷺ، فقد روى ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى المدينة المنوّرة ليقابل رسول الله وهو يريد غزو مكة المكرمة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة رضي الله عنها، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله وأنت امرؤ نجس مشرك، ولا أحب أن تجلس على فراشه[٢].

● **المفاصَلَةُ بين الولد وأمه:**

وكما أن العقيدة هي الوشيجة التي قطعت صلة الحسب والنسب بين الولد المؤمن ووالده الكافر كما هو الحال في قصة إبراهيم وأبيه آزر، وبين الولد الكافر ووالده المؤمن كما هو الحال بين نوح عليه السلام وولده المشرك، كذلك فإن العقيدة هي التي قطعت الصلة بين الولد وأمه، فهذا

---

(١) حياة الصحابة ـ الكاندهلوي ٢/٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٢٩٤.

سعد بن أبي وقاص يروي مفاصلته لأمه المشركة، وإعطاء الولاء لله ولرسوله فيقول:

«ما أن سمعت أمي بخبر إسلامي حتى ثارت ثائرتها، وكنت براً بها، محباً لها، فأقبلت عليّ تقول: يا سعد ما هذا الدين الذي اعتنقتهُ فصرفك عن دين أمك وأبيك، والله لتدعن دينك الجديد أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فيتفطر فؤادك حزناً عليّ، ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت، وتعيرك الناس بها أبد الدهر. فقلت: لا تفعلي يا أماه، فأنا لا أدع ديني لأي شيء، لكنها مضت في وعيدها، فاجتنبت الطعام والشراب ومكثت أياماً على ذلك لا تأكل ولا تشرب فهزل جسمها، ووهن عظمها، وخارت قواها، فجعلتُ آتيها ساعة بعد ساعة أسألها أن تَبْتَلِعَ شيئاً من طعام أو قليلاً من شراب فتأبى ذلك أشد الإباء، وتقسم ألا تأكل أو تشرب حتى تموت أو أدع ديني، عند ذلك قلت لها يا أماه إني على شديد حبي لك لأشد حباً لله ورسوله، والله لو كان لك ألف نفس فخرجت منك نفساً بعد نفس ما تركت ديني هذا لشيء»[1].

وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه كان فتى مكة شباباً وجمالاً، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال.. حلفت أمه حين أسلم ألا تأكل ولا تشرب، ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها، فكانت تقف للشمس حتى تسقط مغشياً عليها، وكانت تقول له حين قدم مكة المكرمة يا عاق أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. وحين انتهى من إخبار رسول الله ﷺ حول مهمته في المدينة ذهب إلى أمه، فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصَّبَأَة بعد؟ قال: أنا على دين رسول الله ﷺ، وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولرسوله، قالت: ما شكرت حريتك مرة بأرض الحبشة، ومرة بيثرب، فقال: أفر بديني أن تفتنوني، فأرادت حبسه، فقال: لئن أنت حبستيني لأحرضن على قتل من يتعرض لي، قالت: فاذهب لشأنك

---

(١) صور من حياة الصحابة ـ د. عبد الرحمن باشا جـ ٤/١١١ ـ ١١٢.

وجعلت تبكي [١].

«هذه الحادثة تدل بوضوح على التغير الذي تفرضهُ العقيدة على المؤمن حين يرى أمه وأباه وعشيرته. وأي قريب أو بعيد في جانب الطغيان والجاهلية، فلا بد حينها من ذلك الفاصل الحاسم بينه وبينهم كما فعل مصعب رضي الله عنه، فهناك إذا وشيجه واحدة تربط الناس في الله، فإذا انبتت تلك الوشيجة فلا صلة ولا مودة» [٢].

وصدق الله القائل في محكم كتابه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ [٣].

● **المفاصلة بين الزوج وزوجته:**

وكما أن العقيدة فصلت بين الولد وأمه فإنها كذلك قطعت الصلة التي بين الزوج وزوجته، ومصداق ذلك ما أثبته الله تعالى في محكم كتابه إذ يقول: ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل ادخلا النار مع الداخلين، وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ [٤]

فهذان رسولان كريمان نوح، ولوط عليهما السلام يؤاكلان امرأتيهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ليلاً ونهاراً، ولكنهما لم توافقانهما على الإيمان، ولم تصدقانهما في الرسالة فكفرتا فلم يجد ذلك كله شيئاً، ولا دفع

---

(١) انظر كتاب (مصعب بن عمير الداعية المجاهد - محمد حسن برقيش ص ١٠٤ - ١١٠ - ١١٢ دار القلم - دمشق ط ٢ / ١٩٧٥ م.

(٢) مصعب بن عمير ص ١٢٣.

(٣) التوبة ٢٣.

(٤) التحريم ١٠ - ١١.

عنهما محذوراً[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ (التحريم ١٠).

ومثل آخر ضربه الله للمؤمنين، ففرعون كان أعتى أهل الأرض وأكفرهم ولكن ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ولم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به (ونجني من فرعون وعمله)، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم (ونجني من القوم الظالمين)... وهي نموذج عالٍ في التجرد من كل الأواصر والمؤثرات، ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى»[2]٧

هذه المفاصلة بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة كما في قصة نوح ولوط عليهما السلام وامرأتهما، وبين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر كما في قصة امرأة فرعون نجدها في حياة الصحابة رضوان الله عليهم، فهذا هو الطفيل بن عمرو الدوسي بعد أن شرح الله صدره للإسلام يعود إلى قومه فتأتيه زوجته فيقول لها: إليكِ عني فلستُ منكِ، ولستِ منّي، فتقول: ولم؟ بأبي أنت وأمي، فيقول: فرق بيني وبينك الإسلام، فقد أسلمتُ وتابعتُ دين محمد ﷺ، فتقول: فديني دينك...»[3].

● **المفاصلة بين أولى الأرحام:**

وتمتد المفاصلة حتى تشمل أولى الأرحام في الأسرة الواحدة والقبيلة الواحدة، واقرأ قوله تعالى: ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٦٢١ ـ ٣٦٢٢.

(٣) صور من حياة الصحابة ـ د. عبد الرحمن الباشا ٤/٣٠ دار النفائس ط ٨/١٣٩٩ هـ.

معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (الممتحنة ٤)، وقوله تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ (المجادلة ٢٢)، وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ وإليك هذين المثلين، فأما الأول فقد روى ابن إسحاق أن أبا عَزيز بن عمير كان أسيراً في أيدي المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد أوصى أصحابهُ بهم خيراً، قال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال مصعب: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقلت: يا أخي أهذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب رضي الله عنه: إنه أخي - أي الأنصاري الذي أسره - دونك[1].

وأما المثل الثاني: فإنه مستمد من حياة عُمير بن سعد رضي الله عنه، فقد تزوجت أمه بعد وفاة والده من ثرى من أثرياء الأوس يدعى الجُلاسُ بن سويد، فكفل عميراً، وضمه إليه، وأحسن رعايته، وقد سمعهُ عمير ذات مرة يقول: «إن كان محمد صادقاً فيما يدعيه من النبوة فنحن شر من الحمير»، ولقد رأى عمير بن سعد أن في السكوت عن الجلاس والتستر عليه خيانةٌ لله ورسوله، فالتفت إليه وقال: والله يا جُلاس ما كان على ظهر الأرض أحد أحب بعد محمد بن عبد الله إليك مني، فأنت آثرُ الناس عندي، وأجلهم يداً عليّ، ولقد قلت مقالة إن ذكرتُها فَضَحْتُكَ، وإن أخفيتها خنتُ أمانتي، وأهلكتُ نفسي وديني وقد عزمت على أن أفضي إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قلت، فكن على بينة من أمرك، وقد أخبر رسول الله ﷺ بما سمع من الجلاس بن سويد[2].

* * *

(١) حياة الصحابة - الكاندهلوي ٢/٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) صور من حياة الصحابة - د. عبد الرحمن الباشا جـ ٤/١٥ - ١٦ - ١٧.

٣ ـ لماذا لا يجوز إعطاء الولاء للكافرين؟

إنه يحرم على المؤمن أن يعطى ولاءه للكافرين ـ كما رأينا ـ لأسباب كثيرة أذكر منها ما يأتي :

أ ـ جنسية المسلم عقيدته(١) :

لقد جاء الإسلام ليقرر أن هناك طريقاً واحداً يصل إلى الله وما سواه فباطل : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (الأنعام ١٥٣) وأن هناك نظاماً واحداً هو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهو جاهلية، ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (المائدة ٥٠)، وأن هناك حقاً واحداً لا يتعدد، وما عداه فهو ضلال : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ (يونس ٣٢)، وأن هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله فإذا انقطعت هذه الوشيجة فلا صلة ولا مودة ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ (المجادلة ٢٢) .

فليست قرابة المسلم أباه أو أمه وأخاه وزوجتهُ وعشيرته ما لم تنعقد الآصرة الأولى في الخالق، فتتصل من ثم بالرحم ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ (النساء ١) . يقول صاحب المعالم رحمه الله(٢) :

«وطن المسلم الذي يحن إليه ويدفع عنه ليس قطعة أرض، وجنسية المسلم التي يعرف بها ليست جنسية حكم، وعشيرة المسلم التي يأوى إليها ويدفع عنها ليست قرابة دم، وراية المسلم التي يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم . . فكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته فهي دار الإسلام

---

(١) انظر معالم في الطريق ص ١٤٩ وما بعدها ـ دار الشروق ط ٨/ ١٤٠٠ هـ.

(٢) انظر الصفحات التالية ١٥٨ ـ ١٥٩ ـ ١٦٠ .

ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ولا قوم، ولا تجارة.. وهذا هو التصور الرفيع للدار والجنسية والقرابة وهو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أَوْشَابُ التصورات الجاهلية الدخيلة، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية الشرك بالأرض، والشرك بالجنس، والشرك بالقوم، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة تلك التي يجمعها الله سبحانه في آية واحدة فيضعها في كفة ويضع الإيمان ومقتضياته في كفة أخرى، ويدع للناس الخيار ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

ب ـ الكافرون بعضهم أولياء بعض:

إنه يحرم على المؤمن أن يعطي ولاءه للكافرين من شيوعيين ويهود ونصارى ومجوس وسواهم لأن هؤلاء مهما اختلفت عقائدهم وجنسياتهم بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ (الأنفال ٧٣).

إن الكافرين يعيشون في تجمعات خاصة بهم لهم أنظمتها وخصائصها وروابطها، ولهذا كان لا بد للمؤمنين أن يتواجدوا في مجتمع خاص بهم يتميز عن مجتمعات الكافرين في خصائصه وعاداته وقيمه وموازينه وتصوراته وولائه، أما إذا اختلط المؤمن بالكافرين اختلاطاً ليس لهم معه وطن أو مجتمع أو قيادة أو كيان أو ولاء فإن هذا سيؤدي إلى وقوع فساد عريض بين الناس[2] ووقوع فتنة كبيرة، فتنة تصيب المؤمنين لأنهم ذابوا في الكيان الجاهلي، وفتنة تصيب الأرض بغلبة الجاهلية وطُغيانها.

والذي يستقرأ التاريخ الإسلامي يتحقق من صدق الآية الكريمة، ففي

---

(١) التوبة ٢٤.

(٢) مختصر ابن كثير جـ ٢/١١٢.

غـزوة الأحزاب مثـلاً التقى الكافـرون جميعـاً لقتـال المسلمين فكـانـوا أوليـاء لبعضهم، المنـافقون واليهـود والمشركـون وكلهم كفرة جمعتهم رايـة واحـدة، وولاء واحد، وهدف واحد، وحين زحفت جحافل التتار لغزو العالم الإسلامي وقف النصارى الغربيون والمنحرفون في داخل الـوطن الإسلامي من أصحـاب الفـرق الباطنيـة، وقفوا جميعـاً ليعلنوا الحـرب على الإسلام وأهله، وجمعهم ولاء واحد.

وقبل هذا الـزحف الجاهلي اجتمـع نصارى الـروم ونصارى العـرب في بلاد الشام ليقفـوا صفاً واحـداً في مواجهـة الصحابـة رضوان الله عليهم، وفي هذا العصر الذي نعيش فيه نجد صدق الآية الكريمة ﴿ والذين كفـروا بعضهم أولياء بعض ﴾، فها هي اليهودية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية العالمية يوالي أتباعها بعضهم بعضاً، ولولا هذا الولاء هل كان لليهود وجود على أرض الإسراء والمعراج؟ لولا ولاء النصارى الغربيين لليهود هل كانت لهم دولة على أرض فلسـطين؟ لـولا ولاء الشيـوعيين لليهـود بـإرسـال آلاف المهـاجـرين من بلادهم إلى الأرض المباركة هل كان لهم كيان؟.

وما يحدث اليوم في لبنان خير مثل على ولاء الكافر للكـافر، فـالنصارى العرب قد أعطوا ولاءهم للصليبية الغربية، واليهودية الحـاقدة، وليس المجـال هنا مجال سرد للحقائق وإنما اكتفى بالإشارة إلى بعضها:

أما عن الولاء الذي بين اليهود والشيوعية العـالمية فتؤكـدهُ الوثـائق ومنها أن الرجلين اللذين أسسا الحـزب الشيوعي في فلسـطين كانـا مؤيدين من قبـل لينين عـام ١٩١٩ م وهما (جـاك شايليف، وراوول كـاربنورغ) وهمـا من يهود الاتحاد السوفيتي، كما أن الأحزاب الشيوعية التي شكلت في المشرق العربي كان مؤلفوها من اليهود[1].

والشيـوعية وليـدة الماسـونية، ومعنى هـذا أن هناك ولاءً بين الشيـوعيـة

---

(١) العوامل التي تنخر في الكيان الإسلامي ص ٤٥.

واليهودية لأن الأخيرة هي التي أنشأت الماسونية، جاء في بيان الشرق الأعظم الفرنسي عام ١٩٠٤ م أن الماركسية واليهودية هما وليدة الماسونية[١].

وأما الولاء الذي بين اليهود والنصارى فتؤكده الوقائع الآتية:

١ ـ عندما رفضت الدولة العثمانية المسلمة إلحاح اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين تعاونت الدول الصليبية مجتمعة وأوجدت حلفاً فيما بينها يتألف من بلغاريا، ورومانيا، والنمسا، وفرنسا، واليونان، وإيطاليا لمحاربة الدولة الإسلامية بغية تهيأة الجو والظروف في الهجرة إلى فلسطين[٢].

٢ ـ يكفي أن نعلم أن بريطانيا هي التي منحت اليهود وعد بلفور عام ١٩١٧ م، والذي بموجبه تقرر إنشاء الدولة اليهودية فوق أرض إسلامية، وتحت حماية بريطانيا أنشأ اليهود مدارسهم وجمعياتهم وجامعاتهم.

٣ ـ أكد البابا يوحنا أن الكنيسة الكاثوليكية تدين مناهضة السامية، وتأمل أن ينمو الحوار بين الإخوة الكاثوليك واليهود، وقد جاءت هذه الكلمات أثناء استقبال البابا لنحو عشرين من زعماء المنظمة العالمية اليهودية في مقره بالفاتيكان، وقال إن هذا اللقاء هو دليل على التطور الدائم والعلاقات الإيجابية بين الطائفتين[٣].

بعد سرد هذه الحقائق والوقائع يتأكد لدينا نحن المؤمنين صدق ما أثبته المولى سبحانه في محكم كتابه ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾، فكيف بعد هذا يقدم مؤمن على إعطاء ولائه لليهود أو النصارى أو الشيوعيين؟ إنه لا بد أن يتميز المؤمنون بولائهم لمواجهة ولاء الكافرين لبعضهم كما قال تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾.

* * *

---

(١) الأفعى اليهودية ـ عبد الله التل ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٠.

(٣) مجتمع الكراهية ـ سعد جمعة ص ٩٩.

٤ ـ مُقتضيات الولاء لله:

ومن مقتضيات الولاء لِلَّهِ ما يلي:

أ ـ التزام جماعة المسلمين:

إن من أعطى ولاءه لله ولرسوله والذين آمنوا يجب عليه أن يلتزم بجماعة المسلمين وإمامهم الذي يحكم بما أنزل الله، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام أحمد: «آمركم بخمس أمرني بهن الله: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنَّ من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى جاهلية فإنه من جُثَى جهنم، قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عزّ وجلّ المؤمنين عباد الله».

وروى الترمذي أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية فقال:

إني قمتُ فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال: أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم... وعليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، لا يخلون رجل بامرأة فإنه لا يخلو رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة».

وروى أبو داود أنه ﷺ قال:

«من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه». وفيما يتصل بالتزام السمع والطاعة للإمام المسلم وردت أحاديث كثيرة منها قولهُ عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح عن ابن عباس:

«من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شيئاً فمات مات ميتة جاهلية»، وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية».

والمراد بالجماعة هنا الجماعة التي توافق الكتاب والسنّة، وأمرها إلى إمام مسلم[1].

ب ـ النهي عن مظاهرة المشركين ومناصرتهم:

ومن مقتضيات الولاء أنه لا يجوز للمؤمن أن يقف في صف الكافرين يظاهرهم ويناصرهم ويرفض أن يلتحق بجماعة المسلمين، وقد ضرب الله مثلاً للذين آمنوا أفراداً من المسلمين آمنوا بالله ورسوله ولكنهم رفضوا الالتحاق برسول الله وجماعة المسلمين في المدينة المنوّرة، وآثروا أن يعيشوا في المجتمع الجاهلي، وفيهم قال تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ (الأنفال ٧٢).

«هؤلاء الأفراد الذين وجدوا في مكة أو حول المدينة المنوّرة يعتنقون العقيدة، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة، ولا يدينون فعلاً دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه، وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم، ولم يجعل الله لهم ولاية مع هذا المجتمع، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامي[2].

كذلك لا يجوز للمؤمن أن يطلب المناصرة من الكافرين، فقد روى ابن جرير[3] أن عبادة ابن الصامت جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن لي موالي من اليهود وكثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي من يهود، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين

---

(١) حد الإسلام وحقيقة الإيمان ـ عبد المجيد الشاذلي ص ٥٤١ ط ١/١٤٠٤ جامعة أم القرى.

(٢) في ظلال القرآن ـ ٣/١٥٥٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٢٦ ـ ٥٢٧.

آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾[١].

ويدخل في مظاهرة الكفار ومناصرتهم نقل أسرار المؤمنين إليهم، من ذلك أن حاطب بن أبي بلتعة[٢] رضي الله عنه كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر وله بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، فلما عزم رسول الله ﷺ فتح مكة المكرمة، أمر رسول الله المسلمين بالتجهز لغزوهم، وقال: «اللهم عَمِّ عليهم خبرنا» فعمد حاطب بن أبي بلتعة فكتب كتاباً، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً، فلما علم رسول الله ﷺ بأمره قال: يا حاطب ما هذا؟ قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: إنه صدقكم»، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة[٣].

ولولا أن حاطباً من أهل بدر لما تجاوز رسول الله ﷺ عنه لأن عمله ذاك يعد خيانة لله ولرسوله وللذين آمنوا كما قال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي هذا عبرة عظيمة أن من ينقل من المؤمنين إلى الكافرين أسرار جماعة المسلمين العسكرية والأمنية والسياسية وسواها فإنه قد ارتكب خيانة عظمى لموالاته لأعداء الله.

---

(١) المائدة ٥١.

(٢) انظر قصته في مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٣) الممتحنة ١.

جـ ـ المودة القلبية لا تعطى إلا للمؤمن:

ومن مقتضيات الولاء لله ولرسوله ﷺ أن المودَّة القلبية لا يعطيها المؤمن إلا لأخيه المؤمن، ولهذا فإن الإسلام وإن أباح لنا نوعاً من الصلات الاجتماعية مع الكفار كما سنرى إلا أنه حرم علينا أعمالاً معينة لأنها قد تحرك مشاعر المودة والمحبة القلبية بين المؤمن والكافر ومن هذه الأعمال ما يأتي:

١ ـ يحرم على المؤمن ابتداء اليهود والنصارى وسواهم من الكفار بالسلام للحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبْدأوا اليهود والنصارى بالسلام».

وإلى التحريم ذهب الجمهور من السلف والخلف[١]، واتفق العلماء أن أهل الكتاب إذا سلموا على مسلم رد عليهم بقوله: وعليكم[٢]. والحكمة من تحريم ابتداء الكفار بالسلام أن السلام وسيلة لإفشاء المحبة بين المسلمين، ولهذا كانت هذه التحية خاصة بالمؤمنين دون الكافرين لئلا تحرك مشاعر المحبة القلبية في صدر المؤمن تجاه الكافر.

٢ ـ يحرم على المؤمن أن يقلد الكافر في لباسه[٣] الذي يتميز به بين الناس كوضع صليب في صدره أو لبس عمامة أو قلنسوة لا يلبسها إلا الكفار، والقاعدة في هذا قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»، فتقليد المؤمن للكافر في زيه ولباسه ربما يثير في نفسه مشاعر المحبة والمودة تجاههم.

٣ ـ يحرم على المؤمن أن يشارك اليهود والنصارى والشيوعيين وسائر الكفرة[٤]

---

(١) انظر نيل الأوطار جـ ٨/٢٢٥ ـ ٢٢٦ وسبل السلام جـ ٤/٦٨.
وكشاف القناع عن متن الإقناع جـ ٣/١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) سبل السلام جـ ٤/٦٨.

(٣) كشاف القناع جـ ٣/١٢٨.

(٤) انظر في هذه المسألة في كشاف القناع جـ ٣/١٤١ مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض.

في أعيادهم أو يهنئهم أو يعزيهم أو يعودهم لأن في ذلك تعظيماً لهم، أما عيادة اليهودي والنصراني فجائزة إذا رجى إسلامهُ كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن أنس قال: كان غلام يهودي يخدم رسول الله ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطع أبا القاسم، فأسلم فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»(١).

قال الشوكاني: «في الحديث دليل على جواز زيارة أهل الذمة وإذا كان الزائر يرجو بذلك حصول مصلحة دينية كإسلام المريض»(٢).

* * *

٥ ـ ما لا يدخل في موالاة الكافرين:

هناك أعمال إذا فعلها المؤمن كفرد أو المؤمنون كجماعة فإنها لا تعد موالاة للكافرين، وأذكر منها ما يلي:

١ ـ الاستعانة بالمشركين في بعض الأعمال:

من هذه الأعمال التي لا تدخل في ولاء الكافرين الاستعانة بهم في تولية بعض وظائف الدولة الإسلامية ضمن الشروط الآتية:

أ ـ لا يجوز لكتابي يهودياً كان أم نصرانياً أن يتولى الوظائف التي لها الصبغة الدينية كالإمامة والخلافة لأنها رياسة عامة في الدين والدنيا، خلافة عن النبي ﷺ، ولا يجوز أن يخلف النبي ﷺ في ذلك إلا مسلم، كذلك فإن قيادة الجيش والقضاء بين المسلمين والولاية على الصدقات ونحوها لا يجوز لكافر أن يتولاها، لأن قيادة الجيش ليست عملاً مدنياً صرفاً، بل هي عمل من أعمال العبادة في الإسلام، إذ الجهاد ذروة سنام هذا الإسلام، والقضاء إنما هو حكم بالشريعة الإسلامية، ولا يطلب من غير

---

(١) نيل الأوطار ـ ٨/٢٢٨ دار الجيل ببيروت.

(٢) المرجع السابق.

المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به[1].

ب ـ أما الوظائف غير الدينية فيجوز السماح للذمي أن يتولاها إذا تحققت فيهم الشروط التي لا بد منها من الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة المسلمة[2]، أما الذين يخشى منهم لحقدهم وعداوتهم أو إلحاق الضرر بالمسلمين فلا يستعان بهم في وظائف الدولة، والمبدأ في ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ (آل عمران ١١٨).

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الأجهزة والوظائف الحساسة في الدولة المسلمة لا يجوز لكافر أن يتولاها خشية الاطلاع على أسرار المسلمين ونقلها إلى الكفار، فقد روى ابن أبي حاتم: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه «إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً، فقال قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمن». قال ابن كثير بعد أن ذكر الأثر: «ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب»[3].

أما إذا اقتضت الضرورة للاستعانة بذمي ومن يدخل في حكمه فلا حرج كما جاء في كشاف القناع (يكره أن يستعين مسلم بذمي في شيء من أمور المسلمين إلا لضرورة)[4].

---

(١) انظر كتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ـ د. القرضاوي ص ٢٣ مكتبة وهبة ط ١/١٩٧٧ م.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣١٣.
(٤) كشاف القناع ٣/١٣٩.

ومن هذه الوظائف التي يجوز للذمي أن يتولاها وظيفة الطبابة، «فقد كان الأطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمناً طويلاً»(١).

وقد اعترف المؤرخون النصارى بهذه السماحة التي عرف بها الإسلام، يقول المؤرخ الأمريكي (درابر): «إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة(٢).

كذلك فإن من الأعمال التي لا تدخل في الموالاة للكافرين الاستعانة بهم في تقديم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية للدولة المسلمة، أما فيما يتعلق بالاستعانة بهم لتقديم الخدمات العسكرية فالنصوص من السنّة تجيزها، قال ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد) لما أجمع رسول الله ﷺ إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان ابن أمية أدْرعاً وسلاحاً، فأرسل إليه وهو يومئذٍ مشرك، فقال: يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً فقال صفوان: أغصْباً يا محمد؟ قال: بل عارية، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، وفيه من الفقه أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه»(٣).

وقال في موضع آخر من كتابه «فلما كان الصحابة بذي الحليفة(٤) بعث

---

(١) من روائع حضارتنا ص ٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٩١.

(٣) زاد الميعاد ٢ / ٤٣٩ ـ ٤٤٠ مطبعة السنّة المحمدية ـ القاهرة.

(٤) في قصته صلح الحديبية.

رسول الله ﷺ بين يديه عيْناً لـه من خزاعـة يخبره عن قـريش. وفي هذا النص فـائدة أن الاستعـانة بـالمشرك المـأمون في الجهـاد جائـزةٌ عنـد الحـاجـة لأن الخزاعي كان كافراً إذ ذاك»[1]. والضابط في الاستعانـة بالكفـار من المشركين في الأمور العسكريـة ما قـاله الشـافعي: «إن الكافـر إذا كان حسن الـرأي في المسلمين ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استعين به»[2].

أما الحديث الـذي رواه مسلم وفيه أنـه ﷺ قال لـرجل مشـرك تبعه يـوم بدر: ارجع فلن أستعين بمشرك فتوجيهـه كما جـاء في كتاب (سبـل السلام): «لقد رده رسول الله ﷺ رجاء أن يسلم، إذ أن الاستعانة كانت ممنوعة فـرخص فيهـا وهـو الأقـرب، وقـد استعـان رسـول الله ﷺ يـوم حنين بجمـاعـة من المشركين»[3].

أمـا الاستعانـة بالـذمي في الخدمـات الاقتصاديـة والاجتماعيـة والعلمية فتثبتها سيرة السلف الصالح، فقـد روى الإمام أحمـد عن الأحنف بن قيس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعان بـأهل الـذمة لضيـافة من يمـر بهم من المسلمين المجاهدين يوماً وليلة، وأن يصلحوا القناطر[4].

وروى الـطبـري أن المثنىٰ بن حـارثـة رضي الله عنـه استعـان ببعض الدهاقين من زعماء الفرس فأتوه بالأعلاف والزاد والأدلاء[5].

وقـال المؤرخ ابن عبـد الحكم أن عمـرو بن العـاص استعـان فـي الإسكندرية بجماعة من رؤساء الأقباط، وقد أصلحوا لهم الطريق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق[6].

---

(١) زاد الميعاد ٢/٣٠٢ - ٣١٢.
(٢) سبل السلام ٤/٤٩ - ٥٠.
(٣) سبل السلام ٤/٤٩ - ٥٠.
(٤) كشاف القناع جـ ٣/١٢٣.
(٥) حركة الفتح الإسلامي - د. شكري فيصل ص ٩٨.
(٦) حركة الفتح الإسلامي - د. شكري فيصل ص ١٤٢.

يتبين لنا على ضوء ما أثبت من نصوص أن المؤمن إذا استعان بالكافر - يهودياً كان أو نصرانياً - ومن دخل في حكمهما في بعض وظائف الدولة، أو لتقديم خدمات عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو علمية ضمن الشروط التي ذكرتها لا يعد هذا العمل ولاء للكافرين.

٢ - البر والإحسان في معاملة الكافر:

ومن الأعمال التي لا تدخل في موالاة الكافر البر والإحسان والقسط في معاملته، والمبدأ الإسلامي في العلاقة مع الكافر في داخل الدولة الإسلامية وخارجها يرسمه النص القرآني:

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة ٨).

فالآية الكريمة تقرر أنه يجوز للمؤمن أن يعامل الكفرة الذين لا يقاتلونه في دينه بالبر والإحسان[١] «وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير أن قتيلة قدمت على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، وتدخل بيتها، فسألت عائشة رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾، فأمرها أن تدخلها بيتها، وتقبل هديتها»[٢].

وهذا الإحسان إلى الكافر في معاملته أساسه أن المؤمن يعتقد أن الله تعالى كرم الإنسان لإنسانيته مهما اختلف لونه وشكله ودينه ولغته لقوله تعالى: ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾[٣]، وهذا التكريم يوجب لكل إنسان حق الرعاية والاحترام والإحسان، كما أن المؤمن ليس مكلفاً أن يحاسب الكافر على كفره، والضال على ضلاله، إنما حسابه على الله تعالى يوم القيامة

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٨٤، والجامع لأحكام القرآن ١٨/٥٩، ومفاتيح الغيب ٣٠/٣٠٤، وفي ظلال القرآن ٦/٤٨٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٨٤.

(٣) الإسراء ٧٠.

﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر، إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾.

والذي يستقرأ سيرة رسول الله ﷺ يجد هذا الإحسان وذلك البر في التعامل مع اليهود والنصارى والمشركين والشواهد على هذا كثيرة أذكر منها ما يأتي:

* روى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أن رسول الله ﷺ بعث إلى أهل مكة مالاً لما قحطوا ليوزع على فقرائهم[1]، هذا على الرغم من العنت والأذى الذي واجه به المشركون أهل مكة رسول الله وأصحابهُ.

* وروى ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد) أن وفد نجران وهم من النصارى لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة المنوّرة، دخلوا عليه مسجده بعد العصر فكانت صلاتهم فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم».. وفي هذا جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين إذا كان ذلك عارضاً، ولا يمكنون من اعتياد ذلك[2].

ومن البر في معاملة اليهود أنه ﷺ كما روى البخاري مات ودرعه مرهونة عندَ يهودي في نفقة عياله، وقد كان في وسعه أن يستقرض من أصحابه، وما كانوا ليضنوا عليه بشيء، ولكنه أراد أن يعلم أمته[3].

وكان للرسول ﷺ جيران من أهل الكتاب فكان يتعاهدهم ببره ويهديهم الهدايا، ويتقبل منهم هداياهم، حتى إن امرأة يهودية دست له السم في ذراع شاة أهدتها إليه لما كان من عادته ﷺ أن يتقبل الهدية[4].

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص ٤٧.
(٢) زاد المعاد جـ ٣/ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨٧ ـ مطبعة السنّة المحمدية ـ القاهرة.
(٣) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص ٤٩.
(٤) من روائع حضارتنا ص ٨٤.

أما عن بر الصحابة وإحسانهم في معاملة أهل الذمة ما جاء في كتب السيرة أن عمر ابن الخطاب شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو ابن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرهاً عنها، فسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ذلك فأخبره أن المسلمين كثروا، وأصبح المسجد يضيق بهم، وفي جواره هذه المرأة، وقد عرض عليها عمرو بن العاص ثمن دارها، وبالغ في الثمن فلم ترضَ، مما اضطر عمرواً إلى هدم دارها، وإدخاله في المسجد، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت، فلم يرضى عمر بن الخطاب بذلك، وأمر واليه على مصر عمرو بن العاص أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت[1].

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه[2] فيما رواه الشيخان وأحمد والترمذي يوصي غلامه أن يعطي جاره اليهودي من الأطعمة ويكرر الوصية مرة بعد مرة، حتى دهش الغلام وسألهُ عن سر هذه العناية بجار يهودي؟ فقال ابن عمر: «إن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»».

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن البر والإحسان في المعاملة شيء والمودة والمحبة القلبية شيء آخر، وكما أثبتُ فيما مضى أن المؤمن يحرم عليه أن يُكِنَّ للكافر يهودياً كان أم نصرانياً شيئاً من المحبة القلبية، والمودة النفسية لأن هذه المشاعر لا توجه إلا لمن جمعته به رابطة العقيدة، ووشيجة الإسلام، بل يجب عليه أن يبتعد عن كل ما يثير هذه المشاعر من إلقاء التحية على الكافر، أو تقليده في لباسه الخاص به، أو تهنئتهم في أعيادهم الدينية الخاصة بهم كما أسلفت، ولا نفهم من البر والإحسان في معاملة الكفار ألا يغلظ المؤمن عليهم ويَشتد في ساحات الجهاد بل هو مأمور بالغلظة والشدة والعزة إذا وقع

---

(١) من روائع حضارتنا ص ٨٥.

(٢) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص ٤٩.

القتال بين جماعة المؤمنين وجماعة الكافرين. أخذاً بقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ﴾[1].

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)[2].

وهكذا فإن الولاء ثمرة عظيمة من ثمرات الإيمان، والمؤمن الحق هو الذي لا يوالي في هذه الحياة الدنيا إلا الله ورسوله والذين آمنوا. ويخلع ولاءه عن كل كافر أياً كانت عقيدته أو جنسيتهُ أو وطنهُ، والمبدأ الذي رسمهُ القرآن الكريم في هذا قوله تعالى:

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾[3].

* * *

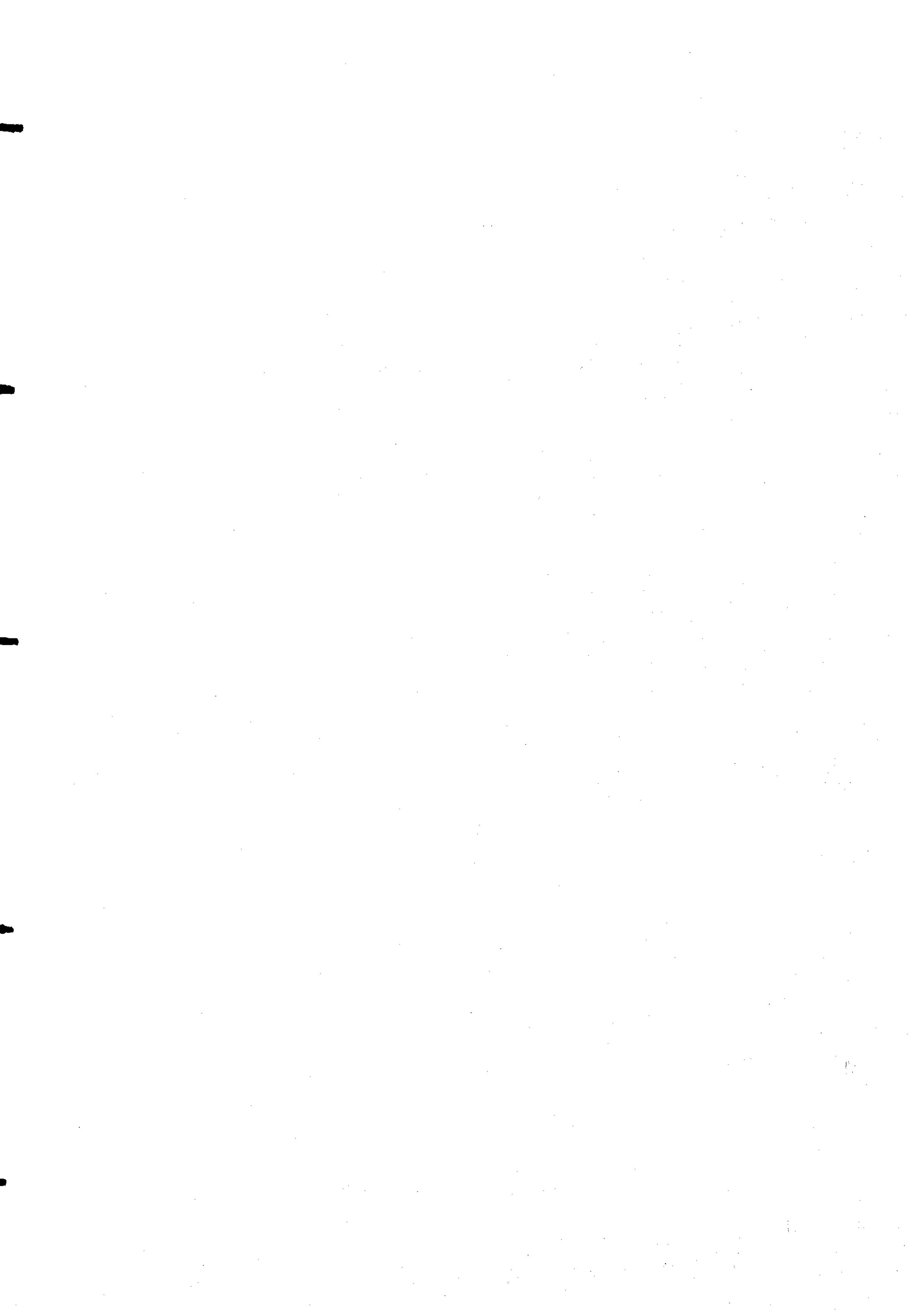
---

(١) التوبة ٧٣.
(٢) محمد ٢٩.
(٣) آل عمران ٢٨.

المبحث الثالث

الإيمان والشكر

- فضيلة الشكر وحقيقته.
- نعم الله لا تعد ولا تحصى.
- سنّة الله في زيادة النعمة وسلبها.



المبحث الثالث
الإيمان والشكر

١ - فضيلة الشكر وحقيقته:

الشكر ثمرة من ثمرات الإيمان، وقد قرن القرآن الكريم بينهما في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (البقرة ١٧٢)، ومنها قوله تعالى: ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾ (النساء ١٤٧).

وللشكر فضائل جليلة، منها أن الله تعالى قرنه بالذكر فقال تعالى:

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾(١)، وجعل الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾(٢)، وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾(٣)، وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾، وقوله في الرزق: ﴿ يرزق من يشاء ﴾ وقوله في المغفرة ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾، وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر كقوله: ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾، ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾.

أما الأحاديث النبوية التي ذكر فيها فضل الشكر منها ما رواه الترمذي أنه ﷺ قال لمعاذ رضي الله عنه: « والله إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل

---

(١) البقرة ١٥٢.

(٢) الزمر ٧٤.

(٣) الأنعام ٥٣.

صلاة، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وثبت في الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قام حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: «أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟» فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وحسنه أنه ﷺ قال:

«أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله».

والشكر يتحقق بالقلب واللسان والجوارح، أما بالقلب فقصد الخير، وإضماره لكل الخلق، وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح فباستعمال نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته[1].

قال رجل لأبي حازم[2]: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بها خيراً أعلنتهُ، وإن رأيت بها شراً سترته، قال فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته، قال فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما. قال فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعاماً، وأعلاه علماً، قال: فما شكر الفرج؟ قال: قال الله تعالى: ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾.

وروى أن وفداً قدموا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبر الكبر، فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك، فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤/ ٨٤.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ـ ابن قيم الجوزية ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلنا إليها فضلك، وأما الرهبة آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر جئنا نشكرك باللسان وننصرف[1].

* * *

٢ ـ نعم الله لا تعد ولا تحصى:

يقول الله تعالى مشيراً إلى نعمه التي لا تعد ولا تحصى: ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (إبراهيم).

يقول صاحب الظلال رحمهُ الله في تفسير هذه الآيات:

«إن الله يفتح كتاب الكون على مصراعيه، فتنطلق سطوره الهائلة بنعمة الله التي لا تحصى، وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر، السماوات والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، الماء النازل من السماء، الثمار النابتة من الأرض، البحر تجري عليها الفلك، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار. لكن البشر لا ينظرون ولا يتدبرون ولا يشكرون. . إن الإنسان لظلوم كفار»[2].

وأختار هنا بعضاً من ألوان النعم التي أنعم الله بها على عباده، لأن المجال ليس مجال استقصاء، بل إن الإنسان عاجز عن ذكر هذه النعم في مجلدات ضخام.

أ ـ نعمة الإسلام:

من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده نعمة الإيمان والإسلام،

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٨٤.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢١٠٦ ـ ٢١٠٧.

ولكي يعرف المسلم قيمة هذه النعمة ليتصور أنه لو ولد في روسيا وكان أبواه كافرين ملحدين، ووفق القاعدة التي ذكرها رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» فإنه سينشأ على عقيدة الكفر والإلحاد، ولو أنه ولد في أمريكا وكان أبواه نصرانيين أو يهوديين فإنه سينشأ على عقيدة اليهودية والنصرانية، وماذا لو أنه ولد في أحضان أسرة وثنيَّةٍ تعبد البقر، أو عاش في كنف أبوين من أكلة اللحوم البشرية في أدغال أفريقيا. . إنه سينشأ إلا أن يشاء الله على عقيدة وثنية جاهلية، إنها إذاً نعمة خاصة أنعم الله بها على المسلم ابتداءً أَنْ وُجِدَ في أسرة مسلمة الأبوان فيها ينطقان بالشهادة، ثم إنها نعمة عامة للبشرية جمعاء أن اختار الله تعالى لها الدين الخاتم وهو دين الإسلام.

فالإسلام نعمة عظيمة توجب الشكر والحمد والثناء، وهذا ما كان عليه السلف الصالح روى ابن أبي الدنيا أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: الحمد لله بالإسلام، فقال: «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة»[1].

وعن سفيان بن عينية قال: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم أنه لا إله إلا الله[2].

وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام[3].

وكان الحسن البصري إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله، ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن[4].

---

(١) كتاب الشكر - ابن أبي الدنيا ص ١٥.
(٢) المرجع السابق ص ٤٥.
(٣) عدة الصابرين ص ١٥٠.
(٤) المرجع السابق ص ١٥٠.

والذي يتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى جعل الإيمان والإسلام والدين نعمة، قال تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (المائدة ٣)، يقول صاحب الظلال رحمه الله في تفسيره للآية الكريمة:

«لا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين، ولا يقدرها قدرها من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها، فهذا الذي عرف الجاهلية، وذاق ويلاتها، ويلاتها في التصور والاعتقاد، ويلاتها في واقع الحياة هو الذي يحس ويشعر، ويرى ويعلم، ويدرك ويتذوق حقيقته نعمة الله في هذا الدين. الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى، ويلات الحيرة والتمزق، ويلات الضياع والخواء في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان، هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى، ويلات التخبّط والاضطراب، ويلات التفريط والإفراط، في كل أنظمة الحياة الجاهلية، هو الذي يعرف نعمة الحياة، ويتذوق نعمة الإيمان[1].

وما أحوج المسلمين أن يتذكروا هذه النعمة العظيمة، نعمة الإسلام فهي التي جعلت لهم تاريخاً، وكانوا بدونها تائهين ضائعين، إن الأمة الإسلامية بدون هذه النعمة لم يكن لها ذكر في الأرض، ولا ذكر في الملأ الأعلى، وهي محاسبة ومسؤولة عن هذه النعمة إن هي استبدلتها بأنظمة وعقائد جاهلية.

ب ـ نعمة الأمن:

والأمن نعمة جليلة توجب الحمد والشكر والثناء، والمراد به أن يكون الإنسان آمناً على نفسه فلا يعتدي عليه أحد، وأن يكون آمناً على ماله فلا يسلبه منه أحد، وآمناً على عرضه فلا يهتكه أحد، وأن يكون آمناً على **دينه**

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٤٤.

وعقيدته فلا يفتنه أحد، ولا يتحقق هذا الأمن إلا في مجتمع احتكم إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول في حديث رواه البخاري في الأدب المفرد:

«من أصبح آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وهذه هي السعادة الحقيقة التي يسعى إليها العقلاء، فليست السعادة في جمع المال، أو النيل من الشهوات والملذات، أو في بناء القصور وتشييد الدور، إنها في أن يكون الإنسان آمناً في بيته، آمناً في مجتمعه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه.

ومن أراد المزيد من الاطلاع على قيمة هذه النعمة فليرجع إلى بحث «الإيمان والأمن» ففيه الغناء.

جـ ـ نعمة الصحة:

والصحة نعمة من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان، وهي التي تستحق الشكر والثناء، يقول الله تعالى: ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (النحل ٧٨)، وقال في موضع آخر: ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ (لقمان ٢٠).

«ووجود الإنسان ابتداء نعمة من الله وفضل، وتزويده بطاقاته واستعداداته ومواهبه هذه نعمة من الله وفضل، وكل نفس يتنفسه وكل خفقة يخفقها قلبه، وكل منظر تلتقطه عينه، وكل صوت تلتقطه أذنه، وكل خاطر يهجس في ضميره، وكل فكرة يتدبرها عقله، إن هي إلا نعمة ما كان لينالها لولا فضل الله»[1].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه النعمة فيما رواه الترمذي «نعمتان

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٩٢.

مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ». وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك».

انظر إلى هذا اللسان الذي تتكلم به أليس نعمة من الله؟ انظر إلى معدتك التي تهضم مختلف أنواع الطعام والشراب أليست هي نعمة من نعم الله؟ انظر إلى عينيك ويديك ورجليك ثم فوق هذا إلى عقلك، أليست هي نعم تستحق منا الشكر والحمد والثناء؟.

وصدق المولى سبحانه حينما أشار إلى بعض هذه النعم في هذه الآية الكريمة:

﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين؟ ﴾.

ولقد عرف السلف الصالح قيمة نعمة الصحة، فقد مر عمر بن الخطاب برجل مبتلى أجذم أعمى، أصم وأبكم فقال لمن معه؟ هل ترون في هذا من نعم الله شيئاً؟ قالوا: لا، قال: بلى، ألا ترون يبول فلا يلتوي، يخرج به بوله سهلاً فهذه نعمة من الله[1].

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله، فقال له يونس:

أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله، فقال يونس: أرى عندك مئين من الألوف وأنت تشكو الحاجة[2].

وقال ابن قيم الجوزية: قال عبد العزيز بن أبي داود: رأيت في يد محمد ابن واسع قرحة، فكأنه رأى ما شق عليَّ منها، فقال لي: أتدري ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف

---

(١) حياة الصحابة ٢/٥٩١ ـ ٥٩٢.

(٢) عدة الصابرين ص ١٥٥.

لساني، فهانت عليَّ قرحته[1].

وضرب الإمام الغزالي مثالاً واحداً لإظهار نعمة الله في الطعام فقال:

«فمن نعمة الله عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلات الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس التي هي آلة الإدراك، فأولها حاسة اللمس، ولم لم يخلق لك هذا اللمس لكنت ناقصاً كالدودة لا تقدر على طلب الرزق من حيث يبعد عنك، فافتقرت إلى حس تدرك ما يبعد عنك، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية، فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تعثر على الذي شممت ريحه، وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته، فتقصد تلك الجهة بعينها، وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب... وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حسنُ الذوق إذ يصل إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك»[2].

وقال في موضع آخر وهو يشير إلى النعم التي أنعم الله بها على الإنسان في نعمة واحدة وهي نعمة الطعام:

«واعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بُعْدٍ ولم يُخْلَقْ لك ميلٌ في الطبع، وشوق إليه، وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البشر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله.. ورؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه فأنعم الله عليك بخلق اليدين، وهما طويلتان، ممتدتان إلى الأشياء، ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة... ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين

(1) المرجع السابق ص ١٦٦.

(2) إحياء علوم الدين ٤/ ١٠٩ ـ ١١٠.

يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن، فلا بد أن يكون من الظاهر دهليز حتى يدخل الطعام منه، فجعل الفم منفذاً إلى المعدة، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام، فخلق لك الأسنان وطبق الأضراس العليا على الأضراس السفلى لتطحن بها الطعام طحناً، ثم الطعام تارة تحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم تحتاج إلى طحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات، وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب. . .»[1].

وهكذا مضى الإمام الغزالي رحمه الله يتحدث عن نعم الله على الإنسان في طعامه إلى أن اختتم حديثه بقوله[2]:

«وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه ومن نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك معنى قوله تعالى: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾.

هـ ـ نعمة الزوجة والذرية الصالحة:

والزوجة نعمة توجب الشكر والحمد والثناء، ولكن أية زوجة؟ إنها الزوجة الصالحة، ولا تكون صالحة إلا إذا اتصفت بصفات حسنة، ومنها طاعة زوجها، فهي تعلم أن الزواج شركة، وكل شركة لا بد لها من أمير ومأمور، فزوجها في الأسرة أميرها وراعيها، ومن العدل أن يطاع الأمير في حدود الطاعة، روى الإمام أحمد أنه ﷺ قال:

«إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت الجنة».

والزوجة الصالحة هي التي لا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها لأن

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤/١١١ ـ ١١٢.

(٢) المرجع السابق ٤/١١٤.

خروجها من البيت بغير إذنه يهدد البيت الآمن المستقر بآلام المخاوف والشك والريبة، وهذه هي معاول الهدم للسعادة الأسرية.

والزوجة الصالحة هي التي تحفظ زوجها في عرضه وموضع شرفه وكراسته، فهي مطالبة بتأدية أمانة عظيمة في حياتها، وهي أمانة الحرص على العرض، ولقد هدد رسول الله ﷺ المرأة التي تدخل إلى زوجها من ليس منه، فيقول ﷺ في حديث رواه النسائي وأبو داود وابن ماجة:

«أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء».

والزوجة الصالحة هي التي تعين زوجها على أمر الآخرة، وذلك بإعانته على الفرائض والنوافل، ففي الحديث الذي رواه الحاكم أنه ﷺ قال:

«رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء».

كذلك فإن الذرية الصالحة نعمة عظيمة توجب الشكر والحمد، والذرية الصالحة من البنين والبنات لهم صفات معينة، منها أداؤهم للعبادات أخذاً بقوله ﷺ في الحديث الصحيح:

«مرو أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم علها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع».

ومن صفاتها أنها تعرف الحلال والحرام، روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، فذلك وقاية لهم ولكم من النار».

كذلك فإن الذرية الصالحة هي الذرية التي تتأدب بالآداب الحسنة، وتتخلق بالأخلاق الفاضلة الطيبة، وذلك أخذاً بقوله ﷺ فيما رواه الترمذي: «ما نحل والدٌ والداً أفضل من أدب حسن».

ومن نعمة الذرية الصالحة أن دعاءها يصل ولى أمرها لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث مسلم: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له..». أفليست الزوجة الصالحة والذرية الصالحة بعد هذا نعمة تستحق الشكر والثناء؟.

و ـ نعمة العمر:

والعمر نعمة كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ».

والإنسان مسؤول عن فراغه ووقته وحياته، هل أنفق عمره في فعل الخيرات؟ هل قضى حياته في بذل الصالحات؟ هل أفنى وقته في طاعة الله وطاعة رسوله؟.

واسمع إلى حديث رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي وحسنه:

«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[١].

فالإسلام دين يعرف قيمة الوقت ويقدر خطورة الزمن، ويؤكد الحكمة الغالية، «الوقت كالسيف إن لم تقطعهُ قطعك»، فالزمن فرصة لفعل الخيرات وفعل الصالحات، قال تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكورا﴾[٢].

فالليل يخلف النهار، ويخلفه النهار مع حركات الأفلاك الدائرة السائرة، ورب العالمين لم يخلق ذلك عبثاً، قبيح بالناس أن يظنوا أن محياهم، في هذا الوجود سدى، إنه الميدان الذي أعد للسباق الطويل، السباق الذي لا

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الخوف.

(٢) الفرقان ٦١ ـ ٦٢.

يتقدم فيه إلا من يعرف ربه، ويذكر حقه، ويشكر نعمه، ومن يجعل من تواصل السنين تواصل دأب ونصب لإحراز الراحة الكبرى»[1].

ومن كلمات الحسن البصري «ما من يوم ينشق فجره إلا نادى منادٍ من قبل الحق يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني بعمل صالح، فإني لا أعود إلى يوم القيامة».

ومن استغلال الإسلام للوقت حثه على مداومة العمل وإن كان قليلاً، وكراهية الكثير المنقطع، ففي الحديث المتفق عليه «يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل».

ومن محافظة الإسلام على الوقت حثه على المبادرة والإسراع في فعل الصالحات، فالإنسان لا يدري ما ينتظره، فهناك الموت المفاجىء، والفقر الذي ينسي، والغنى المطغي والمرض النازل، والشيب الطالع . . . واسمع إلى رسول الله ﷺ وهو يحثنا على الاستفادة من الوقت «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجّال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر». رواه الترمذي وحسنه[2].

ز ـ نعمة المال الحلال:

والمال نعمة، ولكن أي مال؟ إنه المال الحلال، وقد جعله رسول الله ﷺ من جملة النعم التي تجعل العبد يشكر ربه فقال فيما رواه الإمام أحمد «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[3].

ومن علامات أن المال نعمة كون صاحبها لا ينفقة إلا فيما يرضى الله

---

(١) خلق المسلم ـ محمد الغزالي ـ ص ٢٢٦ دار القلم ـ دمشق ط ٢/ ١٤٠٠ هـ.

(٢) رياض الصالحين ـ باب في المبادرة إلى الخيرات.

(٣) قال العراقي: إسناده جيد أنظر ذيل الإحياء ٤/ ١٠٤.

ورسوله، كأن ينفقه على زوجته وأولاده وعياله، أو ينفقه في بذل الصدقات على الفقراء والمحتاجين، أو ينفقه في التزود بما ينفعه في دنياه وآخرته.

أما من أنفق ماله في طريق الحرام كأن يتخذه وسيلة لقضاء شهوته فيما حرمه الله، أو في تعاطي المسكرات والمخدرات، أو ينفقه في شراء أدوات الزينة المحرمة، أو للسفر به إلى بلا الفساد والإباحة طلباً للفاحشة، أو ينفقه للصد عن سبيل الله، فالمال في مثل هذه الحالات يكون نقمة لصاحبه في الدنيا والآخرة.

كذلك فإن من علامات أن المال نعمة كون صاحبه قد كسبه عن طريق مشروع، فأما إن ناله عن طريق محرم كالربا والرشوة، أو الغش والسرقة، أو النصب والاحتيال، أو الميسر والشعوذة.. فكل ذلك مال حرام يكون ـ كما ذكرت نقمة لصاحبه لا نعمة.

* * *

٣ ـ سنّة الله في زيادة النعمة وسلبها:

لله تعالى سنّة في زيادة النعمة وسلبها، فالشكر يوجب الزيادة، والكفر بالنعمة يوجب سلبها، يقول تعالى: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾، (إبراهيم ٧)، وقد روى عن الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، أنه قال[١]: ما كان الله ليفتح باب الشكر ويغلق باب الزيادة، وما كان ليفتح باب الدعاء ويغلق باب الإجابة، وما كان الله ليفتح باب التوبة ويغلق باب المغفرة، واقرأوا قول الله تعالى:

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[٢]وقوله) ﴿ادعوني استجب لكم﴾[٣]، وقوله: ﴿من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحمياً﴾[٤].

وهذه السنّة الإلهية في زيادة النعمة أو سلبها أشار الله إليها في قوله:

---

(١) حياة الصحابة ٢/٥٩٣.
(٢) إبراهيم ٧.
(٣) غافر ٦٠.
(٤) النساء ١١٠.

﴿ ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (البقرة ١٥٣).

فالآية تقرر عدل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، فالإنسان يستطيع أن يبقى نعمة الله ويملك أن يزاد عليها إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا أنكر وبطر[1].

فمن شكر الله على نعمة الإيمان زاده الله إيماناً على إيمان، ومن شكره على نعمة المال الحلال زاده مالاً وغنى وثراء، ومن شكر الله على نعمة الصحة والعافية حفظ صاحبها من الأمراض والعاهات والأدواء، ومن شكر الله على نعمة الأمن في المجتمع الإسلامي بإقامة حكم الله حفظ الله ذاك المجتمع من الفوضى والاضطرابات التي تعصف بالمجتمعات البشرية اليوم.

فما هي الأسباب التي تؤدي إلى إزالة النعمة؟.

أ ـ الكفر بالنعمة:

من الأسباب التي تزيل النعمة وتسلبها الكفر بالنعمة، وقد ضرب الله مثلاً للناس في ذلك فقال تعالى: ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (النحل ١١٢).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره:

«هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، فجحدوا بآلاء الله عليهم، ولهذا بدل الله حالهم فألبسهم وأذاقهم الخوف بعد أن كان يجبىٰ إليها ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٥٣٥ ـ ١٥٣٦ (يراجع الجزء).

رسول الله ﷺ، وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم»[1].

وانظر كيف أن القرآن الكريم يجسم الخوف والجوع فيجعله لباساً، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقاً، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتتضاعف مس الجوع والخوف لهم، ولذعهُ وتأثيره وتغلغله في النفوس، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون[2].

ب ـ نسبة النعمة إلى النفس:

ومما يزيل النعمة أن ينسبها الإنسان إلى نفسه، ولا يعترف بفضل الله عليه، وقد ضرب الله تعالى قارون مثلاً للذين يبغون في الأرض، ويفسدون فيها، وينسبون نعم الله إلى أنفسهم فيستحقون إزالتها، قال تعالى:

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ (القصص ٧٦).

فانظر إلى نعمة المال هذه التي وهبها الله لقارون، وهذا المال كنوز، ومفاتح تلك الكنوز لا يستطيع المجموعة من أقوياء الرجال حملها... من أجل هذا بغى قارون على قومه وفرح فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والتعلق بالكنوز[3].

ونصحهُ قومه بقولهم: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ (القصص ٧٧).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٩.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٤/٢١٩٩.

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٧١١.

إنهم يدعونه إلى أن يستعمل ما وهبهُ الله من هذا المال الجزيل في طاعة ربه، والتقرب إليه، وألا ينسى نصيبه مما أباح الله له في الدنيا من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، وألا يفسد بهذا المال في الأرض[1]. فماذا كان جوابه؟.

قال كما قال الله تعالى: ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ (القصص ٧٨). «وإنما أوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصلت على هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص»[2].

فماذا كانت نتيجة هذا البغي والطغيان؟.

﴿ فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ (القصص ٨١).

هكذا في لمحة خاطفة خسف الله به وبداره الأرض، وهوى في بطنها وذهب ضعيفا عاجزاً، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال[3].

فمن أراد زيادة النعمة ودوامها فلينسبها إلى الله وحده ولا يغتر بما عنده من مال وجاه وثراء فينسبه إلى نفسه كما فعل قارون، فالمصير معلوم وهو زواله وزوال نعمته.

٣ ـ البخل وإضاعة حقوق الفقراء:

ومما يزيل النعمة أن يبخل الإنسان بها، ويضيع حقوق الفقراء والمساكين، وضرب الله في القرآن الكريم مثلاً بأصحاب الجنة قال تعالى:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٥/ ٢٧١٢.

(٣) المصدر السابق د/٢٧١٣.

﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة، إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون ﴾ (القلم ١٧ ـ ١٨).

لقد كان هذا البستان لرجل صالح منفق، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعله أبونا ضاق علينا الأمر، فأقسموا أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر دون أن يتركوا منها شيئاً للمساكين، وعقدوا النية على ذلك[1] فماذا كانت النتيجة؟.

(فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصريم، فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إنْ كنتم صارمين، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وغدوا على حرد قادرين).

طاف طائف من قبل الحق سبحانه بالبستان فكان كالليل الأسود أو مثل الزرع إذا حصد هشيماً يبساً[2].

وعندما رأوا بستانهم على هذه الصورة قال أعدلهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ أي هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، فأجابوا كما قال تعالى وقد اعترفوا بذنبهم: ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا: يا ويلنا إنا كنا طاغين، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها، إنا إلى ربنا راغبون ﴾.

والعبرة في سرد قصة أهل الجنة هؤلاء أن البطر بالنعمة، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الفقراء يؤدي إلى زوالها وسلبها.

٤ ـ الغرور والبطر:

ومما يزيل النعمة ويسلبها الغرور والبطر، وضرب الله مثلاً في كتابه الكريم بنموذج من أمثال هؤلاء الذين يكفرون بالنعمة، وينسون المنعم،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٣٦.

ويزعمون أنهم يستحقونها، وأنهم أهل لها، قال تعالى: ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ (الكهف ٣٢ - ٣٣).

فانظر إلى هذه النعم والآلاء، بستانان من أعناب محفوفان بالنخيل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالها الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة[١].

ثم انظر إلى صاحب الثمار والزروع كيف يفتخر على صاحبه، ويغتر بما عنده ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ (الكهف ٣٤ - ٣٦).

لقد اغتر على صاحبه بماله وجاهه، فأخبره أنه أكثر خدماً وحشماً وولداً، كثرة المال، وعزة النفر، وتلك هي أمنية الفاجر، ولما رأى الزروع والثمار والأشجار والأنهار في جوانب بستانه وأرجائه ظن أنها لا تفنى ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لضعف تيقنه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة[٢] ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾. فماذا كانت النتيجة؟ ﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصراً ﴾ (الكهف ٤٢ - ٤٣).

لقد أرسل الله إلى بستانه الحسبان، «وهو مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها، ويجعلها بلقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم»[٣]. وذلك جزاء لكفره

(١) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢/٤١٨.
(٢) المصدر السابق جـ ٢/٤١٩.
(٣) المصدر السابق جـ ٢/٤٢٠.

بالآخرة واغتراره بأمواله وثماره وبستانه.

٥ ـ الوقوع في المعاصي يزيل النعم:

ومما يزيل النعم عن الإنسان وقوعهُ في المعاصي والذنوب، ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المعنى في أحاديث كثيرة منها قوله فيما رواه ابن ماجة:

«يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط إلا فشا بينهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا ما بين أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم».

وهذا بيان من رسول الله ﷺ لأولى الألباب لعلهم يتعظون ويتذكرون، فالوقوع في الزنى والفاحشة يؤدي إلى زوال نعمة الصحة والعافية.

* والغش في البيع والشراء يؤدي إلى الجفاف وشدة المؤونة وجور السلطان.
* ومنع الزكاة يزيل نعمة الرزق من السماء.
* ونقض عهد الله ورسوله يزيل نعمة الغلبة على الأعداء ويسلب نعمة العزة والقوة والسيادة.
* وعدم الحكم بما أنزل الله يزيل الوحدة والألفة والإخاء بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة.

وهكذا فإن كفران النعمة، ونسبتها إلى النفس، ثم البخل بها وإضاعة حقوق الفقراء، ثم الغرور والبطر والوقوع في المعصية.. كل هذه أسباب تزيل النعمة عن الإنسان كفرد وعن الأمة كجماعة، وما أجمل أن يتعظ المسلم بقول محارب بن دثار قاضي الكوفة:

- أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد.
- أنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد.
- وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد.
- وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد.
- وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد.
- وأنا الغائب الذي أرجعته فلك الحمد.
- وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد.
- وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد[1].

* * *

---

(١) كتاب الشكر ص ٨٦ ـ ٨٧.

المبحث الرابع
الإيمان والخوف والرجاء

- الخوف والرجاء ثمرة من ثمرات الإيمان.
- المؤمن والخوف.
- المؤمن والرجاء.
- صور من حياة رسول الله وأصحابه.

المبحث الرابع
الإيمان والخوف والرجاء

١ - الخوف والرجاء ثمرة من ثمرات الإيمان:

إن الخوف والرجاء ثمرة عظيمة من ثمرات الإيمان الحق، وهذا ما أكدته النصوص القرآنية، فالمؤمن يخاف ربه، ويخشى عذابه، ويرهب عقابه، ويسأل الله تعالى أن ينجيه من عذاب جهنم يوم القيامة، يقول الله تعالى: ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران ١٧٥).

والمؤمن الحق كذلك يرجو رحمة ربه، ويثق بعفوه ومغفرته، ويستبشر برضوانه وثوابه يوم القيامة، وهذا الشعور شعور الرجاء في نفس المؤمن أثبته القرآن الكريم في كثير من الآيات، منها قوله تعالى:

﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، أولئك يرجون رحمة الله ﴾ (البقرة ٢١٨)، وقوله تعالى: ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ (التوبة ١٢٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[1] رحمه الله في معرض حديثه عن الإيمان والخوف والرجاء: «كل سائل راغب وراهب، فهو عابد للمسؤول، وكل عابد لله فهو أيضاً راغب وراهب، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، فكل

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٠/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

عابد سائل، وكل سائل عابد. . والعابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه هو أيضاً راجٍ خائف، راغب راهب، يرغب في حصول مراده، ويرهب من فواته، قال تعالى: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾.

وقال الإمام النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين): (باب الجمع بين الخوف والرجاء): اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يُمَحَضُّ الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنّة وغير ذلك متظاهرة على ذلك[1].

والجمع بين الخوف والرجاء هو ما كان عليه حال الأنبياء والمرسلين والصالحين من أتباعهم، من ذلك أن الله تعالى بعد أن تحدث عن أيوب عليه السلام وكشف الضر عنه، وذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وبين أنهم كانوا من الصابرين، واستجاب لذي النون وزكريا عليهما السلام قال واصفاً إياهم:

﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ (الأنبياء ٩٠).

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«خطب أبو بكر رضي الله عنه في الصحابة فقال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وتثنوا عليه بما هو أهل له، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة»[2].

وقال تعالى مذكراً المشركين أن ما اتخذوهم آلهة كعيسى عليه السلام والملائكة كانوا يعبدون الله، يرجون رحمته، ويخافون عذابه ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه ﴾ (الإسراء ٥٧).

---

(١) رياض الصالحين باب الجمع بين الخوف والرجاء.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٠.

«فالعبادة لا تتم إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي. وبالرجاء يكثر من الطاعات»[1].

* * *

٢ ـ المؤمن والخوف:

هناك أمور كثيرة تثير في نفس المؤمن من مشاعر الخوف والرهبة، أذكر منها ما يأتي:

* رهبة الموت وسكراته:

إذا جاء الموت جاءت سكراته المذهلة، وكرباتهُ التي تزيغ الأبصار ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ والجميع يقفون من الموت وسكراته موقفاً واحداً، لا حيلة ولا وسيلة ولا قوة ولا شفاعة، ولا دفع ولا تأجيل، مما يوحي أنه قادم من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً.

والقرآن الكريم يواجه الناس بمشهد الاحتضار، هذا المشهد القاسي:

«كلا إذا بلغت التراقي، وقيل من راق، وظن أنه الفراق، والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذٍ المساق».

إنه مشهد الموت، الموت الذي يفرق بين الأحبة، ويمضي في طريقه لا يتوقف ولا يلتفت، وحين تبلغ الرووح الحلقوم يكون النزع الأخير، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزيع منه الأبصار.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه وهو يقول، سبحان الله إن للموت سكرات وفي الحديث الصحيح الآخر، «اللهم هون عليّ سكرات الموت»، فالمؤمن يخاف من سكرات الموت وكرباته ويسأل الله ـ اقتداء برسول الله ﷺ ـ أن يهونها عليه، وأن يثبته ويتوفاه على شهادة التوحيد الخالصة.

---

(١) المرجع السابق ٢/٣٨٤.
(٢) القيامة ٢٦ ـ ٣٠.

* **الخوف من سوء الخاتمة:**

ومما يثير في نفس المؤمن شعور الخوف والرهبة الخوف من سوء الخاتمة، والأحاديث الواردة في الخوف من سوء العاقبة كثيرة، أذكر منها قوله رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه[1]: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[2].

وسوء الخاتمة له رتبتان:

الرتبة الأولى: أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله، إما الشك وإما الجحود، وهذا يقتضي العقاب الدائم.

والرتبة الثانية: أن يغلب على قلبه حب أمر من أمور الدنيا، وشهوة من شهواتها.

وأما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين[3]:

أحدهما: العقائد المبتدعة مع صلاح الأعمال.

ثانيهما: ضعف الإيمان في الأصل.

أما الختم على حب الدنيا فسببه كثرة المعاصي، ومما يثير الخوف في نفس المؤمن من سوء الخاتمة ما رواه الترمذي والنسائي: «أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يأتي أحدكم عند موته فيقول، مت يهودياً، مت نصرانياً».

روى القرطبي في التذكرة أن عالماً من العلماء في عصره احتضر فقيل

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الخوف.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/١٧٣ ـ ١٧٤ دار المعرفة بيروت.

(٣) المصدر السابق ٤/١٧٥ ـ ١٧٦.

له: قل لا إله إلا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق ذكر له أصحابه ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مت يهودياً، فإنه خير الأديان، والآخر يقول مت نصرانياً فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا، لا، إليَّ تقولان هذا[1].

ومن الخوف من سوء العاقبة أن الإنسان يختم على ما هو عليه من الأعمال إن كانت خيراً فالخاتمة خير، وإن كانت شراً فالخاتمة شر.

روى القرطبي أن رجلاً قيل له وهو يحتضر: قل لا إله إلا الله، فقال اشرب واسقني[2].

وجاء أن أحد السماسرة التجار قيل له عند احتضاره: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف، غلبت عليه السمسرة[3].

ومن هنا نفهم قول السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على طاعتك، فقلت: يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فهل تخشى؟ قال: وما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار، إذا أراد أن يقلب قَلْبَ عبدٍ قَلَبَهُ[4].

وصدق الله إذ يقول: ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ (الأنفال).

* **القبر وعذابه:**

ومما يثير مشاعر الخوف في نفس المؤمن الخوف من القبر وعذابه، إنه

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى ـ القرطبي ص ٥٠ تحقيق د. أحمد السقا ـ المكتبة العلمية.
(٢) التذكرة ص ٥١.
(٣) التذكرة ص ٥٢.
(٤) التذكرة ص ٥٥.

يوم الرقاد الطويل ويبدأ هذا اليوم المفـزع المخيف بملكين يفتنان الميت كمـا جـاء في الحديث الـذي رواه البخاري «إن العبـد إذا وضـع في قبـره وتـولى، وذهب أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فـأقعداه، فيقـولان له: «مـا كنت تقول في هـذا الرجـل محمد ﷺ؟ فيقـول: إنه عبـد الله ورسـولـه، فيقـال: انظر إلى مقعـدك من النـار، أبـدلـك الله بـه مقعـداً في الجنـة، قـال رسول الله ﷺ: فيراهما جميعاً، وأما الكافر أو المنافق فيقـول: لا، كنت أقول ما يقوله الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيحُ صيحـة يسمعها من يليه إلا الثقلين».

ولقـد كان السلف الصـالح يتـذكرون هـذا اليوم الـذي ينزلـون فيـه إلى قبورهم، وما تفعله في أجسادهم وأبدانهم، فهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يصف القبور وفعلهـا في الناس «لقـد أحرقت الأكفـان، ومزقت الأبـدان، ومصت الـدم، وأكلت اللحم، ونزعت الكتفين من الـذارعين، والـذراعين من العضـدين، والعضـدين من الكتفين، والفخـذين من الـركبتين، والـركبتين من الساقين، والساقين من القدمين».

ثم قال رضي الله عنه:

«ألا إن الدنيا بقاءها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقيـر، وشابهـا يهرم، وحيها يموت، فلا يغرنكم إقبـالها مـع معرفتكم بسـرعة إدبـارها، أين سكـانها الذين بنوا مدائنها، وشقوا أنهارها، وغرسوا أشجارها، وأقاموا فيها أياماً يسيرة؟ ماذا صنع التراب بأبدانهم والرمل بأجسادهم، والديدان بعظامهم وأوصالهم؟. كانوا في الدنيا على أسرة ممهدة، وفـرش منضودة بين خـدم يخدمـون، وأهل يكرمون.. فإذا مررت فنادهم إن كنت منادياً، واسأل غنيهم مـا بقي من غناه، واسأل فقيرهم ما بقي من فقره، واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمـون، وعن الأعين التي كـانوا بهـا ينظرون.. عفـرت الـوجـوه، ومحت المحـاسن، وأبانت الأحشاء، ومزقت الأشلاء»[1].

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص ٩٣.

والمؤمن يخاف من عذاب القبر، وعذابه حق، وقد أثبتت السنّة النبوية ذلك، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ مر على قبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله».

وفي صحيح مسلم عن زيد بن ثابت قال: بينما رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا فقال: متى مات هؤلاء؟ فقال: ماتوا في الشرك: فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا ألّا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع».

* **الخوف من أهوال يوم القيامة:**

ومما يحرك في نفس المؤمن مشاعر الرهبة الخوف من أهوال يوم القيامة، وذلك حين يتذكر يوم الحساب وقد عرض الناس على ربهم كما قال تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال، وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً، وعرضوا على ربك صفا، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ (الكهف ٤٧).

والقاعدة في الحساب يوم القيامة قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، قال القرطبي: «نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيهُ التمرة والكسرة.. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أعد الله النار على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يقصده فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر»[١].

ويتذكر المؤمن أنه سيقف بين يدي ربه فيحاسب على المظالم فيسعى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٥١.

جاهداً في حياته ألا يقع في ظلم أحد من الناس كما روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شيء منه فليتحلله من قبل ألا يكون دينار ولا درهم».

ويتذكر قول رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح:

«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيم أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»، إنه يتذكر هذا الحديث فيسعى لأن يفني عمره في طاعة الله، ويبلي جسده في مرضاة الله، ويكسب ماله من الحلال، وينفقهُ في الحلال.

ومن أهوال يوم القيامة دنو الشمس من رؤوس العباد كما في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «تدنىٰ الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومن يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً»[١].

ومن أهوالها التي تثير في النفس مشاعر الخوف والرهبة أن الأرض تشهد على الإنسان يوم القيامة، روى الترمذي وقال حديث حسن صحيح أنه ﷺ قرأ: «يومئذٍ تحدث أخبارها» ثم قال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها»[٢].

* * *

٣ ـ المؤمن والرجاء:

هناك أمور كثيرة تثير في نفس المؤمن مشاعر الرجاء والأمل والثقة في

---

(١) رياض الصالحين.

(٢) رياض الصالحين.

عفو الله ومغفرته ورضوانه، أذكر منها ما يأتي:

* **شهادة التوحيد:**

إن شهادة التوحيد التي يحملها المؤمن هي من أعظم ما يثير في نفسه شعور الرجاء، وهي بمثابة تصريح يمر به على الصراط المستقيم، وبه يدخل الجنة، وبه ينال رضوان الله ومغفرته، وبه يكرمه الله بالنعيم الأبدي الخالد، وإليك هذين الحديثين النبويين، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: من مات لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك به شيئاً دخل النار»[١]. وفي الحديث المتفق عليه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل»[٢]. ولا بد من الإشارة هنا إلى أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن يقول المؤمن كلمة الشهادة بحقها، وحقها ألا يشكر مع الله شيئاً، ومن الشرك أن يعتقد أن أصحاب القبور يضرون وينفعون وإن كانوا أنبياء وأولياء (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله)، ومن الشرك أن يعتقد أن التمائم والرقي والتعاويذ تضر وتنفع، ورسول الله ﷺ يقول فيما رواه الإمام أحمد: «من تعلق تميمة فلا أتم الله، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»، ومن الشرك بالله اتباع السبل الشيطانية الجاهلية لقوله ﷺ: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجد».

الأمر الثاني: أن المسلم صاحب الكبيرة لا يخلد في نار جهنم، فهو إن شاء الله أدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم يدخله الجنة.

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الرجاء.

(٢) المرجع السابق ـ باب الرجاء.

* رحمة الله الواسعة:

ومما يثير في نفس المؤمن الأمل والثقة والرجاء رحمة الله الواسعة، هذه الرحمة التي كتبها الله على نفسه ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض، قل لله كتب على نفسه الرحمة ﴾ «فهو سبحانه المالك لا ينازعه منازع ولكنه فضلاً منه ومنّة كتب على نفسه الرحمة، كتبها بإرادته ومشيئته، هي الرحمة قاعدة قضائه في خلقه، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة»[1].

واقرأ قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب ﴾. «إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت، دعوة العصاة والمسرفين الشاردين، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله، فالله رحيم بعباده.. فمن أراد الأوبة فليؤب، ومن أراد الإنابة فلينب، ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم وليأتِ، فالباب مفتوح لا حاجب دونه ولا حسيب»[2].

وقد صور رسول الله ﷺ رحمة الله في أحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه:

عن عمر بن الخطاب قال: «قدم رسول ا ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبياً في السبى، أخذته فألزقته ببطنها، فأرضعته فقال رسول الله ﷺ، «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[3].

وصدق رسول الله: انظر إلى آثار رحمة الله في نفسك، لولا رحمة الله أتستطيع أن تعيش بلا معدة؟ لولا رحمة الله هل تتصور أن تحيا بلا قلب، لولا رحمة الله أكنت في هذه الصورة السوية المستقيمة؟.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٤٨.

(٢) المرجع السابق جـ ٥/٣٠٥٨.

(٣) رياض الصالحين ـ باب الرجاء.

إننا برحمة الله نأكل، وبرحمة الله نشرب، وبرحمة الله نعمل، وبرحمة الله نتحرك، وبرحمة الله نتنفس.

*** الأعمال الصالحة مكفرة للسيئات:**

ومما يثير شعور الرجاء والأمل في النفس أن الله تعالى جعل أعمالنا الصالحة تكفر سيئاتنا، فهناك من الأعمال الصالحة ما تكفر السيئات اليومية، ومنها ما تكفر السيئات السنوية، ومنها ما تكفر سيئات العمر كلها، فمن النوع الأول الصلاة، فهي تغسل المؤمن من سيئاته يومياً، يقول رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»(١) متفق عليه. ومن الأعمال الصالحة التي تكفر سيئات السنّة كلها الصيام، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(٢).

ومن الأعمال الصالحة التي تكفر سيئات العمر كله الحج، وهذا ما بينهُ رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»(٣).

* * *

٤ ـ صور من حياة رسول الله وأصحابه في الخوف والرجاء:

لقد كان رسول الله ﷺ القدوة العملية في الجمع بين الخوف والرجاء، من ذلك ما رواه أبو داود والترمذي في الحديث الصحيح عن عبد الله بن الشخير قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(٤).

---

(١) رياض الصالحين ـ باب فضل الصلوات.

(٢) المصدر السابق ـ باب وجوب صوم رمضان وفضله.

(٣) المصدر السابق ـ كتاب الحج.

(٤) رياض الصالحين ـ باب فضل البكاء من خشية الله تعالى.

وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته وإنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك؟ فقال: يا عائشة: «ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[1].

واقتدى الصحابة برسولهم صلوات الله وسلامه عليه في التخلق بهذا الخلق، وإليك صوراً من حياتهم:

أخرج الترمذي وحسنه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبل لحيته، فقي له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتذكر القبر فتبكي؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد»[2].

ومرض عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فجاءه عثمان بن عفان رضي الله عنه يعوده فقال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي، قال: رحمة ربي[3].

وهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه جاءه بعض الصحابة حين ثقل عليه مرض الموت فقال: أي ساعة هذه؟ فقالوا: نحن قريب من الصبح، فقال: أعوذ بالله من صباح يفضي بي إلى النار[4].

ويصف علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه الصحابة فيقول:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ـ المقدس ص ٣١٣ ـ علق عليه: شعيب الأرناؤوطي ـ دار البيان ـ دمشق ١٣٩٨ هـ.

(٢) حياة الصحابة ـ الكاندهلوي ٢/٦١٥.

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٣١٤.

(٤) صور من حياة الصحابة ٤/١٣٧ ـ ١٣٨.

«والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عزّ وجلّ مادواكما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين»[1]. وكذلك كان حال التابعين، فهذا الأحنف بن قيس رضي الله عنه كان إذا جن الليل عليه أسرج مصباحه، ووضعه قريباً منه، ووقف في محرابه يصلي، وهو يتململ تململ السقيم، ويبكي بكاء الثاكل، إشفاقاً من عذاب الله، وخشية من غضبه، وكان كلما استشعر ذنباً من ذنوبه أو لاح له عيبٌ من عيوبه قرب أصبعهُ من المصباح وقال حِسَّ يا أحنف، ما حملك على أن فعلت كذا وكذا؟ ويحك يا أحنف إذا كنت لا تطيق لهب المصباح ولا تصبر على حره، فكيف تطيق غداً لهب جهنم، وتصبر على أذاه، اللهم إن تغفر لي فأنت أهل لذاك، وإن تعذبني فأنا أهل لذلك[2].

هكذا كان رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان يجمعون بين الخوف والرجاء، يخافون من عذاب الله ويرجون رحمته، ويدعونه رغباً ورهباً، وخوفاً وطمعاً، تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فما أجدر المؤمن أن يقتدي برسول الله وأصحابه في التخلق بهذا الخلق العظيم، خلق الخوف والرجاء.

* * *

---

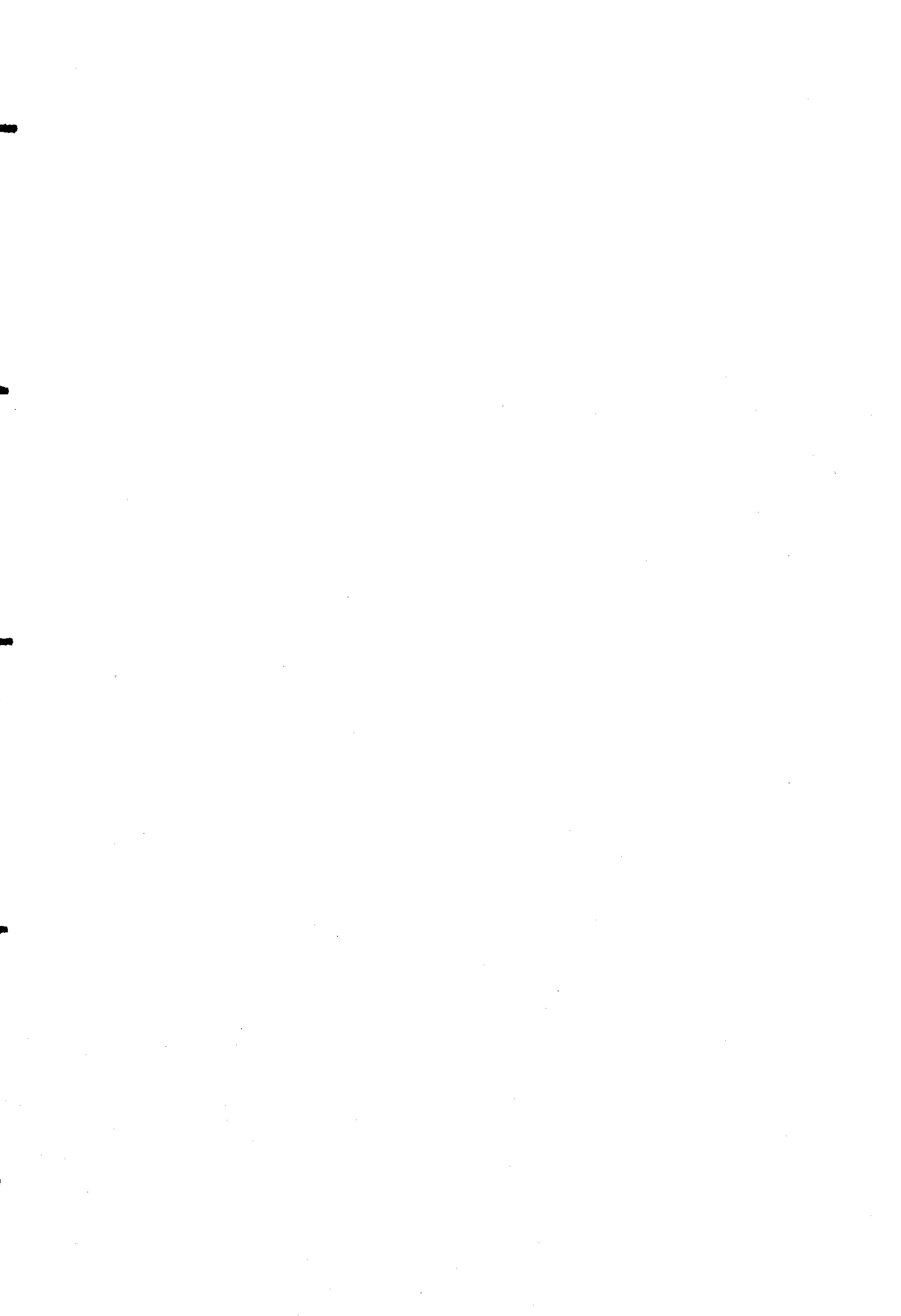
(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٣١٤.

(٢) صور من حياة التابعين ـ د. عبد الرحمن الباشا ٦/ ص ٩٥ ـ ٩٦.

المبحـــث الخــامس

الإيمان والجهاد

- الجهاد ثمرة من ثمرات الإيمان.
- مشروعية الجهاد في الإسلام.
- المعرضون عن الجهاد.
- صور من جهاد الصحابة والتابعين.
- أخلاقنا الجهادية الحضارية.



المبحـــث الخـامس
الإيمان والجهاد

١ ـ الجهاد ثمرة من ثمرات الإيمان:

إن من سنّة الله في هذه الحياة دخول الحق والباطل في صراع دائم مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فدعاة الحق لن يرتاح بالهم، ولن ينعموا بالسعادة والطمأنينة ما دامت راية الباطل قائمة، ودعاة الباطل من جانبهم لن يخلدوا إلى ملذات الدنيا وشهواتها ويغضوا الطرف عن الحق وأصحابه، بل سيسعون إلى الكيد بهم، وبذل كل ما يستطيعون في سبيل أن تكون لهم السيادة في الأرض.

ومن ظن أنه من الممكن توقيع هدنة ولو مؤقتة بين الحق والباطل، والإسلام والكفر كان واهماً في ظنه، فتاريخ الصراع بين الإسلام والكفر يعود إلى لدن آدم عليه السلام وهو في الجنة قريب من جوار ربه.

ولهذا فقد شرع الله تعالى للأمة الإسلامية الجهاد، وقرن بين الإيمان والجهاد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأمو'لهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴾ (الحجرات).

«فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان، واطمأن إليه وثبت عليه لا

---

(١) الآية ١٥.

بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة، في دنيا الناس، ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه، والصورة الواقعة من حوله، لأن هذه المفارقة تؤذيه، ومن هنا كان هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن، يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس»[1].

ومن هذه الآيات التي جعل الله تعالى فيها الجهاد أثراً من آثار الإيمان وثمرة من ثمراته قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (الصف ١٠ ـ ١١).

وإنها لتجارة رابحة، بل أربح تجارة في الدنيا والآخرة، تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله.

* * *

٢ ـ مشروعية الجهاد في الإسلام:

لكن لماذا شرع الله الجهاد؟.

ويمكن القول بأن هناك أربع حالات تقتضي من المسلمين أن يعلنوا الجهاد وهذه الحالات هي:

أ ـ من أجل أن يكون الدين لله:

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله ﴾ (الأنفال ٣٩)، قال عروة بن الزبير: (حتى لا تكون فتنة) حتى لا يفتن المسلم عن دينه، (ويكون الدين لله) قال الحسن وقتادة: أن يقال لا إله إلا الله، وأن يكون التوحيد خالصاً لله فليس فيه شرك،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٤٩.

ويخلع ما دونه من الأنداد[1]، وقال صاحب الظلال رحمه الله:

«لقد جاء الإسلام ليكون إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية لهواه، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين. والذي يعنيه هذا النص «ويكون الدين لله»، هو إزالة الحواجز المادية المتمثلة في سلطان الطّواغيت، وفي الأوضاع القاهرة للأفراد، فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس يختارون عقيدتهم أحراراً من كل ضغط»[2].

ومن خلال فهم صحابة رسول الله ﷺ لهذه الآية الكريمة انطلقت الجيوش الإسلامية شرقاً وغرباً تقطع الفيافي والقفار، وتجتاز في طريقها المحيطات والبحار، وتسير بركبانها وقوافلها الجهادية في الليل والنهار، في سبيل رفع كلمة الإسلام في كل بقعة من بقاع هذه المعمورة.

فمن أجل أن يكون الدين كله لله كانت معركة القادسية، ومن أجل أن يكون الدين لله كانت معركة اليرموك، ومن أجل أن يكون الدين لله كانت معركة بلاط الشهداء، ومن أجل أن يكون الدين لله كانت معارك فتح القسطنطينية.

فهذه هي الغاية الأولى من الجهاد في سبيل الله أن تزال من الأرض كل القوى المادية التي تحول بين الناس وبين هذا الدين ليكون الدين كله لله.

ب ـ من أجل دفع الظلم عن المسلمين:

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾[3].

نزلت هذه الآية الكريمة في رسول الله وأصحابه حين أخرجوا من مكة،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١٠٥.

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٥٠٩.

(٣) الحج ٣٩.

وهي أول آية نزلت في الجهاد، قال ابن عباس[1]: «لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون فأنزل الله تعالى: ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا.. ﴾.

وبين الله تعالى في موضع آخر في القرآن الكريم هذه الحالة في مشروعية الجهاد ﴿ ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ (النساء ٧٥).

«كيف تقعدون عن القتال في سبيل الله، واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟ هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة لأنهم يعانون الفتنة في دينهم، والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض.. ومشهد المرأة الكسيرة، والولد الضعيف مشهد مؤثر مثير، لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا... إنه مشهد معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد وهو وحده يكفي، لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات»[2].

فحيثما وجد شيوخ ونساء وولدان مسلمون يعانون الإيذاء في دينهم وعقيدتهم وفي أنفسهم، وأموالهم أذن للمسلمين أن يعلنوا الجهاد لاستنقاذهم، وحفظهم من الفتنة ليعيشوا في أمان وسلام، آمنين على دينهم، آمنين على أعراضهم، آمنين على دمائهم.

جـ ـ من أجل رد الاعتداء عن المسلمين:

وتتمثل هذه الحالة في تعرض المسلمين للإيذاء في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم أو في دينهم، فحينئذٍ يجب على المسلمين إعلان الجهاد

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٥٤٦ ـ ٥٤٧.

(٢) في ظلال القرآن ٢/٧٠٨.

لحمايتهم من الاعتداء والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودينهم[1]، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾.

د ـ من أجل المحافظة على الديار الإسلامية:

وشرع الله تعالى الجهاد إذا غزيت أرض إسلامية فوقعت مستعمرة في يد الأعداء فحينئذٍ يصبح الجهاد فرض عين على الأمة الإسلامية، وذلك لإعادة تلك الدار المغتصبة إلى حظيرة الإسلام، ورفع الظلم عنها وعن أهلها.

* * *

٣ ـ المعرضون عن الجهاد:

قد يقول بعض ضعاف الإيمان إن الجهاد قد انتهى زمانه، وإن في مواجهة الأعداء في هذا العصر تهلكه لنا وللأمة، وللإجابة على هذه الفرية الباطلة أنقل ما رواه الترمذي والنسائي وأبو داود أن رجلاً من المهاجرين بالقسطنطينية حمل على صف العدو حتى فرقهم، ومضى أبو أيوب الأنصاري، فقال ناسٌ: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا نحن الأنصار، فقلنا: لقد أكرمنا الله بصحبة نبيه ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فلنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم، فنزل فينا:

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾.

فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد[2].

---

(١) الفتاوى الكبرى ٤/٦٠٧.

(٢) الإسلام بين العلماء والحكام ص ٦٧.

«وروى سلمة بن نفيل فقال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال رجل يا رسول الله أزال الناس الخيل، ووضعوا السلاح وقالوا: لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ وقال: «كذبوا الآن جاء القتال، ولا تزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويرفع الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم فيهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، الخيل معقودة في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[1].

فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ومن عطله فهو كذاب يفتري على الله وعلى رسول الله ﷺ. والمعرضون عن الجهاد على أصناف، منهم:

ـ المتثاقلون:

هناك صنف من الناس إذا دعي إلى الجهاد اثاقل إلى الحياة الدنيا وآثرها على هذه الفريضة العظيمة، فمنهم من يؤثر شهوة النساء، ومنهم من يؤثر شهوة المال، و منهم من يؤثر شهوة الأولاد.. ومنهم من يؤثر الحياة الدنيا، ولذاتها الفانية، ونزواتها الهابطة السافلة.. يؤثر كل ذلك على الحياة الأبدية الخالدة التي أعدها الله لجنده المجاهدين.

وإلى هؤلاء أشار القرآن الكريم: ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفرو في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾[2].

ـ المعوقون:

المعوقون وما أدراك من هم المعوقون؟ إنهم الذين رضعوا ألبان الجبن منذ نعومة أظفارهم، وغذوا بالخور والضعف طوال فترات حياتهم، وفطموا على النفاق والخداع فلا تكاد ترى صدقاً في أقوالهم، وجرأة في قلوبهم، وتفانيا في الجهاد في سبيل عقيدتهم وقد قال الله عنهم:

﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلموا إلينا ولا يأتون

---

(١) جامع الأصول ٣/ ١٨٥ ـ ١٨٦.
(٢) التوبة ٣٨.

البأس إلا قليلاً أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك، تدُور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا، فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ (الأحزاب ١٩).

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في المنافقين حين قالوا للمسلمين: «ما محمد عن أصحابه إلا أكلة رأس، وهو هالك ومن معه»(١).

وهؤلاء المعوقون أشحة على المسلمين المجاهدين، أشحة عليهم بالنفقة في سبيل الله، أشحة عليهم بالقتال معهم، أشحة عليهم بالوقوف إلى جانبهم في ساعات العسرة.

وإذا أردت أن تعرف أوصاف هؤلاء فاقرأ الآية السابقة بتدبر ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ إنه وصف بديع لهؤلاء المعوقين الجبناء الذين من شدة خوفهم من العدو ينظرون يميناً وشمالاً، تدور أعينهم لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة»(٢).

فكيف بمن كانت هذه صفاته أن يبذل دَمَهُ في سبيل الله؟ فكيف من كانت هذه أماراته وعلاماته أن يبذل روحه في سبيل الله؟.

ـ المرتابون:

ومن المعرضين عن الجهاد صنف ثالث وهؤلاء هم المرتابون الذين ارتابت قلوبهم، فلا يثقون بأنفسهم، ولا يثقون بغيرهم، لا يثقون بأنفسهم لأنها تربت على الخنوع والخضوع والتثاقل والتكاسل، ولم تسق بينابيع القرآن الصافية، فكان أن ترسبت فيها الرواسب الجاهلية من الخوف من مقابلة الأعداء، وعدم الثقة بنصر الله، ومن حساب للموت ألف حساب، ومن خشية

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٤/ ص ١٥٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/١٥٣.

لمفارقة الأهل والزوجة والأولاد. ولا يثقون بغيرهم من المسلمين المخلصين لأنهم لم يعيشوا في وسطهم، ولم يتربوا التربية التي تربها هؤلاء، تربية تستمد القوة والعون والنصر من الله.

وإلى هؤلاء أشار القرآن الكريم: ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وقيل اقعدوا مع القاعدين، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم، يبغونكم الفتنة، وفيكم سماعون لهم، والله عليم بالظالمين ﴾[1].

ـ المتخلفون:

قال تعالى واصفاً هذا الصنف من المعرضين عن الجهاد ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾.

وهذه الآيات الكريمة نزلت في حق المتخلفين من المنافقين ممن تخلفوا عن رسول الله ﷺ يوم تبوك[2].

والصفة الأولى من صفات هؤلاء المتخلفين كونهم يفرحون بتخلفهم عن ركب الجهاد والمجاهدين، وقعودهم خلاف المسلمين الباذلين لأرواحهم ودمائهم في سبيل الله، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾، وأما الصفة الثانية فتتمثل في قوله تعالى: ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾، فقلوبهم تكره الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وأية انتكاسة للإنسان أن يكون كارهاً للجهاد في سبيل الإسلام ودعوته؟ وأي ارتكاس للإنسان أن يكون كارهاً

---

(١) التوبة ٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٧٦.

للجهاد لتكون كلمة الله هي العليا؟.

والصفة الثالثة أنهم يوجدون المبررات والمعاذير لكي يوهموا الناس أنهم ما بخلوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله إلا لوجود أسباب منعتهم من ذلك، ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً ﴾.

* * *

٤ ـ صور من جهاد الصحابة والتابعين:

وإليك صوراً من حياة الصحابة رضوان الله عليهم:

* في معركة اليمامة دارت بين الصحابة والمرتدين حرب ضروس، لم تعرف حروب المسلمين لها نظيراً من قبل، وأبدى الصحابة من خوارق البطولات ما لو جمع لكان ملحمة من روائع الملاحم، فهذا ثابت بن قيس حامل لواء الأنصار يتحنط ويتكفن ويحفر لنفسه حفرة في الأرض فينزل فيها إلى نصف ساقيه، ويبقى ثابتاً في موقفه، يجاهد عن راية قومه حتى سقط شهيداً، وهذا زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ينادي في المسلمين: «أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً. . أيها الناس، والله لا أتكلم بعد هذه الكلمة أبداً حتى يهزم مسيلمة أو ألقى الله، ثم كر على القوم فما زال يقاتل حتى قتل. وهذا سالم مولى أبي حذيفة يحمل راية المهاجرين فيخشى عليه قومه أن يضعف أو يتزعزع فقالوا له: «إنا لنخشى أن نؤتى من قبلك، فقال: «إن أتيتم من قبلي فبئس حامل القرآن أكون، ثم كر على أعداء الله كرة باسلة حتى أصيب. وهذا البراء بن مالك يقول لأصحابه حين دخل مسيلمة الكذاب مع قومه حديقة الموت: يا قوم ضَعُوني على ترس، وارفعوا الترس على الرماح، ثم اقذفوني إلى الحديقة قريباً من بابها، فإما أن أستشهد، وإما أن أفتح لكم الباب، فألقاه أصحابه بين الآلاف المؤلفة من جند مسيلمة، فنزل عليهم نزول الصاعقة، وما زال يجالدهم، ويعمل في رقابهم بالسيف حتى قتل جمعاً منهم وفتح الباب، وبه بضع وثمانون

جراحة من بين رمية بسهم أو ضربة بسيف[1].

* وفي غزوة مؤتة وبعد أن استشهد زيد بن حارثة رضي الله عنه حمل الراية جعفر ابن أبي طالب، فجاءه الشيطان ومناه الحياة الدنيا، وكره له الموت، فقال جعفر: «الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنيني الدنيا، ولم يتردد لحظة بل اقتحم عن فرس له شقراء وهو يقول:

يا حبّذا الجنة واقترابها طيبة وباردٌ شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إن لاقيتها ضرابها

ثم انقض على الروم يقتل فيهم يميناً وشمالاً، ولكن ما لبثت سيوفهم أن قطعت يمينه، فأخذ اللواء بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه، فضربوه بسيوفهم، حتى قطعوه نصفين وأقبل عليه المسلمون فوجدوا فيما بقي من بدنه تسعين ضربه بين طعنة برمح وضربة بسيف[2].

وعلى أرض مؤتة يستلم اللواء عبد الله بن رواحة فيتقدم وهو يخاطب نفسه:

يا نفس إلا تقبلي تموتي هذا حياض الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلي فعلهما هديت

وإن تأخرت فقد شقيت

يريد زيداً وجعفراً رضي الله عنهما، ثم قال: إلى أي شيء تتوقين؟ إلى غلماني فهم أحرار، وإلى صحن حائط فهو لله ورسوله، ثم أخذ اللواء واستقبل فقاتل برهة ثم عاد، وأخذ يؤنب نفسه على تردده كل التأنيب، يلوم نفسه على لحظة صغيرة ترددها فعاد يقول:

---

(١) انظر صور من حياة الصحابة ـ د. رأفت الباشا ١/٧٧ ـ ٨٠.

(٢) شهداء الإسلام في عهد النبوة. د. علي النشار ص ٨٦ ط بيروت ١٩٧٩ م.

يا نفس مالك تكرهين الجنة أقسم بالله لتنزلنه
طَائِعةً أو لتكرهنه فطالما كنت مطمئنة
هل أنت إلا نطفة في شنة قد أجلب الناس وشدوا الرنة

فلما نزل للقتال طعن فاستقبل الدم بيده فدلك به وجهه ثم صرع بين الصفين[1].

وفي اليرموك وقف عكرمة بن أبي جهل يقول: قاتلت رسول الله ﷺ في كل مَوطِنٍ، وأفر منكم اليوم، ثم نادى: من يبايعني على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا أمام فسطاط خالد، وكان عكرمة يواجه الأسنة والرماح حتى جرحت صدره ووجهه فقيل له: اتقِ الله وارفق بنفسك، فقال: كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فأبذلها لها، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله، لا والله أبداً.

وتصافحت السيوف، وسقط عكرمة رضي الله عنه شهيداً[2].

هذا غيض من فيض، فماذا عن جهاد التابعين؟.

هذا صلاح الدين رضي الله عنه كان المثل الأعلى للحاكم المسلم، والصورة الكاملة للمجاهد في سبيل الله، وكان المحرر الأعظم لبلاد الشام وفلسطين من الصليبية الأولى بعدما استعمروها نحواً من مئة سنة، سقطت على أقدامه الدول، ووقف على اعتابه الملوك، ودانت لهم الرقاب، فمات ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهماً، وديناراً ذهبياً واحداً[3].

رُويَ له حديثٌ مسلسل بالتبسم فطلب منه أن يبتسم، فغضب لذلك

(١) المرجع السابق.
(٢) شهداء الإسلام ص ١٧١.
(٣) رجال من التاريخ ـ علي الطنطاوي ص ١٥٢.

وقال: إني لأستحي من الله أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون من الفزع[1].

وهذا الظاهر بيبرس يقود معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ ويدحر فيها المغول، ويحمي البلاد الإسلامية من سفك الدماء، وعندما اقترب المغول من دمشق تخوف بعض السلاطين من عاقبة مقاومة المغول، ونادى بعضهم بالاستسلام لهولاكو وجيشه، عندئذٍ ثار بيبرس، ولَطَمَ ذلك السلطان على وجهه قائلاً: أنتم سبب هلاك المسلمين[2]، وكان رحمه الله قد استقدم المجانيق من دمشق إلى صفد، ولما عجزت الجمال عن حملها حملها الأجناد والقادة على الرقاب، وأخذ السلطان بيبرس يعَمل بنفسه في جر الأخشاب مع البقر، وربما تعب الناس واستراحوا، أما هو فكان لا يسأم من الجر ولا يتوقف[3].

وهذا محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية الذي بشره رسول الله ﷺ بقوله: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[4].

كان رضي الله عنه يأمر في أيام الفتح جنوده بالصيام تطهيراً للنفوس، وتقوية لعزائمهم وإرادتهم، ويأمرهم بالإكثار من الصلاة وذكر الله والدعاء، وحينما فتحت القسطنطينية وقف محمد الفاتح يهنأ جنوده بالنصر وأوصاهم بالثبات وعدم الغرور، والرأفة بسكان المدينة، ونهاهم عن القتل والسلب، وتوجه إلى كنيسة سانت صوفيا، وترجل أمام الباب وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً له»[5].

---

(١) صلاح الدين الأيوبي - الندوى ص ٣٣ دار القلم.
(٢) وذكرهم بأيام الله - أنور الجندي ص ١٦٦.
(٣) المرجع السابق ص ١٦٩.
(٤) رواه الإمام أحمد والحاكم.
(٥) السلطان محمد الفاتح - ص ١١٨.

فما أحوجنا نحن الخلف أن نستلهم من حياة السلف الصالح العبرة للسير في طريق الجهاد، لأنه طريق العزة والكرامة والسيادة.

* * *

٥ ـ أخلاقنا الجهادية الحضارية:

وماذا عن أخلاقنا الجهادية الإسلامية الحضارية؟ وهل صحيح ما يدعيه المستشرقون وأتباعهم في داخل بعض المجتمعات الإسلامية أن جهاد الصحابة والتابعين من بعدهم جهاد لا يعرف إلا سفك الدماء وإزهاق الأرواح، وإثارة الرعب والخوف في قلوب الناس؟.

وحتى يتضح كذب ادعاءات هؤلاء، ويقف المسلم بعزة واستعلاء يفتخر بالانتساب إلى هؤلاء المجاهدين، ويعتز بالانتماء إلى تاريخهم، أثبت هنا صوراً من أخلاقهم الجهادية الإسلامية الحضارية.

دخل وفد من أهل سمرقند إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكون إليه أن القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي قد دخل بلادهم من غير إنذار، فكتب الخليفة إلى واليه على مدينة سمرقند يقول فيه: «أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فأجلس إلى أهل سمرقند قاضياً ينظر في شكواهم، فإن قضى لهم فمر جيش المسلمين بأن يغادروا مدينتهم». فرفعت القضية إلى قاضي القضاة جميح بن حاضر فنظر في شكواهم، واستمع إلى شهادة طائفة من جند المسلمين وقادتهم، فاستبان له أن المسلمين قد دخلوا بلادهم بغير إنذار، وقضى لهم، وعند ذلك أمر الوالي جند المسلمين بأن يخلوا لهم ديارهم، وأن يعودوا إلى معسكراتهم، وأن يحاربوهم مرة أخرى، فإما أن يدخلوا بلادهم صلحاً، وإما أن يظفروا بها حرباً، وإما ألا يكتب لهم الفتح.

فلما سمع وجوه القوم من أهل سمرقند حكم قاضي القضاة قالوا لبعضهم: «ويحكم لقد خالطتم هؤلاء القوم، وأقمتم معهم، ورأيتم من

سيرتهم وعدلهم وصدقهم ما رأيتم، فاستبقوهم عندكم»[1].

أفليس من حقنا نحن المسلمين أن نعتز بإسلامنا الذي صنع هؤلاء العظماء من الرجال؟ خليفة يأمر بتشكيل محكمة إسلامية لينظر في دخول جيش إسلامي أرضاً لعدو من أعدائه؟ وقاضٍ من قضاة المسلمين يأمر الجيش الإسلامي بالخروج من سمرقند لأن القائد المسلم لم ينذر أهلها؟ أي عدل هذا؟ أي قضاء هذا؟ أية خلافة هذه؟.

وعندما فتح صلاح الدين بيت المقدس ظافراً منتصراً لم يسفك دماً، ولم تنهب جيوشهُ بيتاً، بل أمن الجميع على أموالهم وأمتعتهم، ونادى مناديه من مطلع الشمس حتى غروبها: هل من فقير فنأويهُ، أو عاجز عن دفع الفدية فنعطيه، وخرج الكهنة ومعهم ذخائرهم الذهبية ولم يتعرض لهم أحد بأذى بل قدمت لهم الدواب ليركبوها[2].

هذا مع العلم أن الصليبيين ذبحوا في يوم واحد في الحرب الصليبية الأولى سبعين ألف مسلم ذبح النعاج[3]، وأحدثوا مجزرة عظيمة حتى يقال: إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر بن الخطاب كانت غارقة في الدماء إلى الركب[4].

والشواهد كثيرة، والمجال ليس مجال حصر، وإنما يكتفى بذكر نماذج من أخلاقنا الجهادية الحضارية، وهذا ما شهد به أعداء الإسلام أنفسهم، يقول: (أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام):

لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في (فحل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب المسلمين يقولون:

---

(١) صور من حياة الصحابة ـ د. الباشا جـ ١/ ص.
(٢) وذكرهم بأيام الله، أنور الجندي، دار الاعتصام ص ١١٠ ـ ١١.
(٣) معالم الحضارة في الإسلام، د. عبد الله علوان، دار السلام، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٤) صلاح الدين الأيوبي، الندوى، ص ٩.

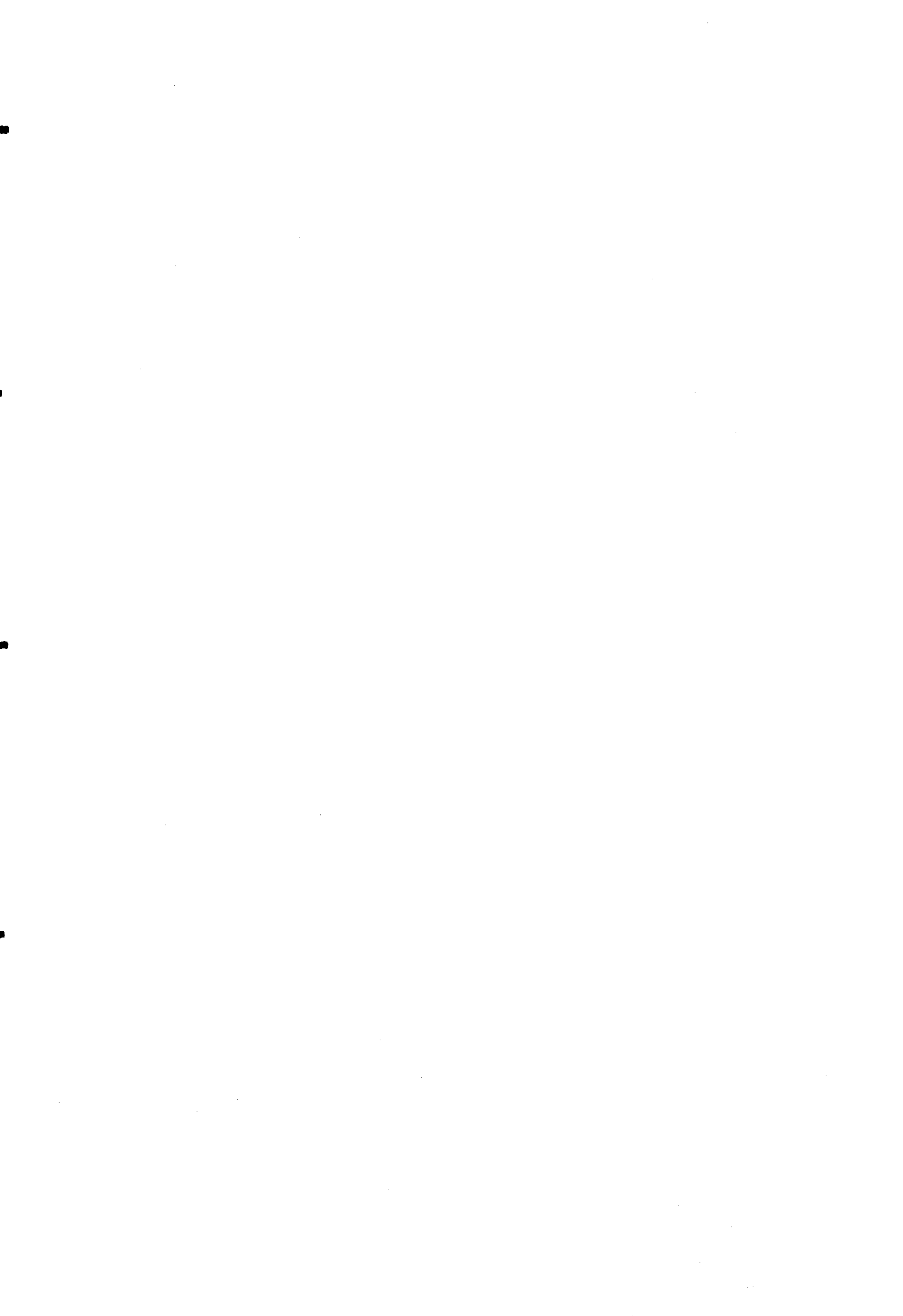
يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كان الروم على ديننا، أنتم أوفى بنا، وأراف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا»[1].

فهل وعى الحاقدون من المستشرقين والموتورون من أتباعهم هذه الحقيقة؟ وعلموا أن أخلاقنا الجهادية الحضارية أخلاقٌ لم يعرف تاريخ الفتوحات البشرية مثيلاً لها؟

* * *

---

(١) معالم الحضارة في الإسلام، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.



الفصل الثاني
ثمرات الإيمان الاجتماعية

وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول : الإيمان والأمن.
المبحث الثاني : الإيمان والوقاية من الفاحشة.
المبحث الثالث : الإيمان والوقاية من الخمور والمخدرات.
المبحث الرابع : الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر



المبحـــث الأول
الإيمـــان والأمـــن

١ ـ الأمن ثمرة من ثمرات الإيمان:

من ثمرات الإيمان العظيمة فى حياة المؤمن والمجتمعات الإيمانية ثمرة الأمن، الأمن على العقيــدة، الأمن على النفس، الأمن على الـمــال، الأمن على العرض، الأمن على العقل، وقـد قرن القـرآن الكريم بين الإيمـان وبين هـذه الصور من الأمن، من ذلـك أن الله تعـالى نهى المؤمن عن سفـك دمـاء الناس بغير حق، وقرر فى محكم كتابه أن الدمـاء مصـونـة، ومن اعتدى على هذه الدماء فقد كتب عليه القصاص، قـال تعالى: ﴿ يـا أيها الـذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾[١].

وجعــل من صفــات المؤمن الـمفـلح حفــظه لـفــرجــه ﴿ قــد أفلح المؤمنـون. . . والذين هم لفـروجهم حـافـظون ﴾ وفى هـذا بـلاغ للمؤمن أن الناس آمنون على أعراضهم فلا يعتدي عليها أحد، ومن صفات المؤمن كذلك أنه لا يأكل المال الحرام، انطلاقـاً من هذا المبـدأ القرآني: ﴿ يـا أيها الـذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ (النساء ٢٩).

وهـدد رسـول الله ﷺ المؤمن بـأن الإيمـان ينتفي عنــه إذا اعتـدى على أعراض الناس بالزنى، أو اعتدى على أموال النـاس بالسـرقة، أو اعتـدى على عقله بتعاطي المسكرات والمخدرات، فقال ﷺ في الحديث المتفق عليه:

---

(١) البقرة ١٧٨.

«لا يـزني الزاني حين يـزني وهو مؤمن، ولا يسـرق السارق حين يسـرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[1].

* * *

٢ ـ صور الأمن ومظاهره:

وللأمن صور متعددة، ومظاهر مختلفة يمكننا أن نجملها فيما يلي:

أ ـ الأمن على الدين والعقيدة:

من القواعد العظيمة والمبادىء السامية التي جاء بها رسول الله ﷺ قاعدة رفع الإكراه عن الإنسان في اختيار عقيدته، ومبـدأ رفع القهـر عنه في ممـارسة شعيرة معينة من الشعائر التعبدية، وهما مستمدان من قـوله تعـالى: ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (البقرة ٢٥٦).

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية الكريمـة في رجل من الأنصـار من بني سـالم بن عوف يقـال له الحصيني، كـان له ابنـان نصرانيـان، وكان هـو رجلا مسلماً فقال للرسول ﷺ ألا أستكرههما، فإنهما قد أبيـا إلا النصرانيـة، فأنـزل الله فيه ذلك[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء إلى أن هذه الآيـة محمولـة على أهل الكتـاب ومن دخل في دينهم إذا بـذلوا الجـزيـة»[3]. فـالكتابي من اليهـود والنصارى في داخـل الـدولـة الإسـلاميـة آمن على دينـه وعقيدته وممارسة شعائره التعبدية شرط أن يكون خارج جزيرة العرب، لأنه إذا كـان في داخل الجـزيرة فـإما إسـلام وإما خـروج عنها، وذلـك استجابـة لأمر رسـول الله ﷺ: «لا يتـرك بجـزيـرة العـرب دينـان»[4]، وقـد أجلى عمـر بن

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/٢٤٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٣٢.

(٣) المرجع السابق ١/٢٣٢.

(٤) نيل الأوطار ٨/٧٣.

الخطاب نصارى نجران، وكان مما قاله ليعلى بن أمية حين أرسله إليهم:

«إيتهم، ولا تفتنهم عن دينهم، ثم أَجْلِ من أقام منهم على دينه، وأقرر المسلم، ثم خيرهم البلدان، وأعلمهم بأنا نجليهم بأمر الله سبحانه ورسوله ﷺ ألا يترك بجزيرة العرب دينان، فليخرج من أقام على دينه منهم، ثم نعطيه، أرضاً كأرضهم إقراراً بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم فيما أمره الله من ذلك[1].

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم آمنون على دينهم وعقيدتهم وممارسة شعائرهم التعبدية، «فالإسلام لم يشأ أن تكون وسيلته إلى حمل الناس على اعتناقه هي القهر والإكراه، في أية صورة من الصور حتى القهر العقلي عن طريق المعجزة لم يكن وسيلة من وسائل الإسلام كما كان في الديانات قبله، من نحو الآيات التسع لموسى عليه السلام، والكلام في المهد وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه السلام، لقد شاء الإسلام أن يخاطب القوىٰ المدركة في الإنسان، ويعتمد عليها في الاقتناع بالشريعة والعقيدة، وذلك جرياً على نظرته الكلية في احترام هذا الإنسان وتكريمه، وتبعاً لهذه الفكرة لم يشأ أن يجعل القهر المادي وسيلة للإقناع، أو لحمل الناس على اعتناقه بالإكراه، ولم يضق ذرعاً باختلاف الناس في المنهج والعقيدة، بل اعتبر هذا ضرورة من ضرورات الفطرة، وغرضاً من أغراض الإرادة العليا في الحياة والناس ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، لذلك خلقهم ﴾ (هود ١١٨)، ولكي يطامن من رغبة رسول الله ﷺ في حمل الناس على دينه، ويهدىء من حماسة المسلمين في تحقيق هذه الغاية يقرر القرآن الكريم أن إرادة الله لم تحتم أن يكون الناس جميعاً من المؤمنين ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (يونس

---

(١) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ـ د. عبد العزيز الشيشاني ص ٣٩٦.

٩٩)، فليست غاية المسلمين أن يكرهوا أحداً على اتباع الإسلام، إنما كل غايتهم أن تترك لهم حرية الدعوة، وأن تترك للناس حرية الاعتقاد»[١].

والتاريخ الإسلامي يشهد بملء الاعتزاز والافتخار بهذا الأمن الذي نعم به أهل الكتاب على دينهم وعقيدتهم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب هذا العهد لأهل القدس وجاء فيه:

«هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم... لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم»[٢].

ومما يؤكد حرية أهل الكتاب الدينية أن السلطان سليم العثماني رأى أن البلغار والأرمن من أهل الكتاب قد كثروا في مملكته كثرة مزعجة، وأقضوا مضاجع الدولة الإسلامية بفتنهم ومؤامراتهم، فقرر أن يجبرهم على الإسلام أو يخرجهم من مملكته، فعارضهُ شيخ الإسلام: (زَنْبيلي علي أفندي) معارضة شديدة، وقال للسلطان بلهجة قوية: «ليس لك على اليهود والنصارى إلا الجزية، وليس لك أن تجليهم عن أوطانهم، فرجع السلطان عن عزمه امتثالاً لإرادة الشرع»[٣].

وقد شهد علماء أهل الكتاب بهذه الحرية الدينية التي نعم بها اليهود والنصارى في داخل المجتمعات الإسلامية، يقول (عيشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): «إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وقد حرم قتل الرهبان على الخصوص لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن

(١) نحو مجتمع إسلامي ـ سيد قطب ص ١٠٣ ـ ١٠٤ دار الشروق ط ٤/١٤٠٠ هـ.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ٤/١٥٨ وما بعدها.

(٣) حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية ـ عبد الله علوان ص ٤٩ ـ ٥٠ دار السلام ط ١/١٤٠٠ هـ.

الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس»[1].

وجاء في كتاب (الدعوة إلى الإسلام) لأرنولد:

«لقد جعل الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم لنصارى الشام بمنحهم الحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية، وقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد في مقابل الإذعان ودفع الجزية.. ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين كما يرى بعض الباحثين لوناً من ألوان العقاب لاقتناعهم عن قبول الإسلام، إنما كان مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيف المسلمين[2].

ويشهد البطريرك (عيشو يايه) بسماحة الإسلام فيقول:

«إن المسلمين الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون، إنهم ليسوا أعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا»[3].

*** ضوابط الحرية الدينية لأهل الذمة:**

وهذه الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لأهل الذمة ليست حرية مطلقة وإنما لها ضوابط وقيود ومنها:

١ ـ لا يجوز لليهود والنصارى في داخل المجتمعات الإسلامية إظهار شعائرهم لمخالفة ذلك للمظهر الإسلامي العام، أما إقامة الشعائر داخل أماكن العبادة التي خصصوها لذلك فجائز، ويشمل هذا الحكم الأمصار والقرى[4]. أما فيما يتعلق بأماكن العبادة فقد أجمع الفقهاء على وجوب

---

(١) روح الدين الإسلامي ـ عبد الفتاح طبارة ص ٣٩٦.

(٢) نحو مجتمع إسلامي ـ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) معالم الحضارة في الإسلام ص ١٥٧.

(٤) هذا على رأي علماء الحنابلة انظر كشاف القناع على متن الاقناع ـ البهوتي ١/ ٧٢١.

منعهم من إحداث أماكن للعبادة خاصة بهم في جزيرة العرب، ولا يجوز كذلك الإبقاء على مالهم من دور عبادة فيها[1]، أما فيما يتعلق بإنشائها في غير جزيرة العرب فقد ذهب بعض الفقهاء أنه لا يجوز لهم إنشاء المعابد إلا إذا أذن لهم الإمام لمصلحة ظاهرة[2].

٢ ـ لا يجوز لأهل الذمة من اليهود والنصارى أن يتصرفوا في المعاملات المالية تصرفاً لا يتفق مع تعاليم الإسلام كعقد الربا، وغيره من العقود المحرمة[3].

٣ ـ إقامة العقوبات والحدود الإسلامية عليهم متى فعلوا ما يوجب ذلك، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ رجم يهوديين زنيا بعد إحصانهما، أما فيما اتصل بالشعائر الدينية من عقائد وعبادات وما يتصل بالأسرة من زواج وطلاق فلهم الحرية المطلقة[4].

٤ ـ ينقض عهد الذمة بالامتناع عن الجزية، أو إباء التزام حكم الإسلام إذا حكم حاكم به، أو تعدى على مسلم بقتل أو بفتنة عن دينه، أو زنا بمسلمة، أو أصابها بزواج، أو قطع الطريق، أو تجسس أو آوى الجاسوس، أو ذكر الله أو رسوله أو كتابهُ أو دينه بسوء، فإن هذا ضرر يعم المسلمين في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأخلاقهم ودينهم، قيل لابن عمر رضي الله عنه:

«إن راهباً يشتم رسول الله ﷺ فقال: لو سمعته لقتلته، إنا لم نعطه الأمان على هذا»[5].

---

(١) فتح القدير ـ ابن الهمام ٤/ ٣٧٩.

(٢) المصدر السابق ٤/٣٧٨.

(٣) فقه السنّة جـ ١١/ ١٤٢ ـ دار البيان.

(٤) المرجع السابق جـ ١١/ ١٤٢ ـ طبعة دار البيان ـ الكويت.

(٥) فقه السنّة جـ ١١/ ٥٦ ـ طبعة دار البيان ـ الكويت.

* هل الملحد والمرتد آمنان على دينهما؟

وسؤال أطرحهُ لدى حديثي عن الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لأهل الذمة هل الملحد والمرتد آمنان على دينهما؟.

والجواب أن الإسلام لا يبيح للمسلم المرتد أن يعتنق أية عقيدة ويكون آمناً على عقيدته، كذلك فإنه لا يبيح لأي إنسان أن يظهر عقيدة الإلحاد في داخل المجتمعات الإسلامية بدعوى الحرية الدينية، وحرية ممارسة الشعائر التعبدية، بل «وقف الإسلام من الملحدين والمرتدين موقفاً شديداً حاسماً لا رحمة فيه، ألا وهو عقوبة الإعدام بالسيف لكل مَن تثبت ردته، أو يتبين للناس إلحاده، فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه» وفي الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه والمفارق للجماعة». والإسلام يفرض هذه العقوبة القاسية للمرتد والملحد حتى لا يفكر أي منافق بالدخول في الإسلام ثم الخروج منه تشجيعاً لحركة الردة والإلحاد وزرع الفتنة والتشكيك في المجتمع الإسلامي ولكي لا تقوى شوكة الكفر والإلحاد في المجتمعات الإسلامية فتشكل الخطر الأكبر على عقيدة المسلمين»[1].

ب ـ الأمن على النفس:

ومن ثمرات الإيمان الأمن على النفس، فالله تعالى كرم الإنسان، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السموات والأرض وجعله خليفة في الأرض، ولا يمكن أن يحقق الإنسان أهدافه، ويبلغ غاياته إلا إذا أخذ حقوقه كاملة وفي طليعة هذه الحقوق التي ضمنها منهج الإيمان حق الحياة، ويتجلى حفظ الإسلام على النفس فيما يأتي:

أولاً: النهي عن الاعتداء على النفس في ضوء القرآن والسنّة:

ونصوص القرآن التي تدعوا إلى المحافظة على الدماء وعدم الاعتداء

---

(١) حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية ـ انظر ص ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠٩ ـ ١١٠.

عليها كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ (المائدة ٣٢).

«إن قتل نفس واحدة في غير قصاص لقتل، وفي غير دفع فساد في الأرض يعدل قتل الناس جميعاً، لأن كل نفس ككل نفس، وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس، فقتل نفس واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته، الحق الذي تشترك فيه كل النفوس، كذلك دفع القتل عن نفس، واستحياؤها بهذا الدفع هو استحياء للنفوس جميعاً، لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً»[1].

وقال تعالى: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ (الأنعام).

وقال سبحانه: ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنهُ وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ (النساء ٩٣).

وانظر إلى هذا العقاب الأليم الذي يتهدد الله به كل من يعتدي على دماء المؤمنين، خلود في نار جهنم، نزول غضب الله عليه، ونيله لعنة الله في الدنيا والآخرة، ثم عذاب عظيم يوم القيامة.

والأحاديث الواردة في تحريم الاعتداء على النفس كثيرة أذكر منها ما رواه البخاري أنه ﷺ قال: «لا يزال الرجل في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً».

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجة أنه ﷺ قال:

«لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق، والمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده».

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٧٧ ـ ٧٧٨.

وفي الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال:

«أول ما يقضىٰ بين الناس يوم القيامة في الدماء».

وفي حجة الوداع ألقى رسول الله بيانه على الصحابة ومما جاء فيه:

«إن دماءكم و أموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا . . ».

ثانياً: حد القصاص:

ومن الوسائل التي لجأ إليها الإسلام للأمن على الدماء، والمحافظة على الأنفس، هي إقامة حد القصاص في الذين يعيثون في الأرض فساداً بإراقة دماء الناس بغير حق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ (البقرة ١٧٩)، فالله تعالى شرع القصاص وهو قتل القاتل، وفيه حكمة عظيمة وهي بقاء المنهج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان في ذلك حياة للنفوس، واشتهر قولهم: «القتل أنفى للقتل» فجاءت هذه العبارة في القرآن الكريم أفصح وأبلغ وأوجز، وكم من رجل يريد أن يقتل فيمنعه القصاص مخافة أن يقتل»[١].

وذهب الجمهور من الفقهاء والأئمة الأربعة إلى أنه لا يجوز أن يتعاون المسلم مع جماعة إرهابية هدفها سفك الدماء بغير حق، ومن فعل ذلك كان مجرماً قاتلاً ولو لم يشترك بنفسه في تنفيذ الجريمة، روى مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل جماعة برجل واحد قتلوه غدراً، وقال: «لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعاً»[٢].

كذلك فإنه يحرم على المسلم أن يسكت على رجل أو رجال يعدون لارتكاب جريمة قتل في داخل المجتمعات الإسلامية أو خارجها لما رواه

---

(١) مختصر ابن كثير ١٥٧/١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١٥٦/١.

الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه»[1].

* **عدم قتل غير المكلف:**

ومن الوسائل التي لجأ إليها الإسلام للمحافظة على الدماء أن القصاص لا يقام على الصبي أو المجنون لنقص عقل الأول، وزوال عقل الثاني، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى له بمجنونة قد زنت، فاستشار فيها أناساً فأمر بها أن ترجم، فمر بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان، زنت فأمر بها عمر أن ترجم، فقال: ارجعوا بها ثم أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ قال: فما بال هذه؟ قال: لا شيء، فأرسلها عمر[2].

رابعاً ـ النهي عن الانتحار:

ومن الوسائل التي لجأت إليها الشريعة الإسلامية لصيانة الدماء وحفظها هي تحريم اعتداء الإنسان على نفسه قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾[3] فالاعتداء على النفس اعتداء على حق من الحقوق التي وهبها الله لعباده، وإهدار هذا الحق فيه ظلم لأنه يمنعها مما أباح الله للنفس أن تتمتع به في هذه الحياة الدنيا من الطيبات.

وفي الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال:

«من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده

(١) الترغيب والترهيب ٣/٣٠٤ وإسناده حسن.
(٢) سنن أبي داود ـ ٤/٥٨٨ إعداد عزت الدعاس، محمد علي حمص.
(٣) النساء ٢٩.

يتوجأ[1] بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً».

والأمن على النفس في المجتمع الإيماني ليس خاصاً بأهل الإيمان وحدهم، فأهل الذمة من اليهود والنصارى ممن يعيشون بين المسلمين ويستظلون بحكم الإسلام وشريعته هم أيضاً آمنون على دمائهم وأنفسهم، بل ذهب الإسلام إلى أبعد من هذا حين دعا إلى المحافظة على أنفس هؤلاء ودمائهم في حالة الحرب، من ذلك أنه لا يقتل إلا من يقاتل في المعركة، وأما من تجنب الخرب فلا يحل قتله، أو التعرض له بحال، وحرم الإسلام كذلك قتل النساء والأطفال والمرضى، والشيوخ، والرهبان، والعباد، وحرم المثلة والاجهاز على الجريح»[2]. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي الجند فيقول: «لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا تقتلوا هرماً، ولا امرأة، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات»[3]، والعقد الذي بين المسلمين وأهل الذمة من اليهود والنصارى يترتب عليه الحفاظ على أموالهم، وصيانة أعراضهم، والحفاظ على دمائهم، وكان علي ابن أبي طالب يقول: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا»[4].

* * *

جـ ـ الأمن على المال:

ومن صور الأمن ومظاهره الأمن على المال، ويتضح هذا فيما يأتي:

*** الكسب المشروع في جمع المال:**

إن أموال الناس في المجتمع الإيماني مصونه لا يجوز الاعتداء عليها،

---

(١) يضرب بها نفسه.

(٢) فقه السنّة ١١/١٢٩ ـ دار البيان ـ الكويت.

(٣) المرجع السابق ١١/١٣١ ـ ١٣٢ ـ دار البيان ـ الكويت.

(٤) المرجع السابق جـ ١١/١٤١.

فمن أراد أن يجمع مالاً فالطريق إليه هو الكسب المشروع، والبيع والشراء من أهم مصادر الرزق، ويدخل في ذلك كل أنواع التجارات، ولقد حث رسول الله ﷺ أصحابهُ وأمته على عمل اليد كما في حديث البخاري «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبّي الله داود كان يأكل من عمل يده»، وعنه ﷺ كما رواه البخاري أنه قال: «لئن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

* **حماية المال من السفيه:**

ومن السبل التي لجأ إليها الإسلام لصيانة المال وحفظه هو الحجر على السفيه الذي يضيع المال ويتلفه لقوله تعالى: ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا قولاً معروفاً ﴾ (النساء).

«والحجر أقسام فتارة يكون الحجر للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل، أو الدين، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه»[1].

* **إنفاق المال في الوجه المشروع:**

ومن حفظ المال والأمن عليه إنفاقه في الوجه المشروع، فلا يجوز لمؤمن أن ينفق ماله في تعاطي المخدرات والخمور، أو في ارتكاب الفاحشة، أو في القمار، أو يصرفه فيما فيه معصية لله ولرسوله ﷺ. ومن الإنفاق في الوجه المشروع ألا يكون مسرفاً في إنفاقه لأن الله تعالى حذر المؤمن أن يبذر ماله والإسراف فيه كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ولا تبذر تبذيراً، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ (الإسراء). وقال عن

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٥٨.

(٢) ٢٦ - ٢٧.

صفات عباد الرحمن: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ (الفرقان ٦٧).

قال القرطبي في تفسيره: «إن ثابت بن قيس عمد إلى خمسمائة نخلة فجزها ثم قسمها في يوم واحد، ولم يترك لأهله شيئاً، فنزلت ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أي لا تعطوا كله. وروى عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال: الإسراف ما قصرت عن حق الله تعالى، فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال، ومنع إخراج حق المساكين داخلين في حكم السرف، والعدل خلاف هذا، فيتصدق ويُبْقي»[1].

*** النهي عن الكسب الحرام:**

لقد حذر الإسلام من أكل المال الحرام، والمبدأ في هذا التحريم قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ (البقرة ١٨٨)، والمعنى كما قال القرطبي في تفسيره «لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق فيدخل فيه القمار والخداع وجحد الحقرق...»[2] وطرق كسب المال الحرام كثيرة منها:

أ ـ الربا:

لم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا، ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا، ومن الحكمة البالغة، يقول تعالى: ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ﴾ (البقرة ٢٧٥)، ولقد أعلن القرآن الكريم الحرب على آكلي الربا كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/١١٠.

(٢) المرجع السابق ط/٣٣٨.

(٣) البقرة ٢٧٩.

وفي السنّة النبوية أعلن رسول الله ﷺ أن آكل الربا مطرود من رحمة الله، فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله، وفي رواية ثانية عن جابر بن عبد الله وكاتبه، وشاهديه»[1].

ويدخل في الربا المحرم ربا النسيئة، وهو أن تكون الزيادة المذكورة في مقابلة تأخير الدفع[2]، وربا الفضل وهو الزيادة التي ينالها الرجل من صاحبه عند تناول شيء مماثل يداً بيد[3]، وربا الفوائد البنكية، وبيع العينة وصورته أن تباع السلعة بثمن مؤجل ثم يشتريها البائع من المشتري بثمن معجل أقل مما باع له، وقد قال بحرمته الإمام مالك وأحمد لأنها حيلة لربا النسيئة»[4].

وفي تحريم الإسلام للربا أمن للمال من تسلط الأغنياء على الفقراء، وحفظ وصيانة للمجتمع من الأنانية و إعطاء العبودية للدينار والدرهم.

ب ـ السرقة:

ومن طرق الكسب الحرام السرقة، وقد حارب الإسلام هذه الجريمة المالية صيانة لأموال الناس وحفظاً لها، وقد أوجبت الشريعة الإسلامية قطع كل يد تمتد إلى مال حلال فتأخذه بطريق غير مشروع، قال تعالى: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ﴾.

يقول صاحب الظلال رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة:

«إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام مع اختلاف عقائدهم ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية، إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية، وضمانات التربية والتقويم، وفي الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/٣ ـ ٤.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ٢/٢٤٥.

(٣) الربا ـ المودودي ص ٩٢.

(٤) نظرية الربا المحرم في الإسلام ـ إبراهيم بدوي ـ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

تنبت من حلال. . . والإسلام يربي ضمائر الناس وأخلاقهم، فيجعل تفكيرهم يتجهُ إلى العمل والكسب عن طريقه لا إلى السرقة والكسب عن طريقها، فإذا لم يوجد العمل، أو لم يكف لتوفير ضروراتهم أعطاهم حقهم بالوسائل النظيفة الكريمة، إذاً فلماذا يسرق السارق في كل هذا النظام؟ إنه لا يسرق لسد حاجة إنما يسرق للطمع في الثراء من غير طريق العمل، والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذي يروع الجماعة المسلمة في دار الإسلام، ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال، فإذا ما سرق السارق بعد ذلك كله، إذا سرق وهو مكفي الحاجة، متبين حرمة الجريمة، غير محتاج لسلب ما في أيدي الآخرين، إذا سرق في مثل هذه الأحوال فإنه لا يسرق وله عذر، ولا ينبغي لأحد أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة»[1].

جـ - الرشوة:

ومن وسائل الأمن على المال في المجتمع الإيماني تحريم الرشوة، فالرشوة اعتداء على المال بغير حق، ومن أدلة تحريمها قوله تعالى عن صفات اليهود: ﴿ سماعون للكذب، أكالون للسحت ﴾ (المائدة ٤٢)، قال ابن مسعود: السحت، الرُّشا[2]، وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي أنه ﷺ قال: «لعنة الله على الراشي والمرتشي»[3].

والرشوة محرمة بأنواعها، فهناك رشوة لإبطال حق، وإحقاق باطل، وهذا النوع هو أشد أنواع الرشوة تحريماً، ورشوة للحصول على منصب أو وظيفة، ورشوة لدفع الظلم وجمهور الفقهاء يرون أن الإثم في هذه الحالة يقع على المرتشي دون الراشي»[4].

والهدية التي تقدم للحاكم، أو القاضي، أو الموظف في مؤسسات

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٤ - ٨٨٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٨٣.
(٣) نيل الأوطار ٩/ ١٧٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٨٣ - ١٨٤.

الدولة وسواها كلها رشوة[1].

* * *

٣ - الأمن بين مجتمع الإيمان ومجتمع الكفر:

لقد رأينا فيما سبق أن الإيمان من ثمراته الأمن، فالمؤمن في المجتمع الإيماني آمن على دينه وعقيدته، آمن على نفسه وماله، آمن على عرضه ودمه، بل غير المؤمنين كذلك في دار الإسلام ينعمون بهذه النعمة العظيمة، نعمة الأمن، ولكن ماذا عن الأمن في مجتمع الكفر؟.

إذا كان الأمن هو السمة البارزة في مجتمع الإيمان، فإن فقدان الأمن والخوف على النفس والمال والعرض هو السمة البارزة لمجتمع الكفر، وإليك البيان.

* الإرهاب والقمع الديني في مجتمع الكفر:

ففيما يتصل بالأمن على الدين والعقيدة فإن الباحث المنصف سيجد أن هذه الصورة من صور الأمن في المجتمعات الجاهلية الكافرة مفقودة، فانظر إلى الذين يعيشون في مجتمع اليهود ولا يدينون باليهودية هل هم ينعمون بنعمة الأمن على دينهم وعقيدتهم؟.

إن اليهود يعتبرون أنفسهم أنهم الشعب المختار لأن دينهم - في زعمهم - هو الدين المختار، ولذلك عمدوا إلى محاربة الأديان الأخرى وأتباعها بكل وسيلة فاليهود يبيحون أموال النصارى وأعراضهم ودماءهم، بل يعتبرون سفك الدم المسيحي وسواه قربة يتقرب بها اليهودي إلى الله، فالتلمود يحدد أنواعاً من الطهر لا يصل إليها اليهودي إلا باستعمال الذبائح البشرية من المسيحيين وسواهم[2].

وانظر إلى الحرية الدينية عند النصارى، إنه يمكننا القول بأن أوروبا

---

(١) المرجع السابق، ٦/١٨٣.

(٢) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص ٧٨.

والمسيحية لم تعرف الحرية الدينية ولا التسامح الديني طوال عشرة قرون ذاقت فيها الأقليات الدينية صنوفاً من العذاب والخوف والقتل والتشريد والحروق وعمليات الإبادة الجماعية»[١].

وقد شرع المسيحيون باضطهاد اليهود حين أصدر قسطنطين قانوناً يقضي بإحراق كل يهودي يمارس على مرأى من الناس عبادته، أو يدعو نصرانياً إلى دينه، وبإحراق كل نصراني يتهود[٢].

أما ماذا فعل النصارى في المسلمين في الأندلس فاقرأ معي ما كان يفعله هؤلاء الحاقدون، «كانوا يستخدمون آلة لتعذيب المسلمين على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة، وكانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت ثم يطبقون عليه بابه بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مزق جسم المعذب وقطعه إرباً إرباً»[٣].

وآلات الكلاليب تغرز في لسان المسلم المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرز في أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء، أو تبتر بالسكاكين، وسياط شائك من الحديد يضرب به المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم[٤].

وماذا عن الحرية الدينية عند الشيوعيين؟.

إن ما تدعيه الأنظمة الشيوعية الكافرة من أنها جاءت لحماية حقوق الإنسان وحرياته ادعاء كاذب وباطل، فاقرأ مثلاً ما قالته صحيفة البرافدا السوفيتية:

«نحن نؤمن بثلاثة أشياء: كارل ماركس، لينين، ستالين، ونكفر بثلاثة

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص ٧٨.

(٣) قادة الغرب يقولون ص ١٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٨.

أشياء الله، الدين، الملكية الخاصة»[1].

ووقف «زينوفيف» أحد أعضاء الحزب الشيوعي مرة يخاطب مؤتمر الحزب الشيوعي فقال:)إن الشيوعيين سيمحون الأديان، وسيحولون الروح الوطنية والقومية إلى فكرة اشتراكية)[2].

وماذا فعل الشيوعيون في حق المسلمين؟

لقد أبادوا من المسلمين خلال ربع قرن من الزمان (٢٦) مليوناً من المسلمين بمعدل مليون في السنة، وقد وقع في القطاع الصيني من تركستان ما يغطي في بشاعته على بشاعة المغول والتتار، لقد جيء بأحد زعماء المسلمين فحفرت له حفرة في الطريق العام، وطلب من المسلمين تحت وطأة التعذيب والإرهاب أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته، وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق تدريجياً في الحفرة حتى قضى شهيداً[3]، فأين الحرية الدينية لدى اليهود والنصارى والشيوعيين؟.

هل من الحرية الدينية في شيء لدى الشيوعيين أن يرتكبوا هذه المجازر وتلك الأساليب الحيوانية في إنزال العذاب فيمن لا يعتنق عقيدتهم؟ هل من الحرية الدينية في شيء لدى اليهود أن يتقرب اليهودي إلى الله بذبح المسلم أو النصراني؟ هل من الحرية الدينية عند النصارى أن تغرز الكلاليب في لسان المسلم ثم تشد ليخرج اللسان معها؟.

ثم قارن هذا القمع والإرهاب والوحشية بسماحة أهل الإيمان في التعامل مع اليهود والنصارى، ومنحهم الحرية الدينية كما جاء في العهد الذي كتبهُ عمر بن الخطاب لأهل المقدس «هذا ما أعطى أمير المؤمنين أهل إيلياء

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ـ د. عبد الرحمن عميرة ص ١٤٣.
(٢) الماركسية في أبعادها المختلفة ـ برتراند راسل وجماعته ص ٤٨.
(٣) مذكرات فقه الدعوة والداعية. الشيخ عبد الله علوان ص ٥٠.

من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم. . . لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا يكرهون على دين، ولا يضار أحد منهم»[1].

* **الرعب سمة المجتمعات الكافرة:**

وماذا عن الأمن على النفس والعرض في المجتمعات الجاهلية الكافرة؟.

إن الذين يعيشون في المجتمعات الغربية الكافرة يفتقدون نعمة الأمن على أنفسهم وأعراضهم، والإحصائيات الصادرة عندهم تثبت ذلك، فلقد أصدرت شرطة اسكوتلندا يارد عام ١٩٨٠ م إحصائية حول جرائم القتل التي وقعت في بريطانيا خلال عام واحد، وذكرت فيها أن ٥٨٥ ألف جريمة شهدتها منطقة لندن وحدها، وأن ١٠٥ألف شخص قد اعتقلوا بارتكاب هذه الجرائم، وأن ٥٢ ألفاً منهم من الشباب المراهق تحت سن ٢١ عام، و ٢٥ ألف من الأولاد تحت سن ١٧ عام[2].

وبلغ مجموع الجرائم في أمريكا ١٣ مليون و ٣٩٠ ألف جريمة بمعدل ٦ جرائم لكل مواطن أمريكي[3].

وهذه الإحصائيات ـ وهي كثيرة ـ إن دلت على شيء فإنما تدل على فقدان الأمن في هذه المجتمعات الجاهلية.

أما فيما يتعلق بالاعتداء على الأعراض فإليك هذه الإحصائية:

بلغت المستشفيات الخاصة بأمراض الزنا في الولايات المتحدة الأمريكية ٦٥٠ مستشفى، ويموت فيها ما بين ثلاثين وأربعين ألف طفل

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٥٨/٤ وما بعدها.

(٢) جريدة المدينة السعودية ص ١١ تاريخ ٢ صفر ١٤٠٢ هـ.

(٣) مجلة المجتمع الكويتية تاريخ ٣ رمضان ١٤٠٣ هـ.

بمرض الزهري الموروث[1].

ويظهر الاعتداء على الأعراض في المجتمعات الغربية في انتشار ظاهرة الأولاد غير الشرعيين، وقد نشرت إحدى المجلات الطبية البريطانية هذه الإحصائية عام ١٩٦٧ م جاء فيها:

«في كل ألف طفل مولود في بريطانيا حوالي (٢٠) منهم غير شرعيين، ويبلغ عدد الأطفال غير الشرعيين سنوياً (١٩٠٧٠) ألف طفل من الفتيات اللاتي هن ما بين سن (٢٠ ـ ٢٤) عاماً، ويبلغ عدد الأطفال غير الشرعيين سنوياً (٩٥٤٠٨) ألف طفل من الفتيات اللاتي هن ما بين سن (١٥ ـ ١٩) عاماً، وقد اعترفت ١٢٪ من النساء في إحدى الدراسات أن أولادهن من غير أزواجهن»[2].

ولم ينج الأطفال من الاعتداء الجنسي عليهم، تقول إحدى المجلات الأمريكية إن هناك مليون حالة من الاعتداء على الأطفال جنسياً في كل عام في الولايات المتحدة ولا يكتفي المجرمون في هذه الحالات بالاعتداء على هؤلاء الأطفال بل يقومون بتصويرهم في أوضاع شائنة[3].

فأين هذا الرعب والخوف في تلك المجتمعات الغربية من الأمن الذي نعم به المسلمون واليهود والنصارى على دمائهم وأعراضهم في مجتمع الإيمان قروناً طويلة؟.

*** فساد العقول في المجتمعات الغربية:**

وماذا عن الأمن والمحافظة على العقل البشري في المجتمعات الغربية؟.

---

(١) الحجاب ـ المودودي ص ١٠٨.
(٢) مجلة الطب العمومي ـ عدد شباط ١٩٦٧ ـ ترجمة د. وجيه زين العابدين.
(٣) مجلة المجتمع عدد ٢٢ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ ص ٤٠.

إن إفساد العقول البشرية وتعاطي المخدرات والخمور في القرن العشرين أصبح مشكلة عالمية خطيرة تهدد المجتمعات الإنسانية، وإليك هذه الأرقام:

الفرد الواحد في ألمانيا يستهلك ١٤٨ لتراً من الكحول المطلق سنوياً، وفي انجلترا ١١٠ لتراً، وفي فرنسا ١٥٢ لتراً[١]، وفي الولايات المتحدة الأمريكية هناك ما يقارب من مائة مليون شخص يشربون الخمور فيهم عشرة ملايين مدمن، وفي بريطانيا يشرب الخمر ما لا يقل عن عشرة ملايين شخص منهم مليون مدمن[٢].

وفي اسكتلندا نجد أن ٩٢٪ من الأولاد، و ٨٥٪ من البنات قد جربوا شرب الخمور قبل سن الرابعة عشرة، ونجد نسبة هائلة من البالغين ما بين ١٧ إلى ٣٠ عاماً يشربون الخمور بانتظام[٣]. وهذه الإحصائيات والتقريرات تدل على أن تعاطي الخمور والمخدرات أصبح مشكلة خطيرة باتت تهدد المجتمعات الغربية.

ما نخلص إليه من هذه الدراسة أن المجتمعات البشرية إذا أرادت أن تحيا حياة أمن وطمأنينة فلا بد أن تعود إلى منهج الإيمان الذي جاء به رسول الله ﷺ، لأنها إذا اهتدت بهذا النهج فإن أفرادها سيكونون آمنين على دينهم وعقيدتهم، آمنين على دمائهم وأعراضهم، آمنين على أرواحهم وأموالهم، وبدون هذا المنهج الإيماني فإنهم سيعيشون ـ كما رأينا ـ حياة رعب وخوف وفساد، حياة يفقدون فيها الطمأنينة والسكينة، وهل الحياة إلا أمن وأمان وطمأنينة وسكينة؟.

* * *

---

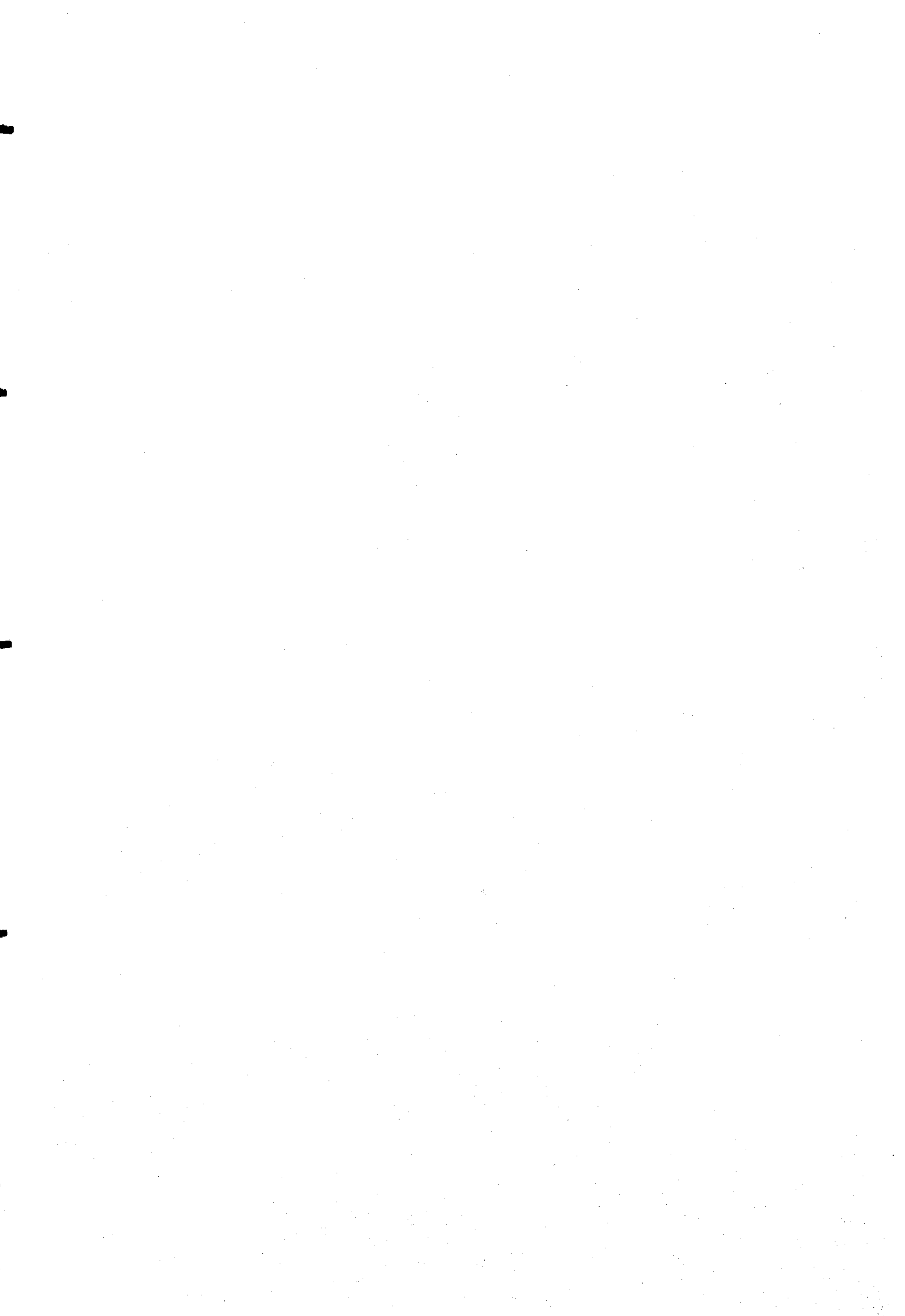
(١) الخمر بين الطب والفقه ص ٨٥.
(٢) المرجع السابق ص ٨٥.
(٣) المرجع السابق ص ٨٥.



المبحث الثاني

الإيمان والوقاية من الفاحشة

- حفظ الفرج ثمرة إيمانية.
- الحكمة من تحريم الزنى.
- عقوبة جريمة الزنى.
- جريمة الشذوذ الجنسي.
- سبل الوقاية من جريمة الزنى.



المبحث الثاني
الإيمان والوقاية من الفاحشة

١ ـ حفظ الفرج ثمرة إيمانية:

لقد جاء الإسلام والعرب في جزيرتهم منغمسون في شهواتهم وملذاتهم، حيث خيام الزنى منصوبة، ورايات البغاء مرفوعة، بل وصل الأمر بالعربي في جاهليته كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: أن يقول لزوجته: «اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، فكيف استطاع رسول الله ﷺ أن يطهر المجتمع من هذه المفاسد الاجتماعية والخلقية.

إن الإيمان يهدف من جملة ما يهدف إلى بناء مجتمع طاهر نظيف، لا مجال فيه للفاجرين والفاجرات، والفاسقين، والفاسقات، إنه يريد أن يبني مجتمعاً الناس فيه آمنون على أعراضهم ومواضع كراماتهم وشرفهم، كما أنهم آمنون على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، ولهذا فقد حارب الإسلام جريمة الزنى، ووضع لها عقوبة قاسية، لأنها جريمة بشعة لها نتائج خطيرة على الفرد والمجتمع، فما هي أدلة تحريم الزنى؟.

الآيات التي تحرم الزنى كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ (الإسراء ٣٢).

وقوله تعالى: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ (الفرقان).

والأحاديث الواردة في السنّة النبوية في تحريم الزنى كثيرة كذلك، أختار منها ما يأتي:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[١].

قال ابن عباس: ينزع منه نور الإيمان في الزنى، وقال المهلب:

ينزع نور بصيرته في طاعة الله لغلبة شهوته عليه، فكأن تلك البصيرة نور، أطفأته الشهوة من قلبه، يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾.

وقال الحسن: ينزع منه الإيمان، فيزول عنه فيقال له منافق وفاسق[٢].

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»[٣].

وروى الإمام أحمد[٤] في مسنده أن شاباً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إئذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه، مه.

فقال: ادن، فدنا منه قريباً، فقال: اجلس فجلس.

فقال: أتحبه لأمك؟.

قال: لا والله، جعلني الله فداك.

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٢) انظر في هذه الأقوال هامش الترغيب والترهيب جـ ٣/٢٦٩.

(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣/٢٧٨.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢/٣٧٦.

فقال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم.

قال: أتحبهُ لابنتك؟.

قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك.

قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم.

قال: أفتحبه لأختك؟.

قال: لا والله، جعلني الله فداك.

قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم.

قال: أفتحبه لعمتك؟.

قال: لا والله، جعلني الله فداك.

قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم.

قال: أفتحبه لخالتك؟.

قال: لا والله جعلني الله فداك.

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال[1]: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه».

قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء».

* * *

٢ ـ الحكمة من تحريم الزنى:

وتحريم الإسلام للزنى له حكم كثيرة، أذكر منها ما يأتي:

أ ـ الأضرار الصحية:

إن الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان وضع له منهجاً يحافظ به على قوة بدنه، وصحته وحيويته، وهذا المنهج يتمثل في أن هذا حلالٌ فافعله وهذا حرام فاجتنبه، فما من شيء أحله الله الخالق وأباحه إلا وفيه مصلحة للإنسان

---

(١) هو راوي الحديث أبو أمامة رضي الله عنه.

نفسه، ومن جملة هذه المصالح حماية بدنه من الأمراض، وما من شيء حرمه الله تعالى إلا وفيه ضرر للإنسان نفسه، ومن صور ذلك الضرر فقدانه لنعمة الصحة والعافية.

وعلى ضوء هذه القاعدة أقول:

إن الأضرار الصحية الناتجة عن جريمة الزنا لا يمكن حصرها، بيد أني أشير إلى مرضين خطيرين اثنين:

فأما المرض الأول: فهو مرض (انهيار المناعة المكتسب) أو ما يسمى بـ (الإيدز)، وقد اجتاح الخوف العواصم الأوروبية من هذا المرض حتى أصبح الخوف أسرع انتشاراً من المرض نفسه، ومن مظاهر الخوف[1] أن الأثرياء الأمريكيين بدأوا في إنشاء بنوك دم (قطاع خاص) في منازلهم، وقررت الحكومة الصينية منع استيراد كل منتجات الدم، وذلك حرصاً على عدم استيراد مرض الإيدز، والمسؤولون الإيطاليون يصرون على إغلاق التوابيت بإحكام شديد، ويستخدمون لذلك مواداً أو أدوات عازلة قبل مغادرة تابوت الميت من المستشفى إلى المقبرة، كما يوصي الجميع بعدم الاقتراب من التابوت، وذلك منعاً لانتقال عدوى المرض، وقد بلغت درجات الخوف إلى حد أن رجال الشرطة في الولايات المتحدة الأمريكية يرتدون قفازات من المطاط عندما يصطحبون أشخاصاً ينزفون الدماء.

ويرجع هذا الخوف والذعر الذي يجتاح العالم إلى ارتفاع حالات الإصابة، ففي الولايات المتحدة وحدها أكثر من ١٤ ألف حالة من المتوقع أن ترتفع إلى ٣٥ ألف حالة مع نهاية العام الحالي، بالإضافة إلى ذلك يغطّي مرض الإيدز ١٧ دولة أوروبية ويتركز بصفة خاصة في كل من فرنسا وانجلترا[2].

---

(١) انظر جريدة المسلمون العدد ٤٢، تاريخ ١١ - ١٧ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ/ ص ٢.
(٢) انظر جريدة المسلمون العدد ٤٢، تاريخ ١١ - ١٧ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ / ص ٢.

فما هو مرض الإيدز؟ .

لقد منح الله تعالى الجسم البشري جهازاً مناعياً يحميه من غزو الميكروبات والجراثيم، ومحور جهاز المناعة يرتكز على خلايا خاصة تتولد في نخاع العظام يسمونها الخلايا اللمفاوية، منها نوعان:

الأول: منها يسمى (خلايا بى)، وتقوم على تصنيع الأجسام المضادة للميكروبات والجراثيم والسموم لتدميرها وإبطال مفعولها لتصبح لقمة سائغة للخلايا الملتهمة في الدم.

والثاني: منها يسمى (خلايا تى)، وهي تتولى أمر الفيروسات والخلايا السرطانية، وتعين (خلايا بى) للقيام بواجبها.

وما يحدث لمرض الإيدز هو انهيار تام لهذا الجهاز المناعي الذي خلقه الله تعالى، فما هو السبب في انهيار المناعة بهذه الصورة المفاجئة الدمرة؟ .

يقول الدكتور (لوك مونتاجنير) رئيس معهد باستير في باريس: إن الفيروس يسير عبر الدم بعد أن يخترق الأنسجة حتى يصل إلى خلايا (تى) المناعية، ويعيش فيها، وهو يمتلك قدرة على التكاثر تفوق غيره من الفيروسات ألف مرة، وبالتالي فإن الخلية المناعية اللمفاوية تتعطل عن وظيفتها، بل تنفجر لينطلق منها هذا الحشد الهائل من الفيروسات التي تهاجم خلايا المناعة، ومن هنا تنهار المناعة يوماً بعد يوم إلى أن تنعدم»[١].

والانغماس في الفواحش المحرمة كالزنا والشذوذ الجنسي هو العامل الأساسي في نقل هذا المرض، كذلك فإنه ينتقل أيضاً باختلاط سوائل جسم إنسان بآخر، لأن فيروس الإيدز موجود في جميع سوائل الجسم، في السائل المنوي، واللعاب، والدماء، وهذا يوضح انتقال الفيروس من خلال هذه السوائل.

---

(١) انظر مجلة الوعي الإسلامي العدد ٢٥٦ ربيع الآخر ١٤٠٦/ ص ٨٧ ـ ٩٢.

وبجانب كل هذا وجد أن المرض أيضاً ينتقل بواسطة الإبر خاصة في حالة مدمني المخدرات[1].

وأما المرض الثاني: من أمراض الزنا فهو مرض الزهري، وهذا المرض الخطير له أدوارٌ يمر بها إذا أصيب الإنسان، ويعد الدور الثالث أخطر هذه الأدوار، إذ يدخل الأعضاء الداخلية كالقلب والكبد والدماغ، فيسبب مرضها وعجزها أو الشلل والجنون، كما أنه في هذا الدور ينتقل إلى الجنين في بطن أمه فيقتله، أو يولد مريضاً[2].

يقول الدكتور (توماس باران) عن هذا المرض:

«إنه افتك وأضر بمائة مرة من مرض فالج الأطفال، وإن خطره في أمريكا مثل خطر السرطان، حتى إن واحداً من كل أربعة أشخاص إنما يذهب ضحية الموت بسبب الزهري»[3].

ومن أضراره أن الزهري يعمل على تضييق الشرايين التاجية التي تغذي القلب فتؤدي إلى نوبات من الذبحة الصدرية، وقد يضغط على العصب الذي يغذي الحنجرة فيؤدي إلى فقدان الصوت، كذلك فإنه يؤدي إلى موت خلايا المخ والشلل[4].

وقد شاعت أمراض الزنا في المجتمعات البشرية التي تبيح هذا النوع من الاتصال المحرم إلى درجة خطيرة، وإليك هذه الإحصائية:

المستشفيات الخاصة بأمراض الزنا في أمريكا ٦٥٠ مستشفى، ويموت فيها ما بين ثلاثين وأربعين ألف طفل بمرض الزهري الموروث، وأجمع

---

(١) انظر جريدة الرياض السعودية ـ الإثنين ٦ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ صفحة/ نافذة على العالم.

(٢) المجلة الطبية العراقية مجلد ٢٠ آب ١٩٧١ م.

(٣) حركة تحديد النسل ـ المودودي ص ١٦ وما بعدها.

(٤) مجلة منبر الإسلام ص ٢٥٧، شهر محرم ١٣٩٣ هـ.

الماهرون في أمراض النساء على أن ٧٥٪ من اللاتي تجرى لهن العمليات الجراحية يوجدن متأثرات بمرض السيلان[١].

وصدق رسول الله ﷺ حين قال في حديث رواه أبو يعلى: «ما ظهر في قوم الزنا أو الربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[٢].

وهذه الأمراض الخطيرة التي تعاني منها البشرية في القرن العشرين لون من ألوان العذاب الذي أنزله الله على كل مجتمع ظهرت فيه فاحشة الزنا، فإذا أراد الإنسان أن يحفظ نفسه من شر الأمراض وأخطارها فخير منهج يعنيهُ على ذلك هو العودة إلى منهج الإيمان.

ب ـ الأضرار الاجتماعية[٣]:

والأضرار الاجتماعية التي يسببها شيوع فاحشة الزنا كثيرة، منها:

*** انتشار ظاهرة الأولاد غير الشرعيين:**

ولعل هذه الظاهرة تكون أوضح وأظهر في المجتمعات الغربية، وأنقل هنا إحصائية واحدة نشرتها إحدى المجلات الطبية البريطانية الصادرة في شباط عام ١٩٦٧ م، جاء فيها:

«في كل ألف طفل في بريطانيا حوالي (٢٠) منهم غير شرعيين، ويبلغ عدد الأطفال غير الشرعيين سنوياً (١٩٠٧٠) طفلاً من الفتيات اللاتي هن ما بين سن (٢٠ ـ ٢٤)، ويبلغ عدد الأطفال غير الشرعيين سنوياً (٩٥٤٠٨) طفلاً من الفتيات اللاتي هن ما بين سن (١٥ ـ ١٩).

وقد اعترفت ١٢٪ من النساء في إحدى الدراسات أن أولادهن من غير أزواجهن[٤].

---

(١) الحجاب ـ المودودي ص ١٠٨.

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣/٢٧٨ قال المنذري: إسناده جيد.

(٣) انظر كتاب العلاقات الجنسية غير الشرعية ـ عبد الملك السعدي.

(٤) مجلة الطب العمومي ـ عدد شباط ١٩٦٧ م ـ ترجمة دكتور وجيه زين العابدين.

* **إشاعة الفتن وإراقة الدماء:**

وهـذه المشكلة الاجتماعيـة نجد آثـارها في داخـل المجتمعات العـربية والإسلامية، لأن الاعتزاز بالعرض، والتمسك بتقـاليد العفـة والشرف، والـذود عن كرامة المرأة، تلك هي من سمات مجتمعاتنا الإسـلامية، «فكم من امـرأة غِـرَّةٍ وقعت في حبائـل شياطين الإنس؟ وكم أوقـد هؤلاء ناراً للفتنـة، وأشعلوا الحروب بين القبائـل والجماعـات؟ وكم من عشيرة قـامت تدافـع عن عرضهـا وشرفها فثارت بينها وبين عشيرة الزاني نزاعات دمـوية، وخصـومات اجتمـاعية قـد تستغرق سنـوات وسنوات؟ وكم من رجـال أصيبـوا في أعـراضهم ففقـدوا المكانة الاجتماعية بين الناس في البيئة التي يعيشون فيها؟».

كل هذا بسبب شيوع الزنا وانتشارها.

جـ ـ الأضرار الخلقية:

ومن صور الأضرار الخلقية لانتشار جـريمة الـزنا صـورة فقدان الحيـاء، وذلك عن طريق التبرج السافر الذي تظهر بـه النساء، والعـرى الفاضـح الذي أصبح أمراً مألوفاً في المجتمعات البشرية، ففقدت المرأة بذلك أنوثتها، وفقـد الرجل كذلك الغيرة على امرأته وبناته وأخواته.

ومن صور الأضرار الخلقيـة كذلـك شيوع المثيـرات الجنسية في داخـل البيوت فالشاب والشابة يتعلمان وعلى مرأى من أبويه كيف يغازلان ويـوجـدان العلاقات والاتصالات المحرمة دون أن يجد الجميـع أية غضـاضة في ذلـك، لأن مـا يعرض في الفيـديو وسـواه من الأجهزة أصبـح شيئاً مـألوفـاً في داخـل المجتمعات البشرية.

ومن صـور تلك الأضرار الخلقيـة انتشار وسـائل الـزنى، فدور للبغـاء، وحانات للخمور، ومسارح للفاسقات الغانيات، ومـلاه للراقصات الخليعـات، ونواد للعراة، وبيـوتات أزيـاء، ومجلات دعارة وفسـاد. . . وكلها أدوات تهـدم الأخلاق في المجتمعات، وتـدعو إلى شيوع الرذيلة والفاحشة.

والـذي يدعـو إلى الأسى والحسـرة أن كثيـراً من هـذه الصـور الخلقيـة الاجتمـاعية الفـاسدة قـد ظهر في العـالم الإسلامي حتى أصبح سفور المـرأة مدنية، ومخالطتها للرجـال تقدميـة، ووقوفهـا على خشبة المـلاهي والمراقص تعرض عرضها وشرفها بثمن بخس انفتاحاً وحَضَارة، وبالمقابل فإن ستر المرأة المسلمة مفاتن جسدها أصبح انغلاقاً ورجعية، ورفضها أن تكون سلعة مبتذلـة يتسلى بها الذئاب البشرية أصبح تعصباً وتحجراً.

ألا يدعو هذا الذي نراه في كثير من المجتمعـات الإسلاميـة إلى الأسى والحسرة؟.

وكم نحن بـأمس الحاجـة أن نعود إلى منهـج الإيمان لنحفظ مجتمعـاتنا من ظـاهـرة انتشـار الأولاد غيـر الشـرعيين، وتشيـع بين المؤمنين في مجتمـع الإيمان المودة والمحبـة والإخاء، ونقى ذلـك المجتمع الإيمـاني من المثيرات الجنسية، ودور الفساد التي تساعد على انتشار الرذيلة؟.

* * *

٣ ـ عقوبة جريمة الزنى:

ولما كانت كبيرة الزنا من الكبائر التي تفسد المجتمعـات البشريـة خلقياً وصحياً واجتماعياً فرض الله عزّ وجلّ عقـوبة قـاسية على الـزناة والـزانيات من أجـل المحافـظة على أعراض النـاس، وبقاء المجتمـع طاهـراً في سلوكيـاتـه وأخلاقه، ونستطيع أن نميز بين نوعين من العقوبات، فأما الأولى فهي العقـوبة الدنيوية العاجلة، وأما العقوبة الثانية فهي العقوبة الأخروية الآجلة.

أ ـ العقوبة الدنيوية:

الـزاني إن كان محصنـاً فإنـه يرجم بـالحجـارة حتى يمـوت، كمـا رجم رسول الله ﷺ ماعـز بن مالـك الأسلمي، ورجم الغامـدية، ورجم اليهـوديين، ورجم غير هؤلاء، ورجم المسلمون بعد[1].

---

(١) السياسة الشرعية ـ ابن تيمية ص ١٠٢.

روى مسلم عن عمـران بن حصين أن امـرأة من جهينـة وهي المـرأة الغـامديـة أتت رسول الله وهي حبلى من الـزنى، فقالت: يـا نبي الله: أصبت حداً فأقمهُ عليّ، فدعـا رسول الله ﷺ وليهـا فقال: أحسن إليهـا، فإذا وضعت فائتني بها، ففعـل، فأمـر بها فشكت[1] عليهـا ثيابهـا، ثم أمر بهـا فرجمت ثم صلى عليهـا، فقال عمـر: أتصلي عليها يـا رسول الله وقـد زنت؟ فقال: لقـد تـابت توبـة لو قسمت بين سبعين من أهـل المدينـة لـوسعتهم، وهـل وجـدت أفضل من أن جادت بنفسها لله؟»[2].

وروى مسلم وأبـو داود عن جابـر بن سمرة قـال: رأيت ماعـز بن مالـك حين جيء بـه إلى النبي ﷺ فشهـد على نفسـه أربـع مـرات أنـه زنى، فقـال رسول الله ﷺ: «فلعلك قال: لا والله إنه قد زنى فرجمه»[3].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وإن كان الـزاني غير محصن فـإنه يجلد مـائة جلدة بكتاب الله، ويغرب عاماً بسنّة رسول الله ﷺ[4].

روى الجماعة عن أبي هريرة وزيد بن خالد قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يـا رسول الله أنشـدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، وقال الخصم الآخر وهو أفقه منه: نعم، فاقضِ بيننـا بكتاب الله، وائـذن لي، فقـال رسول الله ﷺ: «قـل، قـال: إن ابني كـان عسيفـاً[5] على هـذا، فـزنى بامـرأته، وإني أخبرت أن على ابني الـرجم فافتـديت منه بمـائة شـاة وليـدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة، وتغـريب عام، وأن على امـرأة هذا الـرجم، فقال رسـول الله ﷺ: والـذي نفسي بيـده لأقضين بينكمـا بكتاب الله، الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مـائة وتغـريب عام، واغـد يا

---

(١) شدت.

(٢) سبل السلام جـ ٤/ ١١.

(٣) نيل الأوطار جـ ٧/ ٢٦٠.

(٤) السياسة الشرعية ص ١٠٢.

(٥) العسيف: الأجير.

أنيس[1] لرجل من أسلم إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها، قال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»[2].

قال ابن المنذر: «أقسم رسول الله ﷺ في قصة العسيف أنه يقضي بكتاب الله، ثم قال: إن عليه جلد مائة وتغريب عام، وهو المبين لكتاب الله تعالى، وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك على رؤوس المنابر، وعمل به الخلفاء الراشدون، ولم ينكره أحد فكان إجماعاً[3]».

ب ـ العقوبة الأخروية:

وعقوبة الزناة والزانيات في جهنم عقوبة شديدة قاسية، وإليك صوراً منها: ففي الحديث المتفق عليه[4] عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ سئل أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك؟، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاماً، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[5]، والأثام كما قال عكرمة أودية في جهنم يعذب فيها الزناة[6].

ومما أعدهُ الله تعالى للزناة والزانيات في الآخرة ما ذكره البخاري رضي الله عنه عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ فيقص عليه من شاء الله أن يقص،

---

(١) اسم لأحد الصحابة.

(٢) انظر الحديث في نيل الأوطار، كتاب الحدود، جـ ٧/٢٤٩.

(٣) نيل الأوطار جـ ٧/٢٥٢.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٦٣٩.

(٥) الفرقان ٦٨ ـ ٧٠.

(٦) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٦٣٩ ـ ٦٤٠.

وأنه قال لنا ذات غداة[1]: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما. . فأتَيْنا على مثل التنور، فإذا فيه لَغَطٌ وأصوات، فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضأً، قلت: ما هؤلاء؟. . . قالا: أما الرجال والنساء والعراة الذين هم في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني. . . »[2].

* * *

٤ ـ جريمة الشذوذ الجنسي:

ومما يلحق بالزنا الشذوذ الجنسي (وهو إتيان الرجال دون النساء)، وهو كبيرة من الكبائر، وفاحشة من الفواحش التي حرمها الإسلام، وأوجب عليها عقوبة شديدة، قال تعالى: ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾[3]، ومرتكبوا هذه الفاحشة ظلمة، قال تعالى: ﴿ فلما جاءه أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾[4]، ووصف فاعليها في موضع آخر بأنهم فسقه، ﴿ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾[5]، ووصفهم كذلك بأنهم مسرفون ومجرمون ﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾[6]، ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطراً، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾[7].

---

(١) أي صبح يوم.
(٢) رياض الصالحين ـ باب الكذب ـ ص ٤٣٩ ـ ٤٤١.
(٣) الأعراف ٨٠.
(٤) هود ٨٢ ـ ٨٣.
(٥) العنكبوت ٣٣.
(٦) الأعراف ٨١.
(٧) الأعراف ٨٠ ـ ٨١.

فانظر كيف أن القرآن الكريم جعل العمل الفاسد فاحشة، ووصف أصحابها بأربع صفات بالفسق، والظلم، والإسراف، والإجرام.

ورو الطبراني أن رسول الله ﷺ قال:

«ملعون من عمل عمل قوم لوط»[١]، وهذه الجريمة الخلقية الجنسية قد شاعت في كثير من المجتمعات البشرية في هذا العصر الذي نعيش فيه، ووصل الانحراف في بعضها إلى أن تصدر بعض الحكومات الغربية قانوناً يبيح فيه ممارسة هذه الفاحشة كما فعلت بريطانيا[٢] وسواها من البلاد التي تدعى أنها صاحبة المدنية والحضارة في القرن العشرين.

وتشير الدراسات أنه بلغ عدد الشاذين جنسياً أكثر من ١٥ مليون في الولايات المتحدة الأمريكية[٣] وأنشأت فيها جمعيات ومؤسسات ترعى شؤون هؤلاء الظالمين المفسدين، منها جمعية (مخاللة الرجال للصبيان) ولها فروع في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن لها مجموعة من المحامين للدفاع عن أعضائها عندما يقفون أمام القضاة بتهمة الاعتداء على الأطفال، كما أن لها صندوقاً مالياً لإعانة من يسجن من أعضائها[٤].

وتقول إحدى المجلات الأمريكية إن هناك مليون حالة من الاعتداء على الأطفال جنسياً في كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يكتفي المجرمون في هذه الحالات بالاعتداء الجنسي على هؤلاء الأطفال، بل يقومون بتصويرهم في أوضاع شائنة[٥].

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/٢٨٦ ـ ٢٨٧، قال المنذري: ورجال الحديث رجال الصحيح إلا محرز بن هارون التميمي وقد حسن له الترمذي.

(٢) الفقهُ على المذاهب الأربعة ٥/١٤٠.

(٣) مجلة المجتمع عدد ٢٢ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ ص ٤٠ مقالة كتبها د. محمد علي البار.

(٤) المرجع السابق ص ٤٠.

(٥) المرجع السابق ص ٤١.

ومن أغرب الأنباء أن مجلة (اللوطية) التي تصدر في بريطانيا نشرت هجوماً شديداً على الدين المسيحي لأنه يحرم هذه الفاحشة، فرد عليها أحد كبار رجال الدين في بريطانيا قائلاً:

إن الكنيسة الانجليكانية عما قريب ستعترف بالشذوذ الجنسي، وإنه شخصياً يعتبر الشاذ جنسياً إنساناً عادياً، وأنه لا يمانع إذا أراد مثل ذلك الشخص أن يصبح قسيساً[1].

وقد تحدث علماءنا من السلف الصالح عن أضرار هذه الفاحشة، قال الرازي في تفسيره:

«موجبات القبح في هذا العمل كثيرة:

١ ـ الذكورة مظنة الفعل، والأنوثة مظنة الانفعال، فإذا صار الذكر منفعلاً والأنثى فاعلاً، كان ذلك على خلاف مقتضى الطبيعة، وعلى عكس الحكمة الإلهية.

٢ ـ قضاء الشهوة من المرأة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة، وهو حصول الولد، وإبقاء النوع الإنساني.. فأما قضاء الشهوة من الذكر فإنه لا يفيد إلا مجرد قضاء الشهوة فكان ذلك تشبهاً بالبهائم، وخروجاً عن الغريزة الإنسانية.

٣ ـ إنه محل يوجب استحكام العداوة بين الفاعل والمفعول... أما حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة وحصول المصالح الكثيرة»[2].

أما الأضرار الصحية الناتجة عن هذه الفاحشة فقد أشرت إلى مرض الإيدز لدى حديثي عن حكمة تحريم الإسلام للزنا، وأضيف هنا ما قاله

---

(١) مجلة المجتمع عدد ٨ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ ص ٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب ١٤/١٦٩ ـ ١٧٠.

الدكتور: سلامة السقا:

«تتميز فئة المصابين بهذا الانحراف بالرقاعة والخلاعة، وقلة الحياء، ومظاهر الخنوثة، وترتفع بينهم نسبة إدمان الخمر، وعقارات الهلوسة والمخدرات، كما ترتفع بينهم نسبة الانتحار، ويشكلون جزءً كبيراً من المصابين بالأمراض النفسية من اكتئاب وقلق وغيرها، وتنتشر بينهم الأمراض الجنسية من زهري وسيلان وتقرحات وأورام، وأمراض الكبد الوبائي الفيروسي تنتشر بين تلك الفئة بشكل ملحوظ، وينتهي في كثير من الحالات بتليف الكبد أو السرطان»[١]، وهذا هو عقابهم في الدنيا ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾.

أما عقوبة مرتكب هذه الفاحشة فإني أنقل قول ابن تيمية[٢] رحمه الله في ذلك: «أما اللواط فمن العلماء من يقول: حده كحد الزنا، والصحيح الذي اتفقت عليه الصحابة أنه يقتل الإثنان الأعلى والأسفل، سواء كانا محصنين أو غير محصنين، فإن أهل السنن رووا عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قوله: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[٣]).

* * *

٥ - سبل الوقاية من جريمة الزنى:

بعد أن عرفنا الأضرار الخطيرة الناتجة عن شيوع الفاحشة في المجتمعات البشرية، فما هي سبل وقاية الأفراد والمجتمعات من تلك المخاطر والمفاسد؟.

---

(١) مجلة منار الإسلام عدد محرم ١٤٠٥ هـ ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٣٤/٢٨ - ٣٣٥ وانظر جـ/ ١٨١/٣٤ - ١٨٢ وجـ ٤٣/١١، وجـ ١٥/ ٤٣١ وانظر كتاب السياسة الشرعية ص ١٠٣.

(٣) انظر الحديث في سبل السلام.

وأستطيع أن أحصر هذه السبل فيما يأتي:

١ ـ الحكم بما أنزل الله وذلك بإقامة حد الزنى على المحصن بالرجم، وغير المحصن بالجلد كما قال تعالى: ﴿ سورة أنزلناها وفرضناها.. الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾[1]، ولولا أن في إقامة هذا الحد حفظاً للمجتمع وصيانة له من المفاسد والأضرار لما أوجبهُ الله تعالى وجعله فريضة.

٢ ـ تطهير المجتمع الإسلامي من كل وسيلة تثير العريزة الجنسية، وتدفع الأفراد إلى الوقوع في هذه الفاحشة، فالملاهي التي يشيع فيها الفساد، وحوانيت الخمر التي يلتقي فيها السكارى والمنحرفون، ودور السينما التي تعرض الأفلام الماجنة الساقطة، وصالات المسارح التي تزين الفاحشة، وأفلام الفيديو التي تثير الغريزة الجنسية عن طريق الأفلام المبتذلة الفاسدة، والمجلات التي تنشر صور النساء العاريات.. كل هذه وسائل تدفع الشباب والرجال إلى الوقوع في الفاحشة، ومن هنا فإني أرى أن خير وسيلة بعد الأخذ بإقامة حكم الله وشرعه في الزناة هو تطهير المجتمع الإسلامي من هذه الأدوات التي تدخل في قوله تعالى: ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴾[2].

لأنها أدوات لإشاعة الفاحشة في المجتمعات البشرية.

٣ ـ ومن سبل الوقاية من الوقوع في هذه الفاحشة منع المرأة المسلمة أن تخرج من بيتها سافرة متبرجة، تعرض مفاتن جسدها، (فأعز ما تملكه المرأة الشرف والحياء والعفاف والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على إنسانية المرأة في أسمى صورها، وليس من صالح المرأة ولا من صالح المجتمع أن تتخلى المرأة عن الصيانة والاحتشام، ومن أجل هذا عنى

---

(١) النور ١ ـ ٢.

(٢) ١٩.

الإسلام عناية خاصة بملابس المرأة)[1].

قال تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾[2].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[3].

ومما يؤسف له أن تجد في المجتمعات الإسلامية أزواجاً يسمحون لنسائهم، وآباء يأذنون لبناتهم أن يتبرجن ويخرجن غير محتشمات، يُثِرْنَ الفتنة، ويساعدن على شيوع الفاحشة، كل هذا باسم الحرية والمدنية والتقدمية.

٤ ـ ومن هذه الوسائل الوقائية منع الاختلاط بين الرجال والنساء، لأن الاختلاط بين الجنسين هو الخطوة الأولى لشيوع التهتك والمجون، والخلاعة والفساد وإذا كان الإسلام يحرم على الرجل أن يخالط المرأة التي يتصل معها بصلة، رحم وقرابة، فمن باب أولى أن يحرم على الرجال أن يخالطوا النساء عامة.

ومن صور منع الاختلاط تحريمه الخلوة بالنساء، لأن الشيطان يرخي للرجل والمرأة إذا خلا بعضهما ببعض عنان الغواية، ويزين لهما الفاحشة، وقد جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) فقه السنّة ٦/١٦٣.

(٢) الأحزاب ٥٩.

(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣/٩٥.

«لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم»[1]. وحوادث هتك الأعراض إنما مرجعها إلى الاختلاط والخلوة.

٥ - أما فيما يتصل بفاحشة الشذوذ الجنسي، فمن سبل وقاية الأفراد والمجتمعات من الوقوع فيها، إقامة الحد على المفسدين الظلمة الذين يعتدون على الأطفال، أو يمارسون هذه العادة السيئة، ثم بالامتناع عن صحبة الصبيان المرد، قال ابن تيمية رحمه الله:

«لو كانت صحبة المرد خالية من الفعل الحرام فهي مظنة لذلك... قال سفيان الثوري وبشر الحازمي: «إن مع المرأة شيطاناً، ومع الحدث شيطانين»[2].

وجاء رجل إلى مجلس الإمام أحمد بن حنبل ومعه صبي حسن الوجه، جميل الصورة، فقال له الإمام: من هذا منك؟ قال: ابن أختي: قال له: لا تجيء به هنا مرة ثانية ولا تمشي معه في الطريق لئلا يظن بك من لا يعرفك ويعرفه[3].

فباتباع المنهج الإيماني يتطهر المجتمع من كل وسيلة تثير الغريزة الجنسية، فلا مكان في مجتمعات الإيمان للملاهي، وحوانيت الخمور، ودور السينما، وصالات المسارح، وأفلام الفيديو، وصور النساء العاريات، وفي مجتمع الإيمان كذلك لا مكان لسفور المرأة وتبرجها، أو الاختلاط بينها وبين الرجال.

ومجتمعاتنا الإسلامية ومعها المجتمعات البشرية إذا ما أرادت وقاية نفسها من شر الأمراض الصحية والاجتماعية والخلقية فلا بد من اتباع منهج الإيمان الذي جاء به رسول الله ﷺ.

* * *

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/٣٨ - ٣٩.

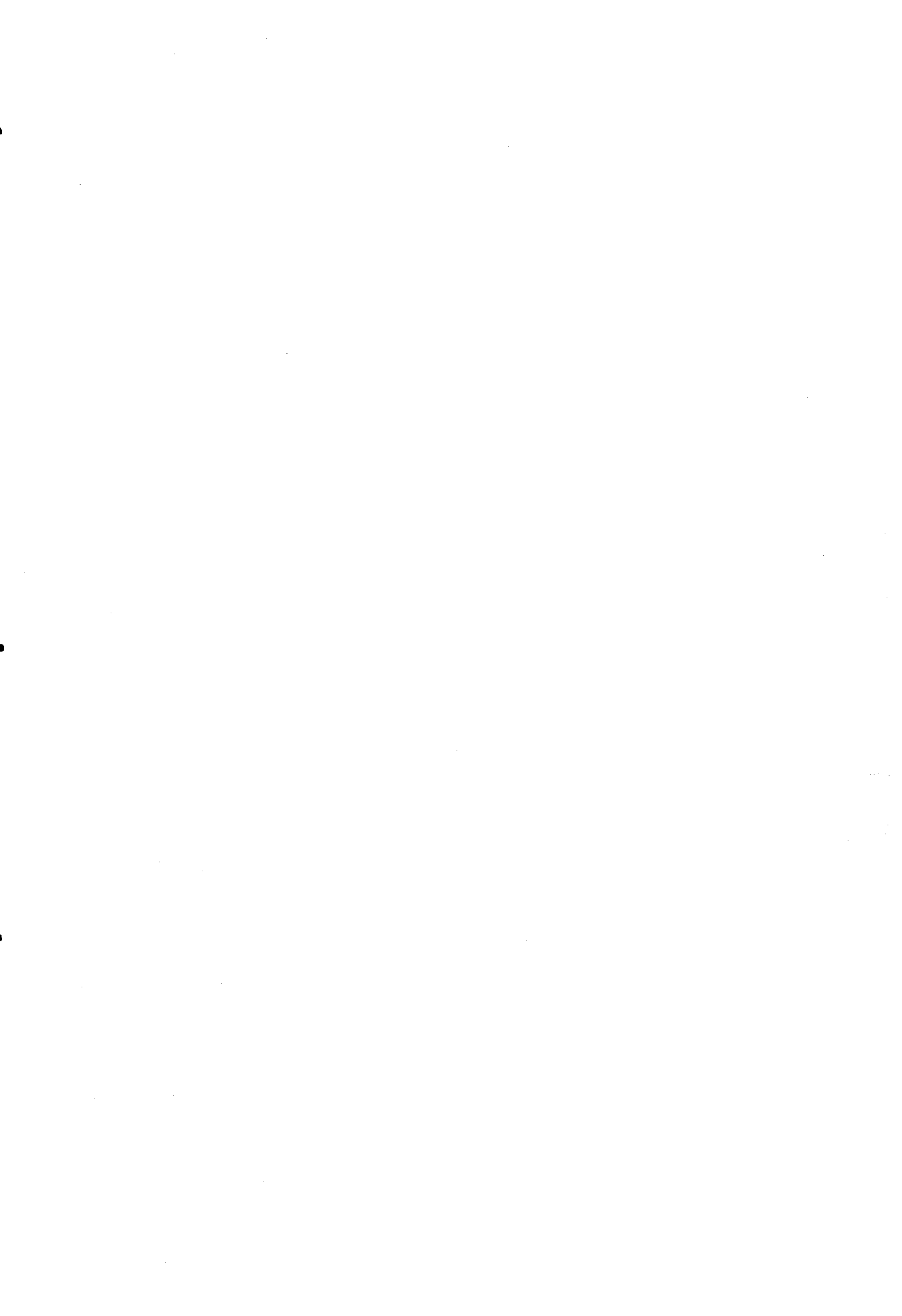
(٢) مجموع الفتاوى ١١/٥٤٥.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة ٥/١٤٤.

المبحث الثالث

الإيمان والوقاية من الخمور والمخدرات

- تعريف الخمر.
- منهج الإيمان في تحريم الخمر.
- كل مسكر خمر.
- تعاطي الخمور والمخدرات مشكلة عالمية خطيرة
- لماذا حرم الإسلام الخمر؟.
- سبل الوقاية من تعاطي الخمور والمخدرات.



المبحث الثالث
الإيمان والوقاية من الخمور والمخدرات

١ ـ تعريف الخمر لغة وشرعاً:

إن اسم الخمر في لغة العرب مأخوذٌ من أنها تخامر العقل فتحجبه وتستره عما حوله، ولهذا سمي حجاب المرأة بالخمار، لأنه يستر الوجه، أو لأن الخمر تخالط العقل فيختلط عليه الأمر[١].

والخمر شرعاً هي كل مسكر سواء كان متخذاً من العنب أم التمر أم من غيرهما. وتعريفها من الناحية الطبية: هي تلك السوائل المعروفة المعدة بطريق تخمر بعض الحبوب أو الفواكه، وتحول النشاء أو السكر الذي تحتويه إلى غول بواسطة كائنات حية لها قدرة على إفراز مواد خاصة يعد وجودها ضرورياً في عملية التخمر»[٣].

٢ ـ المنهج الإيماني في تحريم الخمر:

لقد كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع العربي الجاهلي الأصيلة، وكانت عادة شربها متأصلة في النفوس في جزيرة العرب، وهي مظهر من مظاهر التفاخر والكبرياء، وكان شاعرهم يقول:

---

(١) انظر لسان العرب، والصحاح، وتهذيب اللغة مادة (خمر).

(٢) الكحول.

(٣) فقه السنّة جـ ٤٣/٩.

فلولا ثـلاث هن من عيشة الفتى   وجـدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقى العـاذلات بشـربـة   كميت متى ما تعل بـالماء تـزبد
ومـا زال تشرابي الخمـور ولذتي   وبذلي وإنفاقي طـريفي وتالـدي

ولأن الخمر عادة ـ كما أسلفت ـ متأصلة في النفوس فإن القـرآن الكريم تدرج في تحريمه، وقد مر تحريمه بمراحل أربعة:

المرحلة الأولى:

«ففي مكـة المكـرمـة حيث لم يكن لـلإسـلام دولـة وسلطان إلا سلطان القرآن، وردت في القرآن تلميحة سريعةٌ إلى نظرة الإسلام للخمر، تـدرك من ثنايا العبارة، وهي مجرد إشارة، قال تعـالى: ﴿ ومن ثمرات النخيـل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ فوضع السكر وهو الشراب المسكر في مقابل الـرزق الحسن، ملمحاً بهـذا التقـابـل إلى أن السكـر شيء، والـرزق الحسن شيء آخر، وكانت مجرد لمسة، في ضمير المسلم الوليد»[1].

المرحلة الثانية:

«وفي المدينة المنوّرة، حيث قامت للإسلام دولة، وكان لـه سلطان، لم يلجأ إلى تحريم الخمـر بقوة الـدولة، وسيف السلطان، إنمـا كان أولاً سلطان القرآن، وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر، وفي خبرة بالنفس البشرية، بـدأ بآية البقرة ـ رداً على أسئلة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾[2] وكـانت هي الطَّرقَـةُ الأولى ذات الصوت المسموع في الحسّ الإسلامي، وفي الضمير الإسلامي»[3].

والمـراد بقولـه تعالى: ﴿ ومنـافع للنـاس ﴾، ربح التجـارة، فقـد كـان

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٦٥.
(٢) البقرة ٢١٩.
(٣) في ظلال القرآن ٢/٦٦٥ ـ ٦٦٦.

العرب يجلبون الخمر من الشام برخص فيبيعونها في الحجاز بربح[1].

المرحلة الثالثة:

روى الترمذي عن علي بن أبي طالب[2]: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً قال: فقرأ: ﴿ قل يا أيها الكافرون، ما أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون ﴾ فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[3].

ووظيفة هذه المرحلة هي قطع عادة الشراب، وذلك بحظره قرب أوقات الصلاة وأوقات الصلاة موزعة على النهار، وبينهما فترات لا تكفي للشراب ثم الإفاقة من السكر الغليظ حتى يعلموا ما يقولون... وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب»[4].

المرحلة الرابعة:

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية في البقرة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾، فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة نادى: لا يقربن الصلاة سكران، فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/٥٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٣) النساء ٤٣.

(٤) الظلال جـ ٢/٦٦٦.

رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[1]، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قال: انتهينا، انتهينا[2].

ولما نزلت آيات التحريم هذه لم يحتج الأمر إلى أكثر من منادٍ ينادي في نوادي المدينة: ألا أيها القوم إن الخمر قد حرمت، فمن كان في يده كأس حطمها، ومن كان في فمه جرعة مجها، وشقت زقاق الخمر، وكسرت قنانيه، وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر[3].

والحكمة من التدرج في تحريم الخمر كما يقول صاحب الظلال رحمه الله:

«إنه عندما يتعلق الأمر والنهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني، أي مسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللحظة الأولى، ولكن عندما يكون الأمر والنهي بعادة وتقليد، فإن الإسلام يتريث به، ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج، فعندما كانت المسألة مسألة توحيد وشرك أمضى أمره منذ اللحظة الأولى في ضربة حازمة جازمة لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجاملة فيها ولا مساومة، فأما في الخمر فقد كان الأمر أمر عادة وإلف فبدأ بالتدرج»[4].

والأحاديث الواردة في السنّة النبوية في تحريم الخمر كثيرة، أذكر منها ما رواه أبو داود وابن ماجة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الخمر وشاربها، وساقيها، ومبتاعها، وبائعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه»[5].

---

(١) المائدة ٩٠

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٤٥.

(٣) في ظلال القرآن ٢/٩٧٥.

(٤) في ظلال القرآن ١/٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٥) الترغيب والترهيب ٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠

ويدخل في هذا الحديث كل من ساعد على نشر هذه العادة الاجتماعية الخبيثة بين الناس، سواء كان ذلك بإصدار القوانين التي تبيح فتح حوانيت الخمر، أو بتسهيل استيرادها وإدخالها إلى البلاد الإسلامية.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يشربها في الآخرة».

قال الخطابي ثم البغويُّ في شرح السنّة: «وفي قوله: (حرمها في الآخرة) وعيد بأنه لا يدخل الجنة لأن شراب أهل الجنة خمر إلا أنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون، ومن دخل الجنة لا يحرم شرابها»[1].

وهدد رسول الله ﷺ شارب الخمر بأن الإيمان ينتفي عنه ما دام مصراً على شربها فقال ﷺ في الحديث المتفق عليه:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[2].

* * *

٣ ـ كل مسكر خمر:

روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

«كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام»، وهذا الحديث دال على أن كل شراب مسكر يسمى خمراً، وهو عام لكل ما كان من عصير أو نبيذ، وخطأ من زعم أن العرب لا تعرف الخمر إلا من العنب «وهو قول مخالف للغة العرب وللسنّة الصحيحة ولفهم الصحابة، لأنهم لما نزل تحريم الخمر فهموا من الأمر باجتناب الخمر تحريم كل مسكر، ولم يفرقوا بين ما يتخذ من العنب

---

(١) المرجع السابق ٣/٢٥٣.

(٢) المرجع السابق ٣/٢٤٩ ـ وانتفاء الإيمان إنما يكون وقت شربه لها.

وبين ما يتخذ من غيره، بل سووا بينهما، وحرموا ما كان من غير عصير العنب، وهم أهل اللسان وبلغتهم نزل القرآن»[1].

قال ابن تيمية رحمه الله في كتاب (السياسة الشرعية):

«الصواب ما عليه جماهير المسلمين أن كل مسكر خمر يجلد شاربه، فقد أعطى رسول الله ﷺ جومع الكلم فقال: «كل مسكر حرام» متفق عليه، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن الزبيب خمراً، ومن التمر خمراً، ومن العسل خمراً، وأنا أنهي عن كل مسكر» رواه أبو داود وغيره، وروى أهل السنن عن رسول الله ﷺ من وجوه أنه قال:

«ما أسكر كثيره فقليله حرام»، وصححه الحافظ. . . والأحاديث في هذا الباب كثيرة مستفيضة جمع رسول الله ﷺ بما أوتيه من جوامع الكلم كل ما غطى العقل وأسكر، ولم يفرق بين نوع ونوع. . . »[2].

وعلى ضوء ما ذكره ابن تيمية رحمه الله وغيره من علماء السلف الصالح فإن جميع أنواع الخمور والمخدرات والمفترات محرمة مهما اختلفت أشكالها وأسماؤها وأنواعها، فمن أنواع الخمور المحرمة مثلاً (البراندي، والوسكي لأن نسبة الكحول فيهما من ٤٠٪ إلى ٦٠٪، كذلك فإن أنواع الخمور الخفيفة مثل الكلارت، والهوك، والشمبانيا، محرمة لأنها تحتوي على ١٠٪ إلى ١٥٪ من الكحول، وكذلك البيرة بأنواعها فإنها محرمة لأنها تحتوي على نسبة ٢٪ إلى ٩٪ من الكحول[3].

كذلك فإن المخدرات بأنواعها كالأفيون، والحشيش سواء كانت جامدة أم سائلة وأخذت عن طريق الحقن أو على شكل حبوب، فإنها جميعاً محرمة،

---

(١) سبل السلام جـ ٤/٢٩.

(٢) السياسة الشرعية ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) أنظر فقه السنّة جـ ٩/٥٥/٥٦ ـ دار البيان.

فالحشيشة مثلاً قال عنها ابن تيمية:

«هي حرام، يجلد صاحبها كما يجلد شارب الخمر، وهي أخبث من الخمر، من جهة أنها تفسد العقل والمزاج حتى يصير في الرجل تخنث ودياثة وغير ذلك من الفساد... وآكلوها كشُراب الخمر أو أكثر لأنهم ينشون عنها، ويشتهونها، وتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة إذا أكثروا منها.. والحشيشة قد تذاب في الماء وتشرب، فكل خمر يشرب ويؤكل والحشيشة تؤكل وتشرب، وكل ذلك حرام، وإنما لم يتكلم المتقدمون في خصوصها لأنه إنما حدث أكلها من قريب في أواخر المائة السادسة، أو قريباً من ذلك، كما أنه قد أحدثت أشربة مسكرة بعد رسول الله ﷺ، وكلها داخلة في الكلم الجوامع من الكتاب والسنّة»(١).

وقال ابن قيم الجوزية:

«إن الخمر يدخل فيها كل مسكر مائعاً كان أو جامداً، عصيراً أو مطبوخاً، فيدخل فيها لقمة الفسق والفجور ـ أي الحشيشة ـ لأن هذا كله خمر بنص رسول الله ﷺ الذي لا مطعن في سنده ولا إجمال في متنه، إذ صح عنه قوله:

«كل مسكر خمر»

وصح عن أصحابه رضي الله عنهم الذين هم أعلم الأمة بخطابه ومراده بأن الخمر ما خامر العقل.

على أنه لو لم يتناول لفظه ﷺ كل مسكر، لكان القياس الصحيح الصريح الذي استوى فيه الأصل والفرع من كل وجهه حاكماً بالتسوية بين أنواع المسكر»(٢).

والذين يبيحون بعض أنواع الخمور والمخدرات بدعوى أنه لم يرد نص

---

(١) السياسة الشرعية، أنظر من ص ١٠٨ إلى ص ١١١.

(٢) فقه السنّة جـ ٩/٦٦.

شرعي في الكتاب والسنّة يصدق فيهم قوله ﷺ فيما أخرجه البيهقي أنه عليه الصلاة والسلام قال:

«ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها على رؤوسهم المعازف»(١).

* * *

٤ ـ تعاطي الخمور والمخدرات مشكلة عالمية خطيرة:

إن تعاطي الخمور والمخدرات في القرن العشرين أصبح مشكلة عالمية خطيرة تهدد المجتمعات البشرية، وذلك من خلال النظر إلى عدد الذين يتناولون الأشربة الكحولية ونسبتها، فالفرد في ألمانيا يستهلك ١٤٨ لتراً من الكحول المطلق سنوياً، بينما نجده في انجلترا يستهلك ١١٠ لتراً، وفي فرنسا ١٥٢ لتراً، وفي إيطاليا ١٢٥ لتراً، وفي الولايات المتحدة ٨١ لتراً»(٢)، وهي نسبة عالية جداً مما دفع الأطباء والباحثين إلى أن يولوا هذه المشكلة مزيداً من العناية والاهتمام.

وفي الولايات المتحدة هناك ما يقارب من مائة مليون شخص يشربون الخمر، منهم عشرة ملايين مدمن، وفي بريطانيا يشرب الخمر ما لا يقل عن عشرة ملايين شخص منهم مليون مدمن، ونفس النسبة وربما أكثر موجودة في فرنسا وإيطاليا(٣).

وقد نشر مؤخراً تقرير(٤) مخيف عن طلاب المدارس البريطانية، فنظار المدارس في بريطانيا يدقون ناقوس الخطر محذرين الآباء وأولياء الأمور من

---

(١) سبل السلام ٤/٣٤.

(٢) الخمر بين الطب والفقه ص ٨٥.

(٣) المرجع السابق ص ٨٥.

(٤) جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٦٢٢ تاريخ السبت ٢٢ جمادي الأولى ١٤٠٦ هـ الصفحة الأخيرة.

الحقيقة المرة، تعاطي الخمور والمخدرات بين الصبية بلغ حد الأزمة، بل إن شم الأصماغ الصناعية بدأ يستشري بين أطفال المدارس الابتدائية.

ويشير التقرير إلى مصدر الخطر الأول ويصفه بأنه منتديات تجمع المراهقين، ففي هذه التجمعات يقع الصغار ضحايا لاحتساء الخمر الذي يتعاطونه حتى فقدان الوعي، والأشد مرارة من ذلك أن أكثر من نصف عدد الصبية في فئة العمر (١١ ـ ١٦) سنة باتوا يعتبرون تعاطي الخمور أمراً مقبولاً، وكثيرون منهم قد انتقلوا إلى المرحلة التالية أي تعاطي المخدرات.

وفي اسكتلندا نجد أن ٩٢ بالمائة من الأولاد و ٨٥ بالمائة من البنات قد جربوا شرب الخمور قبل سن الرابعة عشرة... ونجد نسبة هائلة من البالغين ما بين (١٧ إلى ٣٠ عاماً) يشربون الخمر بانتظام[١].

هذه الإحصائيات والتقريرات تدل على أن تعاطي الخمور والمخدرات أصبح مشكلة خطيرة تهدد المجتمعات الغربية.

والمجتمعات العربية والإسلامية مستهدفة كذلك بهذا الوباء الخطير، بل إن بعض الدلائل تشير إلى أن جهات معينة تقف وراء تصدير هذه السموم وتهريبها إلى المجتمعات المسلمة بهدف تخريب عقول شبابها، وتمييع أخلاقهم وتركهم نهباً للأمراض الجسدية والنفسية.

ففي منطقة الخليج العربي يذكر تقرير تقدمت به وزارة الداخلية الكويتية للمشاركين في ندوة مكافحة المخدرات والمسكرات التي عقدت في الكويت عام ١٤٠٥ هـ أن المنطقة تقع في منطقة جغرافية تحيط بها (المافيا الدولية) والتي تستهدف من عمليات التهريب المكثفة تحقيق الأرباح الخيالية إلى جانب التأثير على شباب المنطقة[٢].

---

(١) الخمر بين الطب والفقه ص ٨٥.

(٢) أنظر جريدة المسلمون ص ١٥ عدد (٤٢) تاريخ ١١ ـ ١٧ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ.

وإليك هذه الإحصائيات عن بعض المجتمعات الإسلامية التي أصبحت المخدرات والخمور فيها مشكلة اجتماعية خطيرة:

* أعلن الدكتور علي لطفي رئيس وزراء مصر أن حكومته ستستخدم قانون الطوارىء للتعامل مع تجار المخدرات[1]، وقالت صحيفة الأهرام القاهرية عن مشكلة المسكرات والمخدرات:

«القضية الآن أشبهُ بالقنبلة الزمنية التي لا تعرف متى ستنفجر، وليس من عمل قومي نؤديه إلا أن نحاول في أسرع وقت أن ننزع الفتيل قبل أن يتحول المكان إلى أنقاض وأطلال»[2].

ويقول تقرير نشر في مصر أن عدد مدمني المخدرات وصل عام ١٤٠٦ هـ إلى أكثر من مليون شخص لكي تصبح مصر ثاني دول العالم في عدد مدمني المخدرات خاصة الهيروويين بعد الولايات المتحدة[3].

ويضيف التقرير أيضاً أن ١٤٪ من المدمنين أعمارهم تقل عن ١٦ سنة و ٥٨٪ منهم أعمارهم تقل عن ٢٢ سنة[4].

وتقول ملفات البوليس المصري أن المخدرات قد تسربت إلى كل مكان «البيت والمدرسة والجامعة والنادي والمصنع»[5].

* وفي باكستان قام المسؤولون عن شؤون مكافحة المخدرات بإحراق ما يزيد على ٧,٥ أطنان من المخدرات تقدر قيمتها بأكثر من ١٠٠ مليون دولار.

---

(١) نقلاً عن جريدة الرياض السعودية العدد ٦٣٥٧ تاريخ ٦ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ ص ١٨.
(٢) المرجع السابق.
(٣) نقلاً عن جريدة الرياض السعودية العدد ٦٣٥٧ تاريخ ٦ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ ص ١٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

* وتشعر السلطات الماليزية بالقلق المتزايد من انتشار المخدرات في المجتمع الماليزي، فقد حذر نائب وزير الداخلية في ماليزيا من انتشار المخدرات بين الطلاب في المدارس، ودعا أولياء أمور الطلاب إلى ضرورة مراقبة أولادهم بانتظام وتفتيش حقائبهم بحثاً عن الحبوب المخدرة، وأكد نائب الوزير أن حوالي ٢٠ ألف شاب ماليزي يخضعون الآن للعلاج في مراكز الإصلاح من جراء تعاطي المخدرات والإدمان عليها[١].

ونشرت جريدة المدينة المنوّرة[٢] أن حوالي خمسين ألف عربي يحضرون إلى لندن للعلاج على نفقات الحكومات أو على نفقاتهم الخاصة، ومعظم أمراضهم هي أمراض الكبد، وقال أحد أطباء (هارلي ستريت) لجريدة المدينة:

«إن معظم أمراض الكبد عند المرضى العرب ناتجة من الإكثار من الشراب الكحولي مثل الويسكي..».

هذه التقارير والتصريحات الصادرة من المسؤولين في البلاد العربية والإسلامية تدق ناقوس الخطر، وتلفت الأنظار إلى أن المخدرات والخمور قد شاعت في مجتمعاتنا العربية والإسلامية شيوعاً أصبح معها الإدمان والسكر ظاهرة اجتماعية خطيرة تتطلب موقفاً حازماً لعلاج هذه الظاهرة.

* * *

٥ ـ لماذا حرم الإسلام الخمور والمخدرات؟:

وإذا كان الإسلام قد شدد في تحريم الخمر فإنما يعود سبب هذا التشديد إلى أن أضرار الخمر والمخدرات قد اتفق علماء الدين والاجتماع والطب والاقتصاد والأخلاق عليها، وسأشير هنا إلى صور من هذه الأضرار

---

(١) جريدة المسلمون عدد (٤٢)، ١١ ـ ١٧ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ ص ١٥.

(٢) عدد ١٢/٢/١٤٠٠ هـ.

التي يسببها تعاطي المسكرات والمشروبات:

أ ـ الأضرار الاجتماعية:

ويأتي في مقدمة الأضرار الاجتماعية التي يسببها شرب الخمور والمخدرات إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ﴾[1]، والصحابة رضوان الله عليهم، في مرحلة الإباحة كانوا يعانون من هذه الظاهرة الاجتماعية، ففي صحيح مسلم[2]، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت فِيَّ آيات من القرآن، وفيه قال: وأتيت على نفر من الأنصار فقالوا تعال نطعمك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن تحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حَشٍ ـ أي بستان ـ فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزق من خمر، قال: فأكلت وشربت معهم، فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجل لحيتي جمل فضربني به، وجرح أنفي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فأنزل الله تعالى فيَّ: ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾.

وروى ابن كثير[3] عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فيقول: والله لو كان بي رؤوماً رحيماً ما صنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ إنما الخمر والميسر. . . ﴾.

والذين يحضرون المجالس التي يتعاطى فيها السكارى الخمور والمخدرات يدركون صدق قوله تعالى: ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم

---

(١) المائدة ٩١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٤٧.

العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾، فكم من صلات رحم تقطعت بسبب المشروبات الفاسدة، وكم من وشائج قربى انهدمت بسبب حبوب الهلوسة، وكم من خصومات اجتماعية أثيرت بسبب تعاطي المسكرات والمفسدات، وكم من إخوة لأب واحد أثار الشيطان بينهم العداوة والبغضاء لتعاطيهم الخمور والمخدرات.

أما صد الخمر عن ذكر الله وإقام الصلاة فلا يحتاج إلى نظر، لأنك لا ترى شارباً للخمر ينهض من مجلسه تاركاً كأس الخمر جانباً لأداء فريضة الصلاة، ولا ترى كذلك متعاطياً للحشيش أو الأفيون والهيروين إذا سمع المؤذن ينادي حي على الصلاة حي على الصلاة يلتفت إلى أصحابه قائلاً: دعونا نجيب داعي الصلاة ثم نكمل المشوار.

فالذين ابتلوا بهذه الكبيرة، الاجتماعية معطلون لفريضة الصلاة، ومجالسهم مجالس لا يذكر فيها الله.

وهذا قيس بن عاصم المنقري كان شراباً في الجاهلية ثم حرمها على نفسه، وكان سبب ذلك أنه غمز عُكْنَةَ[1] ابنته وهو سكران، وسب أبويه ورأى القمر فتكلم بشيء وأعطى الخمار كثيراً من ماله، فلما أفاق أخبر بذلك فحرمها على نفسه وقال:

رأيت الخمر صالحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربها صحيحة ... ولا أشفى بها أبداً سقِيما

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ... ولا أدعو لها أبداً نديما

فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

وحقاً فإن شارب الخمر فاضح لنفسه، إذ تراه في مجالسه يهتك أسراره وأسرار بيته وزوجته وعياله، ويأتي بتصرفات مضحكة يسخر منها الأطفال الصغار من حوله، ناهيك عن الحالة التي يكون فيها إذا وصل إلى درجة

---

(١) العكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً.

السكر والثمالة، فحينئذٍ لا يجد أية غضاضة في أن يتبول على ثيابه أمام الحضور، ويتكلم بكلمات نابية فاسدة قد يطعن بها في عرضه وموضع حيائه ومروءته.

والذين يعملون في مناصب حكومية هامة في داخل المجتمع الذي يعيشون فيه لا يتورعون في أن يقدموا الأسرار إلى أعدائهم وهم في مجالس الخمور والمخدرات، لأن من يهتك أسرار نفسه وزوجته وبيته ليس هناك ما يمنعه من أن يهتك أسرار الدولةالتي ينتسب إليها.

ب - الأضرار الصحية:

إن الأضرار الصحية الناتجة عن شرب الخمر والمخدرات ما عادت خافية على أحد من الناس، بل إن الذين يتعاطونها يدركون فداحة الأضرار الصحية الخطيرة التي تصيبهم بسببها، ويأتي في مقدمة هذه الأضرار الصحية تلك التي تصيب العقول، والإسلام بتعاليمه ومبادئه إنما جاء ليحافظ على صحة عقل الإنسان في الحياة، وتأثير الخمر على العقل من حيث تخريبه وإتلافه تأثير واضح لا لبس فيه، وقد أدرك القدماء ذلك فقال شاعرهم:

شربت الخمر حتى ضل عقلي   كذاك الخمر تفعل بالعقول[1]

والمدمنون على الأشربة الفاسدة هم دائماً في غيبوبة عقلية، وهذه الغيبوبة تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم وعقله ليكون موصولاً بالله في كل لحظة، مراقباً لله في كل خطوة، ثم ليكون بهذه اليقظة عاملاً إيجابياً في نماء الحياة وتجددها، وفي صيانتها من الضعف والفساد، وفي حماية نفسه وماله وعرضه، وحماية أمن الجماعة المسلمة وشريعتها ونظامها من كل اعتداء... ثم إن هذه الغيبوبة في حقيقتها إن هي إلا هروب من واقع الحياة، وجنوح إلى التصورات التي تثيرها الخمر والمخدرات، والإسلام ينكر على المسلم هذا الطريق ويريد من الناس أن

---

(١) فقه السنّة جـ ٣٣/٩.

يروا الحقائق، وأن يواجهوها، ويعيشوا فيها، ويصرفوا حياتهم وفقها ولا يقيموا هذه الحياة على تصورات وأوهام[1].

كذلك فإن المخدرات بأنواعها، والخمور بأشكالها المتنوعة تخرب النفس الإنسانية وتترك فيها آثاراً سيئة تهدد حياة أصحابها، وهذا ما أكده الخبراء المتخصصون في دراسة آثار الخمور على النفس، ففي مارس عام ١٩٨١ م اجتمعت لجنة من خبراء الإدمان التابعين لمؤسسة أبحاث الإدمان الكندية ومنظمة الصحة العالمية لدراسة تأثير الحشيش ومشتقاته على صحة الإنسان العقلية والنفسية، وتوصلت إلى نتائج ضمنتها في تقريرها الذي رفعته إلى هيئة الأمم المتحدة والمؤسسات العالمية المعنية بهذا الأمر، وتتلخص تلك النتائج فيما يلي:

«إن الجرعة الكبيرة من الحشيش ومشتقاته تؤدي إلى اختلال في العضلات، وضعف الحركة والذهول والإغماء، وتعطيل كثير من الوظائف الذهنية والعقلية، كما أنها تؤدي إلى تعطيل الذاكرة، وانخفاض الأداء في كثير من الأعمال والوظائف الاستجابية كردود الفعل، والإدراك، والتعلم، والفهم والانتباه، إلى غيرها من العمليات العقلية»[2].

أما التأثير النفسي فقد ذكر الخبراء أن تعاطي الحشيش ومشتقاته يؤدي إلى حالات حادة من الخوف والأفكار الضالة المنحرفة إضافة إلى القلق، والميول العداونية والسلوك الشاذ تجاه المجتمع[3].

وإليك صوراً من تأثير الخمور والمخدرات على صحة العقل والنفس:

جاء في كتاب (الأفيون والحشيش) للدكتور برنارد هيوث[4] ما يأتي:

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٢/٩٧٧ بشيء من التصرف.

(٢) جريدة الرياض عدد ١٥ ذي القعدة ١٤٠٥ هـ ص ٦.

(٣) المرجع السابق ص ٦.

(٤) المجلة الطبية السعودية ص ٩ عدد.

١ ـ إن طالباً قتل زميلتهُ في بيتها ثم خرج راكضاً وهو يصرخ. لقد قتلت الوحش، لقد مات التنين، وأخذ يطلق النار على شبح وهمي، ثم ألقى بنفسه إلى النهر فراراً منه.

٢ ـ شاب صغير أنقذ من تحت عجلات القطار، قال: لقد أصبحت شخصين نتحدث إلى بعضنا البعض، وقد قذفني تحت عجلات القطار نصفي الثاني.

والحالة النفسية للذين يتعاطون الكحول بأنواعها تتراوح بين الفرح إلى الهياج دون أي سبب ظاهر، فتراه تارة يقهقه فتظنه سعيداً، ولأتفه كلمة يثور ويخور وفجأة يبكي ويعتذر، وهو سريع الغضب يثور لأتفه سبب، ويحطم كل شيء أمامه، وتتولد لديه الاعتقادات الزائفة، وتزداد حالة الشك والريبة في كل من حوله وخاصة فيما يتعلق بزوجته وأصدقائه»[١].

أما الأضرار الصحية الجسدية التي تسببها الخمور والمخدرات فهي كثيرة ولا يمكن حصرها، بيد أني هنا أشير إلى بعض الأمراض التي تسببها الكحول:

١ ـ تقول الدكتورة شرلوك أشهر أخصائية في أمراض الكبد في العالم:

«لا يوجد أي شك في أن تليف الكبد يصيب مدمني الخمور أكثر من غيرهم»[٢].

٢ ـ تؤدي الكحول إلى زياد الكوليسترول والشحوم في الدم، ومن ثم حدوث تصلب الشرايين، وزيادة خطورة الإصابة بالذبحة الصدرية[٣].

٣ ـ لقد ارتبط السل الرئوي وإدمان الخمور منذ فجر التاريخ بعضهما ببعض،

(١) الخمر بين الطب والفقه ص ١٥١.
(٢) المرجع السابق ص ٢١٤.
(٣) المرجع السابق ص ٢٤٧.

وأثبتت الدراسات في أوروبا وأمريكا وأستراليا أن انتشار السل الرئوي بين شاربي الخمور أعلى بكثير عما هي عليه بين من لا يشربونها[1].

٤ ـ كما يؤدي الإدمان على الخمور والمخدرات إلى شلل في الأطراف يبدأ من اليدين والقدمين ويزحف على الساعدين والساقين حتى يصل إلى الذراعين والفخذين، ويكون فقد الإحساسات أشد من ضمور العضلات فلا يشعر المريض بالحرارة والبرودة، كما أنه لا يستطيع الوقوف أو المشي إلا بصعوبة بالغة[2].

٥ ـ ثبت أن للكحول قدرة على اختراق حاجز المشيمة عند الأم الحامل، ولهذا فإن الأم المدمنة على شرب الخمر تضر بجنينها من حيث لا تحتسب لأنه في الواقع يحتسي الخمر معها عندما تشرب وهي حامل، ولكن ضرر الكحول على الجنين أشد وأفدح لأنه يؤدي إلى تدمير الخلايا وبالتالي إلى ولادة طفل يحمل عيباً في قلبه أو وجهه أو خللاً في المفاصل[3].

هذه هي الأضرار العقلية والنفسية والبدنية للخمور والمخدرات، فهل يبقى بعد هذا من يقول إن فيها منفعة لبدن الإنسان وعقله ونفسه؟ وصدق رسول الله ﷺ حين سأله طارق بن سويد عن الخمر يصفها للدواء فقال:

«إنها ليست بدواء ولكنها داء» رواه مسلم، ودل هذا الحديث على تحريم التداوي بالخمر، بل أثبت أنها داء[4].

جـ ـ الخمور والمخدرات أم الجرائم والخبائث:

والأشربة الكحولية كما يقرر الخبراء هي السبب الأول في انتشار جرائم

---

(١) الخمر بين الطب والفقه ص ٢٧١.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٤.

(٣) انظر مجلة الوعي الإسلامي عدد ربيع الأول ١٤٠٦ هـ ص ٧٥.

(٤) سبل السلام جـ ٤/ ٣٦.

القتل والخطف والعنف والانتحار، ففي تقرير لهيئة الصحة العالمية أن ٨٦٪ بالمائة من جميع جرائم القتل و ٥٠٪ بالمائة من جرائم الاغتصاب والعنف تقع تحت تأثير الخمور[١].

أما بالنسبة لحوادث المرور فإن هيئة الصحة العالمية تقدر أن خمسين بالمائة من جميع حوادث المرور في العالم ناتجة عن شرب الخمور مباشرة[٢].

وينقل الدكتور (برنارد هيوث) في كتابه (الأفيون والحشيش) نماذج من هذه الجرائم التي تكون المخدرات سبباً في وقوعها:

١ ـ شاب دخل إلى منزل تسكنه بعض الممرضات فخنق اثنتين، وطعن الباقيات بمديته، وهو تحت تأثير المخدر.
٢ ـ طالب جامعي صعد إلى برج جامعته وأخذ يطلق النار من بندقيته على زملائه فقتل وجرح عدداً كبيراً[٣].

أما جرائم الاغتصاب فقد يقع الأخ على أخته تحت تأثير الخمر لا سيما إذا وصل إلى درجة السكر والثمالة وفقد معها الوعي، بل قد يقع الوالد على ابنته بما يزين له الشيطان، وهو في هذه الحالة من الغيبوبة العقلية، جاء في كتاب (العلاقات الجنسية غير الشرعية) على لسان أحد الأطباء أن فتاة فقدت والدها بعد وفاته، ثم تزوجت أمها، فبقيت مع أخيها الذي يكبرها بعدة سنوات في دار واحدة، وكان يعمل سائق سيارة، ومدمناً على شرب المخدرات والخمور، فقاده إدمانه هذا إلى أن يقضي ليلته ذات يوم في فراش واحد مع أخته، واستمر الحال لمدة سنة»[٤].

---

(١) الخمر بين الطب والفقه ص ٨٦.
(٢) الخمر بين الطب والفقه ص ٨٦.
(٣) المجلة الطبية السعودية ص ١٠ عدد.
(٤) انظر كتاب العلاقات الجنسية غير الشرعية ـ عبد الملك السعدي ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

أرأيت كيف أن تعاطي الخمر يؤدي إلى الوقوع في هذه الفاحشة المنكرة، وتدفع صاحبها إلى هتك عرض أخته من أمه وأبيه دون أن يجد رادعاً من دين أو خلق أو عرف؟ وأنّىٰ له ذلك وهو منغمس في هذه الزذيلة، رذيلة الإدمان على الكحول؟.

وصدق الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه حين حدث أصحابه ذات يوم فقال:

«اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأةٌ غوية، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأساً فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه»[1].

* * *

٦ - **سبل الوقاية من تعاطي الخمور والمخدرات:**

أما سبل الوقاية من تعاطي الخمور والمخدرات فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١ - تربية الأمة الإسلامية تربية تقوم على أساس الدين، وغرس الإيمان في نفوس أفرادها، وإحياء ضميرها بتعاليم الإسلام الصالحة، والأسوة الحسنة برسول الله ﷺ وأصحابه.

يقول صاحب الظلال رحمه الله:

«لم يبدأ المنهج الإسلامي في معالجة هذه التقاليد الاجتماعية -

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٤٨.

ومنها الخمر - في أول الأمر، لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة، فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع، حَاشَا للمنهج الرباني أن يفْعَلهُ، إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى، عقدة العقيدة، بدأ باجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي جملة من جذوره، وإقامة التصور الإسلامي الصحيح، إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة، بين للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية وهداهم إلى الإله الحق، وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله وما يكرهه، وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا...»[1] فلا بد إذاً أولاً من غرس غراس الإيمان في نفوس الأمة، لأنه إذا فقد الإيمان فلا قيمة حينئذٍ للإحصائيات والأرقام التي تتحدث عن الأضرار الطبية والنفسية والاجتماعية للخمور والمخدرات، فسلطان القوة في اقناع المجتمعات لتخليها عن هذه المفسدات الاجتماعية لن يجدي شيئاً إذا لم يسبقه سلطان الإيمان في النفوس، ولنا عبرة فيما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في بداية هذا القرن، فلقد منعت الحكومة الأمريكية الخمر، واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والصور والمحاضرات لتهجين شربها، وبيان مضارها ومفاسدها[2]، ففي عام ١٩١٩ م صدر قانون يمنع بيع الخمور وشربها، وجندت الحكومة الأمريكية الأسطول كله لمراقبة الشواطىء منعاً للتهريب، وجندت كذلك الطيران لمراقبة الجو[3]، ويقدرون ما أنفقتهُ في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات، وبلغ ما أصدرته من الكتب والنشرات عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن مائتين وخمسين مليون جنيه، وقد

---

(١) في ظلال القرآن ٩٧٣/٢.

(٢) فقه السنّة ٤١/٩.

(٣) الإيمان والحياة ص ٢٢٥.

أعـدم في هـذه المـدة ٣٠٠ نفس، وسجن ٥٣٢,٣٣٥ نفس، وبـلغت الغرامات ستة عشر مليون جنيه، وكل هذا لم يزد الأمة الأمريكية إلا غَـرَاماً بالخمر، وعنـاداً في تعاطيهـا، حتى اضطرت الحكـومة سنـة ١٩٣٣ م إلى إلغاء هذا القانون[١].

فانظر كيف أن أساطيل أمريكا البحرية والجوية، والمحـاضرات ومـا كتب عن أضرار الخمر ومفاسدها وقد بلغ مجمـوع ما كتب عنهـا ١٠ مليار صفحـة، كذلـك مـلايين الـدولارات التي صـرفت. . . كـل هـذه لم يـزد الشعب الأمريكي إلا إصراراً على تعاطي الخمور وشربها.

وآيـة واحدة هي قـوله تعـالى: ﴿ يا أيهـا الـذين آمنـوا إنمـا الخمـر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾.

قد طهرت المجتمع الإسلامي من الخمر تطهيراً.

- ومن سبل وقاية المجتمعات الإسلامية إقامة حـد الخمر، والفقهـاء متفقون على وجوب حد شـارب الخمر، وعلى أن حـده الجلد، ولكنهم مختلفون في مقداره، فذهب الأحناف ومالك إلى أنه ثمانون جلدة، وذهب الشافعي إلى أنـه أربعون، وعن الإمـام أحمـد روايتـان كمـا في المغنى إحـداهمـا ثمانون[٢].

روى مسلم أن علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه جلد الـوليـد بن عقبة أربعين ثم قال:

«جلد رسول الله ﷺ أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمـانين، وكلٌ سنةٌ وهذا أحب إليّ»[٣].

---

(١) انظر الإيمان والحياة ص ٢٢٥، وفقه السنّـة ص ٤١ - ٤٢، والخمر بين الطب والفقه ص ١٠٠ إلى ١٠٣.

(٢) فقه السنّة ٧٨/٩.

(٣) فقه السنّة ٧٩/٩.

وعن أنس قال: أتى عمر بن الخطاب برجل قد شرب الخمر، فاستشار الناس في الحدود، فقال ابن عوف: «أقل الحدود ثمانون فضربه عمر»(١).

وتحمل الزيادة من عمر على أنها تعزير يجوز فعله إذا رآه الإمام(٢).

كذلك يجب إنزال عقوبات قاسية إذا اقتضت المصلحة بمروجي المخدرات في داخل المجتمعات الإسلامية، لأن الاتجار بها أو بيعها محرم شرعاً، فضلاً عما في ذلك من الإعانة على المعصية، وإشاعة الفساد، ونشر الموبقات والمنكرات والله تعالى يقول:

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾.

٣ ـ ومن هذه السبل الوقائية إنشاء جهاز خاص في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية مهمتهُ توعية المسلمين بمضار المسكرات والمخدرات، ووضع الدراسات العلمية الهادفة التي تبين أسباب شيوع هذه الظاهرة ثم تضع الخطط التي تكفل حماية المجتمع المسلم من هذه المسكرات والمخدرات، ومن مهمة هذا الجهاز إنشاء مؤسسات لعلاج حالات التعاطي والإدمان وضرورة أن يتوفر في هذا الجهاز، فريق عمل متكامل من الأطباء المختصين بالأمراض العضوية والنفسية، ومن الاجتماعيين ورجال الأمن الذين لهم خبرة في هذا المجال.

ولا بد هنا من التأكيد أن علاج هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة لا تكمن فقط بإنشاء هذه الأجهزة، وتلك المؤسسات، والاقتصار على الوعظ

---

(١) المرجع السابق ٩/ ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) المرجع السابق ٩/ ٨٠ وقد قامت حكومة المملكة العربية السعودية بإصدار قرار يقضي بإعدام تجار المخدرات ومروجيها بعد أن وافقت هيئة كبار العلماء على ذلك، وليت الحكومات الإسلامية الأخرى تحذو حذوا المملكة في هذا المجال، وذلك بإنزال هذه العقوبة القاسية على المفسدين من التجار والمروجين.

والإرشاد، وبيان الأضرار والمفسدات. . . بل لا بد من نظرة شمولية للمشكلة آخذين بعين الاعتبار كافة الجوانب الدينية والخلقية والقانونية والطبية والنفسية، وفي هذا الصدد يلزم التحذير من التمادي في وضع سياسات ذات بعد واحد كأن نبالغ في إصدار التشريعات العقابية، أو نقيم مؤسسات العلاج ذات البعد الطبي فقط، أو البعد الاجتماعي فقط، وإنما العلاج يجب أن يكون شمولياً.

٤ ـ لقد تبين من خلال الدراسات والإحصائيات شيوع تعاطي المخدرات والخمور في المدارس والجامعات بشكل ملفت للانتباه، ولهذا فإنني أقترح كسبيل وقائي تثقيف طلابنا، وتوعيتهم بدءاً من المرحلة الإعدادية، وذلك بإدراج بعض البحوث الهامة في المناهج الدراسية، على أن تكون هذه البحوث معدة من قبل ذوي الاختصاص في الدراسات الإسلامية والطبية والنفسية والاجتماعية.

٥ ـ توعية المسافرين إلى البلاد الغربية الصليبية، أو البلاد الشيوعية الملحدة، طلباً للعلم أو التجارة أو السياحة، توعيتهم وتحذيرهم في آنٍ واحد من الانسياق والانغماس في أوحال الرذيلة، وارتياد أماكن الفساد في تلك المجتمعات، وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط في عددها الصادر في ١٤٠٠/٦/٢٦ هـ. أن عدد السياح العرب إلى أوروبا بلغ في عام ١٩٧٩ م ثلاثة ملايين شخص استقطبت لندن منهم أكثر من مليون، وكثير منهم لا يتحرج من شرب الخمور، وغشيان أماكن اللهو والفجور، بل إن بعضهم لا يذهب إلى هناك إلا من أجل ذلك.

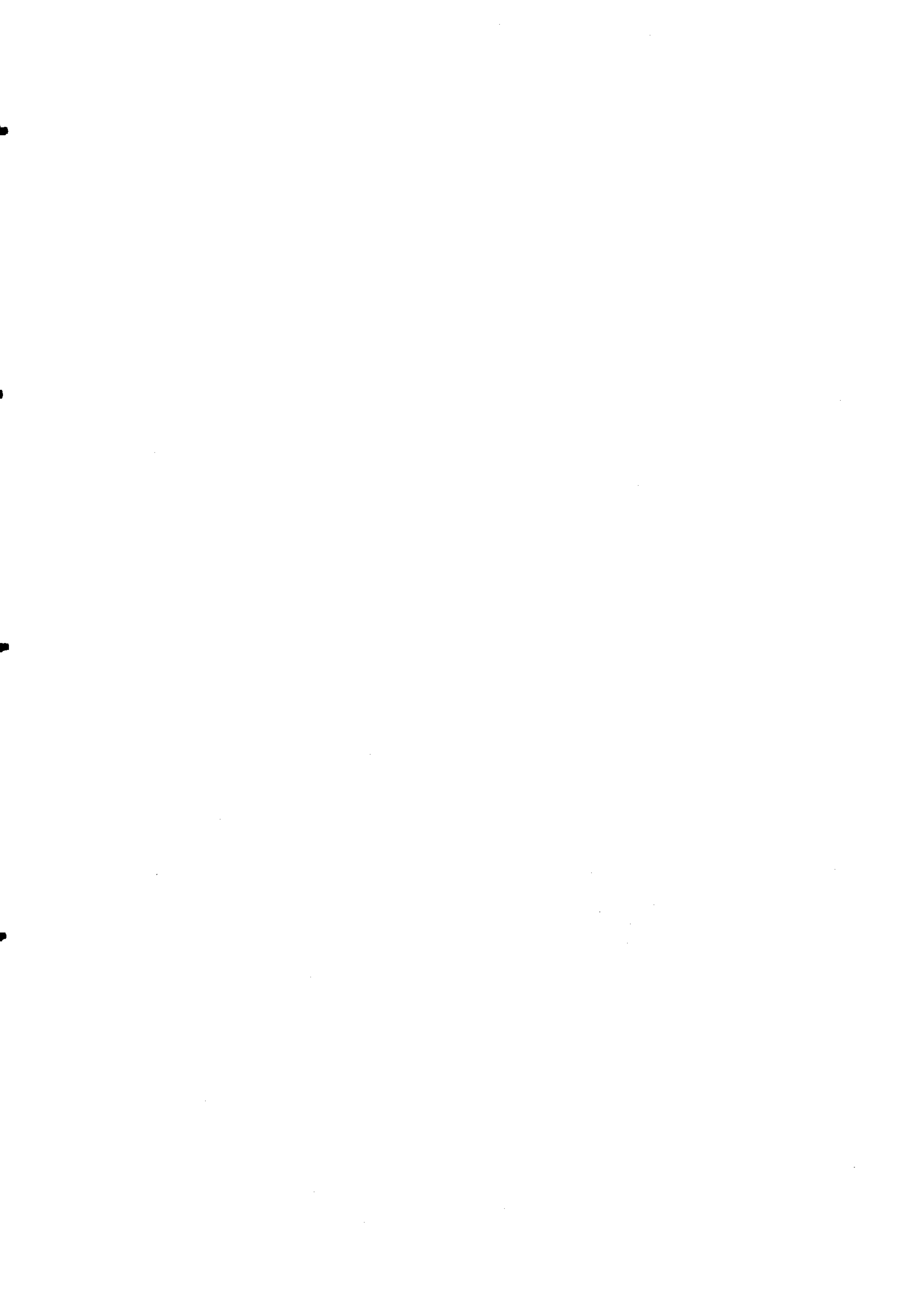
هذه هي أهم الوسائل التي يجب على المجتمعات الإسلامية أن تلجأ إليها، حفاظاً على عقول أبنائها ونفوسهم وأبدانهم، وحماية لها من هذه المفسدات والمهلكات التي تخرب كيانها، وتضعف قوتها، وتهدم أخلاقها.

* * *

المبحث الرابع

الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

* أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
* وسائل تغيير المنكر
* صفات وآداب الآمر بالمعروف
* صورٌ من حياة السلف الصالح



المبحث الرابع
الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١ ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحكمهُ :

أ ـ أهميته :

من ثمرات الإيمان في حياة المؤمن أنه يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، وقد ربط القرآن الكريم في كثير من الآيات بينهما، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ﴾ (التوبة ٧١)، ومنه قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (آل عمران ١١٠).

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية عظيمة تتجلى تلك الأهمية في أن مهمة الأنبياء والرسل هي أمر الناس بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، قال ابن تيمية رحمه الله : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله من الدين)[١] وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا واجبين في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة)[٢].

(١) مجموع الفتاوى ١٢١/٢٨ ـ مكتبة المعارف ـ الرباط ـ المغرب.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤٧/٤.

وتتضح تلك الأهمية كذلك في أن الوظيفة الأساسية لهذه الأمة الإسلامية هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال تعالى في الآية السالفة: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾، ودلت الآية الكريمة على أن الأمة الإسلامية نالت لقب الخيرية لأنها ستكون خيراً للعالم المملوء بالشر، وتهديه إلى الطريق المستقيم من جانب، ونكون مطيعة لله طاعة كاملة من جانب آخر، وهذه المنزلة العظيمة لا تبلغها أمة أخرى.

ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة»(١).

ومن ميزات الأمة الإسلامية أنها تأمر بكل معروف، وتنهى عن كل منكر خلافاً للأمم السابقة، يقول ابن تيمية رحمه الله: «سائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك، بل منهم من لم يجاهد والذين جاهدوا كبني إسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم، وهذه الصفة هي التي عرف بها نبينا محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث﴾.

هذا بيان لكمال رسالته، فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وأحل كل طيب، وحرم كل خبيث... وأما من قبله من الرسل فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبت كما قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر كما أن إحلال الطيبات يندرج في الأمر بالمعروف(٢).

وتظهر أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك في أن صلاح

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/١٢٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/١٢١ ـ ١٢٢ ـ ١٢٣.

العباد والمعاش[1] لا يتم إلا بهما، فلولا أن في الناس رجالاً يدعونهم إلى الخير، وينهونهم عن الفساد والمنكرات، لفسدت المجتمعات البشرية، وتعطلت الحياة، فكيف يصلح حال العباد ومعاشهم مع شيوع الزنى والخمور والربا؟ كيف يصلح حال العباد ومعاشهم مع انتشار عقائد الإلحاد، وشرائع الهوى، وتصورات الجهل والباطل؟، كيف يصلح حال العباد ومعاشهم والناس لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً؟.

وتظهر أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك في أن إضاعته وتركه تترتب عليه آثار عظيمة، وتنال الأمة بسببه عقوبات شديدة، من ذلك قوله ﷺ فيما رواهُ الترمذي وحسنه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[2].

ومن تلك الآثار المترتبة على ترك هذه الفريضة نزول العذاب العام في الأمة، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه حين قال: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم مِنْ ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه، الإبهام والتي تليها، فقالت زينب بنت جحش رضي الله عنها: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[3].

ب ـ حكمه:

ولأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن العلماء من السلف الصالح ذهبوا إلى وجوبه، ويدل على ذلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وآثار الصحابة والتابعين، أما الآيات فمنها قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم

---

(١) المرجع السابق ٢٨/٣٠٦.

(٢) رياض الصالحين ـ باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٣) المرجع السابق.

أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾ وفي الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تعالى: ﴿ولتكن﴾ أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ﴿وأولئك هم المفلحون﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين﴾ فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر﴾ فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين[1].

وأما الأحاديث فكثيرة أذكر منها قوله ﷺ فيما رواه مسلم: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2].

أما الآثار فمنها قول أبي الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم ظالماً لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم»[3].

وسئل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: «الذي لا

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٣٠٧ ـ مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ـ القاهرة.
(٢) رياض الصالحين ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(٣) إحياء علوم الدين ٢/٣٠٧.

ينكر المنكر بيـده ولا بلسانه ولا بقلبه»[1].

ومن أقوال العلماء في وجوبه قول أبي بكر الحصاص: «أكدَّ الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه، وبينه رسول الله ﷺ في أخبار متواترة عنه، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه»[2].

وقال النووي: «قد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنّة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين»[3].

وقال الشوكاني: «وجوبه ثابت بالكتاب والسنّة، وهو من أعظم واجبات الشريعة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها، ويرتفع سنامها»[4].

يتبين من هذه النصوص والأقوال أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ولكن هل هو فرض كفاية، أو فرض عين؟.

ذهب جمهور العلماء إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، يقول ابن تيمية في ذلك[5]:

«إذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي... فإن هذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويعتبر فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره، والقدرة هو السلطان والولاية، فذوو السلطان أقدر من

---

(١) المرجع السابق ٢/٣٠٧.
(٢) أحكام القرآن ـ الجصاص ٢/٥٩٢ ـ المطبعة البهية ـ مصر ١٣٤٧ هـ.
(٣) شرح مسلم ـ النووي ١/٥١ ـ طبعة دلهي عام ١٣٤٩ هـ.
(٤) فتح القدير ـ الشوكاني ١/٣٣٧ ـ مصر عام ١٣٤٩ هـ.
(٥) مجموع الفتاوى ٢٨/٦٥ ـ ٦٦.

غيرهم، وعليهم من الواجب ما ليس على غيرهم، فإن مناط الوجوب هو القدرة، فيجب على كل إنسان بحسب قدراته، قال تعالى: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾».

ج ـ المراد من المعروف والمنكر؟

يزعم بعض الناس أن المراد من المعروف هو التمسك بالأخلاق الحميدة ودعوة الناس إليها، وأن المراد بالمنكر هو النهي عن الأخلاق الفاسدة، وهم بذلك يحصرون المعروف والمنكر في الجانب الخلقي، وهذا الزعم زعم باطل، لأن المعروف والمنكر يدخل فيهما العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات كلها.

فوظيفة الرسل لم تكن وظيفة أخلاقية إنما كانوا صلوات الله وسلامه عليهم يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، واجتناب الأوثان والأصنام والتمسك بدين الله وحده. . . وكل هذا أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

كذلك فإن وظيفة الأمة الإسلامية التي أمرها الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليست محصورة في دعوة الناس والأمم إلى الصدق والأمانة والحياء والعفة والكرم والمحبة والرحمة، ونهيهم عن الفواحش والمنكرات والكذب والخيانة والظلم. . . إنها مكلفة بذلك، ولكن تكليفها لا ينتهي عند هذا، بل إنهم مأمورون بدعوة الأمم إلى دين الله وحده، إلى عبادة الله وحده، إلى شريعة الله وحده، إلى حكم الله وحده، وكل هذا يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا ما أثبته علماءنا من السلف الصالح طوال القرون السالفة، يقول أبو حيان الأندلسي: «فسر بعضهم المعروف بالتوحيد، والمنكر بالكفر، ولا شك أن التوحيد رأس المعروف، والكفر رأس المنكر، ولكن الظاهر العموم في كل معروف مأمور به في الشرع وفي كل منهي نُهيَ عنه في الشرع»[1].

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٠ ـ ٢١ أبو حيان ـ مطبعة السعادة ـ مصر عام ١٣٢٨ هـ.

وقال ابن حجر الهيثمي: «المراد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأمر بواجبات الشرع، والنهي عن محرماته»[1].

وعندما تحدث ابن تيمية رحمه الله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشار إلى المعنى الواسع الذي تشمله هاتان الكلمتان: المعروف، والمنكر، قال رحمه الله:

«ويجب على أولى الأمر وهم علماء كل طائفة وأمرؤها أن يقولوا على عامتهم، ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله، وينهون عما نهى الله عنه ورسوله، فالأول مثل شرائع الإسلام وهي الصلوات الخمس، وكذلك الصدقات المشروعة، والصوم المشروع... ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه... ومثل الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ومثل سائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة، ومثل إخلاص الدين لله، والتوكل على الله وصدق الحديث، والوفاء بالعهود... ثم التقرب إلى مكارم الأخلاق.

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمُ الشرك بالله... وقتل النفس بغير حقها، وأكل أموال الناس بالباطل... كذلك مما حرمه الله تعالى أن يصف الله بصفات لم ينزل بها كتاب من الله ولا أثارة من علم عن رسول الله ﷺ... وكذلك العبادات المبتدعة.[2]

وهكذا نستطيع أن نقول بإيجاز:

«المعروف هو كل اعتقاد أو قول أو عمل أمر به الشارع الحكيم على وجه الوجوب أو الندب، والمنكر هو كل اعتقاد أو قول أو عمل أنكره الشارع الحكيم ونهى عنه»[3].

* * *

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ـ ١٤٦/٢ ـ ابن حجر الهيثمي ـ دار الكتب العربية مصر عام ١٣٣٢ هـ.

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٢٨/٤٢٣ ـ ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ د. محمد عبد القادر أبو فارس ـ ص ١٦ ـ ١٧ دار الفرقان ـ الأردن ط ١/١٩٨٢ م.

٢ ـ وسائل تغيير المنكر:

وتغيير المنكر له وسائل معينة ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

أ ـ تغيير المنكر بالقلب:

فأما الوسيلة الأولى من وسائل تغيير المنكر فهي القلب، وتغيير المنكر بالقلب واجب، في كل حال، «إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس بمؤمن، كما قال رسول الله ﷺ «وذلك أضعف الإيمان»، وفي رواية صحيحة ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، وقد قيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً»[1].

ب ـ تغيير المنكر باللسان:

فأما الوسيلة الثانية من وسائل تغيير المنكر فهي اللسان، ويكون ذلك بما يأتي[2]:

١ ـ بالتعريف:

فقد يقع المسلم في منكر يجهله، وربما إذا عرف أنه منكر تركه، كمن يعمل في مؤسسة ربوية ولا يعلم أن العمل فيها منكر، وأن ما يتقاضاه منها يعد مالاً حراماً، فهذا الجاهل بالمنكر ينبغي أن يعلم ويعرف بأسلوب الحكمة واللين والموعظة الحسنة، وربما وجدت رجلاً مسلماً يعيش في البادية أو القرية يخالط النساء، ويجالسهم، ولا يجد في ذلك بأساً، فهذا وأمثاله قد يكون جاهلاً بهذا المنكر فيعلم أن هذا حرام في شرع الله ورسوله ﷺ.

٢ ـ بالوعظ والنصيحة:

إذا وقع المسلم في منكر وهو يعلم أنه منكر فهذا يجب وعظهُ ونصحهُ،

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢٨/١٢٧.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٢/٣٢٩ ـ ٣٣٠ ـ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

وبيان أن ما يفعله منكر لا يرضى الله عنه ولا رسوله، من ذلك مثلاً رؤيتك لرجل يواظب على أكل الربا من البنوك، وهو يعلم أن ما يأخذه حرام، فهذا ينبغي أن يوعظ وينصح، وذلك بذكر الأدلة الواردة من القرآن الكريم والسنّة النبوية في تحريم الربا، والنهي عنه، وبيان ما أعده الله عزّ وجلّ من عذاب أليم لمن يأكل المال عن هذا الطريق الحرام.

ومن ذلك أيضاً رؤيتك لرجل يتعاطى الخمور والمخدرات وهو يعلم أنها من المنكرات، فينبغي أن يوعظ وينصح، وذلك بذكر النصوص الشرعية التي تحرمها، ثم بيان الأضرار الصحية والنفسية والاجتماعية التي تنتج عنها.

ومن ذلك أيضاً رؤيتك لرجل قد عطل فريضة الصلاة تكاسلاً، فهذا ينبغي أن يوعظ وينصح مع إيراد الآيات والأحاديث التي تكفر من يعطل هذه الفريضة، أو تهدده بالوعيد والعذاب الأليم يوم القيامة، كل هذا مع اللين والعطف والشفقة.

٣ ـ بالتعنيف والقول الغليظ:

يلجأ المسلم إلى هذه الوسيلة لتغيير المنكر إذا عجز عن تغييره باللطف والنصح والوعظ، مثال ذلك أن ترى رجلاً يمارس الفاحشة، وهو يعلم أنها محرمة، فتنكر عليه عمله هذا أولاً بالوعظ والنصح له، فإن تمادى في منكره، وأظهر الإصرار والاستهزاء فينبغي حينئذٍ أن يواجه بالتعنيف والقول الغليظ كقول إبراهيم عليه السلام (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون).

ولهذه الدرجة أدبان «أحدهما: ألا يقدم عليها إلا عند الضرورة، والثاني: ألا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه كقوله: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله...»[١].

---

(١) الإحياء جـ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

جـ ـ تغيير المنكر باليد:

والمبدأ في تغيير المنكر باليد ما قاله القرطبي:

«قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء»[1] فالولاة والحكام لهم حق الولاية والسلطان على الرعية لأنهم وحدهم الذين يغيرون المنكرات الشائعة في المجتمع باليد، ولا يترك هذا للآحاد لئلا يؤدي ذلك إلى فتنة وفوضى.

وليس معنى هذا أن المسلم لا يلجأ إلى تغيير المنكر باليد مطلقاً فمن كانت له عليه حق الولاية جاز أن يغير المنكر باليد، كمن يرى ولداً له في يده كأس الخمر يشرب منها، فقد أباح الشرع له في مثل هذه الحالة أن يريق الخمر ويكسر الكأس، وربما لجأ المسلم في بعض الأحيان إلى تغيير المنكر باليد مع من ليس له عليه حق الولاية، من ذلك رؤيته لرجل فاسق يريد أن يعتدي على امرأة مسلمة، فزجره فلم ينزجر، ووعده فلم يرعو فله في مثل هذه الحالة أن يلجأ إلى منعه من الوصول إلى المرأة المسلمة باليد «ولو أدى ذلك إلى أن يشهر سلاحه ويهدد بقوله: خل عنها أولاً رْمِينَّكَ، فإن لم يخل عنها فله أن يرمي، وينبغي ألا يقصد القتل بل الساق والفخذ وما أشبهه»[2].

وهنا قاعدة يجب إثباتها وهي أن تغيير المنكر باليد إذا أدى إلى مفسدة أو فتنة فيجب أن يلجأ إلى تغييره باللسان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إن الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة، ودفع مفسدة ـ فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح، أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته. . . ومن هذا الباب ترك النبي ﷺ لعبد الله بن أبي سلول وأمثاله من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/٤٩.

(٢) الإحياء جـ ٢/٣٣٢ ـ ٣٣٣.

أمثة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه»[1].

وربما قيل إن تغيير المنكر باليد في المجتمع الإسلامي متروك للإمام فكيف يكون الحال إذا كان الإمام فاجراً أو فاسقاً تاركاً لهذه الفريضة؟.

والجواب على هذا السؤال كما قال ابن تيمية:

«لقد أمر رسول الله ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة، وقال: «أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم»»[2].

ولهذا كان من أصول أهل السنّة والجماعة، لزوم الجماعة، وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة[3].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢٨/١٢٩ ـ ١٣١.

(٢) ورد الحديث في صحيح البخاري ومسلم.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ابن تيمية ص ٣٢ تحقيق: د. محمد الجليد دار المجتمع ـ جدة ١٤٠٦ هـ.

٣ ـ صفات وآداب الآمر بالمعروف:

هناك صفات وآداب معينة يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتصف بها، وأذكر منها الصفات والآداب الآتية:

* **التكليف:**

ولا يخفي وجه اشتراط التكليف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «فإن غير المكلف لا يلزمه أمر، وأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل، حتى إن الصبي المراهق للبلوغ المميز ـ إن لم يكن مكلفاً فله إنكار المنكر، وإذا فعل ذلك نال به ثواباً، ولم يكن لأحد منعه من حيث أنه ليس بمكلف، فإن هذه قربه وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات»[١].

* **العدالة:**

اشترطَ بعض العلماء في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أن يكون موصُوفاً بالعدالة، وقالوا ليس للفاسق أن يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر «واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ والحق أن الفاسق يجوز له أن يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، إذ لا عصمة للصحابة فضلاً عمن دونهم»[٢].

وهذا ما قرره علماؤنا من السلف الصالح، يقول أبو بكر الجصاص: »إن ترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضاً غيرها، ألا ترى أن تركه للصلاة لا يسقط عنه فرض الصوم وسائر العبادات، فكذلك من لم يفعل سائر المعروف ولم ينته عن سائر المناكير فإن فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ساقط عنه»[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٣١٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٣١٢.

(٣) أحكام القرآن ٢/٤٠.

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف، ولا ينهي عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، فلما سمع ذلك مالك بن أنس رضي الله عنه قال:

«صدق، من ذا الذي ليس فيه شيء»[1].

*** القدرة:**

وعلى الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر أن يكون قادراً لقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، ولعدم القدرة وجوه[2]: الوجه الأول هو العجز الحسي كمن في بنيته ضعف، فهذا لا يأمر ولا ينهي إلا بقلبه، ومن وجوه العجز وعدم القدرة أن يخشى إذا قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكروهاً يصيبه، أو يصيب أصحابه وأقاربه وسائر المسلمين، فيسقط عنه هذا الفرض.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

«اعلم أنه لا يقف سقوط الواجب على العجز الحسي، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهاً يناله، فذلك في معنى العجز، كذلك إذا لم يخف مكروهاً وعلم أن إنكاره لا ينفع فليلتفت إلى معنيين:

أحدهما: عدم إفادة الإنكار، والآخر خوف مكروه، ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال:

أحدهما: أن يجتمع المعنيان بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة، بل ربما تحرم في بعض المواضع.

الثانية: أن ينتقي المعنيان جميعاً بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه، فيجب عليه الإنكار، وهذه هي القدرة المطلقة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٨٥، مطبعة مصطفى بمصر، عام ١٣٥٦ هـ.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ جلال الدين العمري ص ٨١٤٥

الحالة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه يخاف مكروهاً فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن تستحب.

الحالة الرابعة: عكس هذه وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر... فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب»[1].

وقال في موضع آخر:

«إذا رأى فاسقاً متغلباً عليه، وعنده سيف، وبيده قدح، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح، وضرب رقبته فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك، فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثراً ويفديه بنفسه، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له، بل ينبغي أن يكون حراماً، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر، أو ظهر لفعله فائدة، بشرط أن يقتصر المكروه عليه»[2].

وذكر صوراً من المكروه التي يسقط فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال رحمه الله:

«وكل من علم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به في الحسبة لم تلزمه الحسبة، وإن كان يستحب له ذلك، وإذا فهم هذا في الإيلام بالضرب فهو في الجرم والقطع والقتل أظهر... وإذا علم أنه تنهب داره، وتخرب بيته، وتسلب ثيابه، فهذا أيضاً يسقط عنه الوجوب، ويبقى الاستحباب... أو أن يصاب بمكروه في جاهه بأن يضرب ضرباً غير مؤلم أو يسب على ملأ من الناس، أو يسود وجهه ويطاف به، ... فهذا يرخص له في السكوت..»[3].

وقال ابن بطال المحدث رحمه الله:

«النصيحة لازمة على مقدار الطاقة، إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه،

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٣١٩.

(٢) المرجع السابق ٢/٣٢٠.

(٣) المرجع السابق ٢/٣٢٢ ـ ٣٢٣.

ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه، فإن خشي أذى فهو في سعة»[1].

كذلك فإن هذه الفريضة تسقط إذا أدت إلى مكروه وضرر يصيب المسلمين في المجتمع الإسلامي، يقول الإمام الغزالي:

«فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه فلا تجوز له الحسبة بل تحرم لأنه عجز عن دفع المنكر لئلا يفضي ذلك إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء»[2].

وقال في موضع آخر:

«فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها، فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور»[3].

ويرى ابن القيم رحمه الله أن رسول الله ﷺ إنما أوجب على الأمة إنكار المنكر ليحصل به المعروف الذي يحبه الله ورسوله، ولكن إذا أفضى إنكار منكر إلى حدوث منكر آخر شر منه لم يجز، وقال رحمه الله:

«إنكار المنكر أربع درجات: الأولى: أن يزول ويخلفه ضرر، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة»[4].

*** الرفق والسماحة:**

ومن الصفات والآداب التي يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتحلى بها هي صفة الرفق والسماحة كما قال رسول الله ﷺ:

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١/٥٤.
(٢) إحياء علوم الدين ٢/٣٢٠.
(٣) المرجع السابق ٢/٣٢٣.
(٤) أعلام الموقعين ٢/١٥ ـ ابن قيم الجوزية ـ أشرف المتابع بدلهي عام ١٣١٤ هـ.

«ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه».
وقال:

«إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف».

وهكذا كان رسول الله ﷺ رفيقاً في أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، فقد روى الإمام أحمد أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال:

يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به، فقال رسول الله ﷺ: قربوه، ادن، فدنا، حتى جلس بين يديه ﷺ فقال الرسول ﷺ، أتحبه لأمك؟ فقال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟ قال، لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك، وفي رواية: حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحدة، لا، جعلني الله فداك، وهو ﷺ يقول: كذلك الناس لا يحبونه، فوضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا»(١).

وجاء في الأثر عن السلف الصالح: «لا يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهىٰ عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهي عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهىٰ عنه»(٢).

وهكذا كان السلف الصالح من التابعين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من ذلك أن (صلة بن أشيم) رحمه الله مر عليه رجل قد أسبل إزاره، فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة، فقال: دعوني أنا أكفيكم، فقال: يا ابن أخي: إن لي إليك حاجة، وقال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك، فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره، فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدة

---

(١) قال العراقي: إسناده جيد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/١٣٧.

لقال: لا، ولا كرامة، وشتمكم»[1].

وجاء في بعض كتب الطبقات والتراجم أن رجلاً تعلق بامرأة، وتعرض لها وبيده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره، وكان الرجل شديد البدن، فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح في يده إذ مر بشر بن الحرث فدنا منه، وحك كتفه بكتف الرجل، فوقع الرجل على الأرض، ومشى بشر رحمه الله، فدنوا من الرجل وهو يترشح عرقاً كثيراً، ومضت المرأة لحالها، فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدرى؟ ولكن حاكني الشيخ وقال لي: إن الله عزّ وجلّ ناظر إليك وإلى ما تعمل، فضعفت لقوله قدماي، وهبته هيبة شديدة[2].

*** الالتزام:**

من الآداب التي يجب على القائم بهذه الفريضة أن يتأدب بها الالتزام بما يأمر به، وينهي عنه، لأن من لا يلتزم بدعوته فلن يكون لكلامه تأثير في قلوب الناس، ولهذا قال تعالى في محكم كتابه مستنكراً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾، وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمره بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

وقد قيل:

لا تلم المرء على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئاً وأتى مثله ... فإنما يزري على عقله[3]

ورحم الله أبا الأسود الدؤلي حين قال[4]:

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٣٣٥.
(٢) المرجع السابق ٢/٣٣٥.
(٣) الإحياء ٢/٣٣٤.
(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ د. محمد عبد القادر أبو فارس ص ٩١.

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام من الضنا   كي يشتفي منه وأنت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبلُ ما تقول ويُقتدى   بالقول منك وينفع التعليم

* * *

٤ ـ صورة من حياة السلف الصالح :

إن في حياة السلف الصالح من التابعين رضوان الله عليهم صوراً مشرقة في أداء هذه الفريضة، فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأختار منها الصور الآتية :

* **سعيد بن جبير وكلمة الحق عند والٍ جائر :**

كان الحجاج بن يوسف فاسق بني ثيف والياً لعبد الملك بن مروان، يأخذ بالشبهات، ويتحرى المناوئين في جميع البلاد الإسلامية، فيصب المحن عليهم دون هوادة، ولا خوف من الله، وكان خالد بن عبد الله القسري والياً على مكة المكرمة، وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته، فألقى القبض عليه واعتقله، ثم أراد أن يتخلص منه فأرسله مخفوراً إلـى الحجاج بن يوسف.

وهنا تبدأ المحنة مع لقاء الحجاج طاغية العراق، فإذا سعيد بن جبير أمامه جريءٌ لا تلين قناته، صلب لا يضعف سيف لسانه، يقول الحق وهو يعلم أنه مفارق الدنيا.

قال الحجاج : ما اسمك؟.

سعيد : سعيد بن جبير.

الحجاج : بل أنت شقي بن كسير.

سعيد : بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

الحجاج : شقيت أمك، وشقيت أنت.

سعيد : الغيب يعلمه غيرك.

الحجاج : لا بد لك بالدنيا ناراً تلظى.

سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

الحجاج : فما قولك في محمد؟.

سعيد : نبي الرحمة، وإمام الهدى.

الحجاج : فما قولك في علي، أهو في الجنة أم هو في النار؟.

سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها، عرفت أهلها.

الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟.

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟.

سعيد: أرضاهم لخالقي.

الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟.

سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أحب أن تصدقني.

سعيد: إن لم أحبك لن أكذبك.

الحجاج: فما بالك لم لا تضحك؟.

سعيد: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار.

الحجاج: فما بالنا نضحك؟.

سعيد: لم تستوِ القلوب.

هذا هو المشهد الأول من هذه المناقشة أو قل الفصل الأول من المحنة، وقد بدا فيها للحجـاج أنه غير قادر على إخضاع سعيد بن جبير إليه، ولم ينفعهُ التهديد بالقتل، كما لم تفده غلظة الكلام، وقبح الاتهام.

وهنا يسلك الحجاج طريقاً آخر لعله يصل فيه إلى ما يريد، ويحصل على مبتغاه من سعيد.

فأمر باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعهُ بين يديه، فقال سعيد: إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء للدنيا إلا ما طاب وزكا.

وهكذا ينتهي المشهد الثاني من هذه المحنة، فلم ينفع الحجاج هذا الإغراء بالمال والذهب، فليس ابن جبير من عباد المال، ولا من الذين يبيعون دينهم بدنياهم. ثم يسلك الحجاج سبيلاً آخر.

فدعا بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ بالناي بكى سعيد، فقال ما يبكيك؟ أهو اللعب؟ قال سعيد: هو الحزن، إنما النفخ فذكرني يوماً عظيماً

يوم ينفخ في الصور وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة.

وبعد أن فشلت هذه السبل اشتدت المحنة، فَعَلا غضب الحجاج، وفقد أعصابه فقال: ويلك يا سعيد.

سعيد: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك؟.

سعيد: اختر أنت لنفسك، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

الحجاج: أتريد أن أعفو عنك؟.

سعيد: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

عند ذلك ضاق الحجاج ذرعاً بسعيد، ولم يطق صبراً عليه، فأمر بإنهاء هذه المحنة فقال: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضحك، فأخبر الحجاج بذلك، فردوه إليه، قال: ما أضحكك؟.

سعيد: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك.

فأمر الحجاج بالنطع فبسط، وقال اقتلوه.

سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين.

قال الحجاج: وجهوا به لغير القبلة.

قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

فقال الحجاج: كبوه على وجهه.

سعيد: منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

الحجاج: اذبحوه.

سعيد: أما أنا فأشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة... الهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

فذبح رضي الله عنه من الوريد إلى الوريد، ولسانه رطبٌ بذكر الله[1].

*** الحسن البصري ونصيحة لوالي العراق:**

بعد أن انتقل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى جوار ربه آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك فولى على العراق عمر بن هبيرة الفزاري ثم أضاف إليه خراسان، وسار يزيد في الناس سيرة غير سيرة سلفه فكان يرسل إلى عمر بن هبيرة بالكتاب تلو الكتاب ويأمره بإنفاذ ما فيه ولو كان مجافياً للحق أحياناً، فدعا عمر بن هبيرة كلا من الحسن البصري وعامر بن شراحبيل المعروف بالشعبي وقال لهما: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك قد استخلفه الله على عباده وأوجب طاعته على الناس، وقد ولاني ما ترون من أمر العراق ثم زادني فولاني فارس، وهو يرسل إليّ أحياناً كتباً يأمرني فيها بإنفاذ ما لا أطمئن إلى عدالته، فهل تجدان في متابعتي إياه وإنفاذ أوامره مخرجاً في الدين؟.

فأجاب الشعبي جواباً فيه ملاطفة للخيفة، ومسايرة للوالي، والحسن ساكت، فالتفت عمر بن هبيرة إلى الحسن وقال: (ما تقول أنت يا أبا سعيد؟) فقال:

يا بن هبيرة خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، واعلم أن الله عزّ وجلّ يمنعك من يزيد، وأن يزيد لا يمنعك من الله، يا بن هبيرة إنه يوشك أن ينزل بك مَلَكٌ غليظ شديد لا يعصي الله ما أمره، فيزيلك عن سريرك هذا، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد، يا بن هبيرة: إنك إن تك مع الله وفي طاعته يكفك بائقة يزيد بن عبد الملك في الدنيا والآخرة، وإن تك مع يزيد في معصية الله تعالى فإن الله يكلك إلى يزيد، واعلم يا ابن هبيرة أنه لا طاعة لمخلوق كان من كان في معصية الخالق عزّ وجلّ. فبكى عمر بن هبيرة حتى بللت دموعُه لحيته[2].

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكماء ـ عبد العزيز البدري ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٣ ـ المكتبة العلمانية المدينة المنوّرة ـ ١٤٠٠ هـ.

(٢) صورة من حياة التابعين ـ د. عبد الرحمن باشا.

* **شيخ أزهري يصدع بكلمة الحق:**

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالت الهزائم على مصر لوقوع خلاف بين قواد جيوشها، ضاق صدر الخديوي لذلك، فركب يوماً مع شريف باشا، فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف باشا: ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد أن تدفعها؟ فقال: (يا أفندينا): إن الله عودني إذا حاق بي شيء من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عني، قال: فكلم شيخ الجامع الأزهر، وكان الشيخ العروسي، فجمع له من صلحاء العلماء جمعاً أخذوا يقرأون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ومع ذلك ظلت أخبار الهزائم تتوالى، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء، وقال لهم غاضباً: إما أن هذا الذي تقرؤونه ليس صحيح البخاري، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح؟ فإن الله لم يدفع بكم، ولا بتلاوتكم شيئاً.

فوجم العلماء لذلك، وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم».

فزاد وجوم المشايخ، وانصرف الخديوي ومعهُ شريف باشا ولم يتكلم بكلمة، وأخذ العلماء يلومونه ويؤنبونه، فبينما هم كذلك إذ بشريف باشا قد عاد يسأل: أين الشيخ القائل للخديوي ما قال؟ فقال: أنا، فأخذه وقام، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأملون أن يرجع، وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخل على الخديوي في قصره، فإذا به قاعد في البهو، وأمامه كرسي أجلس عليه الشيخ، وقال له: أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر، فأعاد الشيخ كلمته، وردد الحديث وشرحه، فقال له الخديوي: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟ قال له: (يا أفندينا): أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحاً؟ أليس، أليس، وعدد له منكرات تجري بلا إنكار، وقال: فكيف تنتظر النصر من السماء؟.

فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب، وهذه مدنيتهم؟ قال: إذن ما ذنب البخاري، وما حيلة العلماء؟.

ففكر الخديوي طويلاً ثم قاله له: صدقت صدقت. وعاد الشيخ بعد هذا إلى الأزهر وإخوانه فكأنما قد ولد من جديد[1].

* * *

---

(١) علماء الإسلام - محمد سلمان ص ٩٨ - ٩٩.

الفصل الثالث
ثمرات الإيمان الخلقية والنفسية

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : الإيمان والرحمة.
المبحث الثاني : الإيمان والصبر.
المبحث الثالث : الإيمان والاستعلاء على شهوات الدنيا.
المبحث الرابع : الإيمان وهداية القلوب.



المبحـــث الأول
الإيمـان والرحمـة

- من أين يستمد المؤمن رحمته؟.
- مظاهر الرحمة وصورها.
- بين رحمة أهل الإيمان وقسوة أهل الكفر.



المبحث الأول
الإيمان والرحمة

١ - من أين يستمد المؤمن رحمته؟ :

إن الرحمة ثمرة من ثمرات الإيمان، فالمؤمن لا يعرف قساوة في قلبه، ولا غلظة في معاملته، ولا شدة في سلوكه، وهو بهذا الخلق «يتميز بقلب حي مرهف لين رحيم، فيرق للضعيف، ويألم للحزين، ويحنو على المسكين، ويمد يده إلى الملهوف، وبهذا القلب الحي الرحيم، ينفر من الإيذاء، وينبوعن الجريمة، ويصبح مصدر خير وسلام لمن حوله»[1].

فمن أين يستمد المؤمن رحمته؟.

● رحمة الله الواسعة :

إن المؤمن يستمد رحمته من رحمة الله الواسعة، قال تعالى: ﴿ كتب على نفسه الرحمة﴾[2] (الأنعام)، فالله تعالى وهو مالك الملك، مالك السموات بأفلاكها ومجراتها، ونجومها، وكواكبها، ومالك الأرض ببحارها وأنهارها، وجبالها ووديانها، وإنسها وجنها، يكتب على نفسه الرحمة، يكتبها على نفسه بمشيئته وإرادته، لتقرر الآية الكريمة أن قاعدة المعاملة بين الله الخالق وبين خلقه من عباده تقوم على أساس من الرحمة.

---

(١) الإيمان والحياة ص ٢٨٧ .

(٢) الأنعام ١٢ .

وإن إدراك هذه الحقيقة يلقي في النفس الأنس والطمأنينة، وفي الروح ظلال السكينة والراحة.

ولقد صور لنا رسول الله ﷺ رحمة الله بأسلوب النبوة المشرق، وكلام الرسالة المبدع، كما في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش «إن رحمتي سبقت غضبي».

وهذه الرحمة التي وصفها رسول الله ﷺ رحمة عامة تشمل جميع الناس كافرهم ومؤمنهم، وصالحهم وطالحهم، وصغيرهم وكبيرهم، وفي هذا رد على الملاحدة والعلمانيين ممن يزعمون أن العلاقة بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه علاقة ظلم وقهر وقسوة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وأخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «جعل الله الرحمة مائة جزأ فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى توفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

فلولا هذه الرحمة التي أنزلها الله لما حنت الأم إلى ولدها، فسهرت من أجله الليالي، ولقيت في سبيله العنت والشقاء، ولولا هذه الرحمة لما أشفق الناس على الفقراء والضعفاء، ولولا هذه الرحمة لساد المجتمعات البشرية شريعة الغاب، تسفك الدماء بقسوة، وتزهق الأرواح بقسوة، ويعتدي الناس على بعضهم بقسوة لا تعرف شفقة ولا رحمة، كذلك فإنه لولا هذه الرحمة التي أودعها الله في نفس الدواب لوطئت أولادها، وقتلتهم بأقدامها.

ولعل في هذا الحديث تصويراً حياً لرحمة الله، فقد روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

«قدم على رسول الله ﷺ بسبى، فإذا امرأة من السبى تسعى، إذ وجدت صبياً في السبى فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال: رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، فقال: فالله تعالى أرحم

بعباده من هذه بولدها»».

وآثار رحمة الله نلحظها في حياة الناس، عامة، وحياة المؤمنين خاصة. تأمل في حياة الجنين وهو في عالم الأرحام، فمن الذي رعى هذا الجنين ورباه وأنشأه وهو في هذا العالم المظلم؟ من الذي أوصل إليه الغذاء الكافي دون أن يكون هناك تدخل من قبل الأم أو الأب؟ ثم من الذي يحفظ الأم من مخاطر وجود جسم غريب في رحمها، ذلك الجسم الذي يأخذ بالنمو وفق قانون محكم دقيق.

إنها رحمة الله التي تصيب ذلك الجنين حيث وجد وأنىٰ كان، ثم انظر إلى آثار رحمة الله في جسم الإنسان، فماذا لو كان الإنسان يمشي على أربع؟ أفليست هذه رحمة من الله أن خلقه وجعله في هذه الصورة السوية؟، ماذا لو كانت شفتاه مطبقتين؟ ثم ماذا لو كان بلا أسنان طوال حياته، أو كان جسمه خالياً من معدة تهضم الطعام، أو قلب يوزع الدم، أو أمعاء تطرح الفضلات؟.

إنها رحمة الله التي تصيب الإنسان فتجعله في أحسن تقويم.

وانظر إلى آثار رحمة الله الظاهرة في صفحة الكون، فهذه الشمس التي خلقها الله تعالى جعل لها قانوناً خاصاً لا تحيد عنه، فمنذ آلاف السنين لو أنها كانت أقرب إلى الأرض جزءاً يسيراً مما هي عليه الآن لاحترقت الأرض بمن فيها ومن على ظهرها، ولو أنها كانت أبعد مما هي عليه الآن شيئاً يسيراً لتجمد كل شيء قابل للتجمد على سطح الكرة الأرضية، أفليس من رحمة الله أن جعلها في هذه الوضعيَّة التي تلائم حياة الناس والنباتات والحيوانات وسائر المخلوقات التي تعيش فوق هذه البسيطة.

ولو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠٪ أو أكثر بدلاً من ٢٠٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة كلها.

ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض، لأن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد[1].

وهذه كلها ظواهر كونية تدل على رحمة الله الواسعة التي شملت كل شيء في هذا الوجود، واقرأ هذه الآيات الكريمات وتأمل فيها لترى بنفسك آثار رحمة الله:

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون؟، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بالليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون ﴾ (القصص ٧٣).

● **رحمة رسول الله:**

والمؤمن كذلك يستمد رحمته من رحمة رسول الله ﷺ وقد وصفه ربه بقوله ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، وهذه رحمة عامة تشمل الناس جميعاً على مختلف ألوانهم وأجناسهم، وقبائلهم وأوطانهم، إنها رحمة عامة تصيب الناس جميعاً وإن كانوا على عقيدة غير عقيدة الإسلام، وهذا ما أكدته السيرة العملية لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إن هناك رحمة خاصة لرسول الله ﷺ وهي رحمته بالمؤمنين، وقد وصف الله تعالى هذه الرحمة الخاصة في قوله: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (التوبة ١٢٨).

وسأشير إلى صور من رحمة رسول الله الخاصة والعامة لدى حديثي عن مظاهر الرحمة وصورها.

كذلك فإن رحمة رسول الله ﷺ تتجلى في الدعوة إلى التخلق بخلق

---

(١) انظر كتاب (الله جل جلاله) سعيد حوى ص ٤٠.

الرحمة في كثير من أحاديثه، ومنها:

ما رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ قال:

«لا يرحم الله من لا يرحم الناس» وروى مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط... ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال».

وروى الإمام أحمد والترمذي أنه ﷺ قال:

«لا تنزع الرحمة إلا من شقي».

* * *

٢ ـ مظاهر الرحمة وصورها:

وللرحمة صور متعددة أذكر منها ما يأتي:

أ ـ الرحمة بالأمة:

فالصلة بين المسلمين في داخل المجتمعات الإسلامية إنما تقوم على قاعدة التراحم والتعاطف، وهذا ما أثبته رسول الله ﷺ في سنّته القولية والعملية، فمن رحمة رسول الله بالأمة المسلمة تخفيفه وتسهيله عليهم أشياء مخافة أن تفرض عليهم، ومن ذلك قوله ﷺ:

«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء».

ومن ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

ومن رحمته ﷺ رحمته بالضعفاء من الأرامل واليتامى والمساكين، فقد

جعل ﷺ أجر الساعي في حاجة الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، روى الشيخان أنه ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله».

ومما يثير مشاعر الرحمة في النفس المؤمنة أنه في تعامله مع المؤمنين على أساس من خلق الرحمة فإنه لا يميز بين فقير وغني، بل الفقراء أحوج إلى الرحمة من سواهم، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يغرسهُ في نفوس أصحابه، وإليك هذين الحديثين، فأما الأول فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجلٍ عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله هذا رَجُلٌ من فقراء المسلمين، هذا حريٌ إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[1]. متفق عليه.

أما الحديث الثاني فقد رواه مسلم وفيه أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم في نفرٍ، فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك؟ فأتاهم فقال: يا إخوتاه أأغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي»[2].

ومن الرحمة بين المسلمين الرحمة باليتامى، ويكفي أنه ﷺ قال فيما يرويه البخاري: «أنا وكافل اليتيم في الجنة»، وهكذا أشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما.

---

(١) رياض الصالحين ـ باب فضل صفة المسلمين والفقراء.

(٢) المرجع السابق ـ باب ملاطفة اليتيم، وسائر الضعفة والمساكين.

وقال في حديث رواه ابن ماجة: «إن خير بيت في المسلمين البيت الذي فيه يتيم يحسن إليه».

ومن الرحمة بين المسلمين الرحمة بالنساء، ففي الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركتَهُ لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»(١).

ومن الرحمة بين المسلمين صلة الأرحام وذوي القربى، وقد جعل رسول الله ﷺ صلة الأرحام ثمرة من ثمرات الإيمان فقال في الحديث المتفق عليه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصلِ رحمهَ».

وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ، فإن الإيمان قد رقق قلوبهم بعد أن كانت قاسية في الجاهلية، ولا أدل على هذا هو أنهم كانوا يعاملون الفقراء والضعفاء والمساكين معاملة فيها القسوة والخشونة والغلظة بل وصل الأمر بهم أنهم كانوا يكرهون(٢) النساء الموالي ممن لا عَشيرة لهن ولا وجاهة على الزنى، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ والمعاملة السيئة التي كان يلقاها بلال الحبشي وصهيب الرومي، وسواهما من الضعفاء معروفة في كتب السيرة، ولكن الإيمان حَوَّلَ هؤلاء الرجال من حال إلى حال، من قساوة القلب إلى لينه، ومن سوء المعاملة إلى حسنها، ومن غلظة النفس إلى الرفق والرحمة مع القدرة والاستطاعة.

وهذه صور من الرحمة بين الصحابة، حَدَّثَ أسلم خادم عمر قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة وبعدنا عن المدينة ونحن نتفقد أهل المنازل النائية، فبصرنا بنار من بعيد، فقال عمر: إني أرى ها هنا ركباناً قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الوصية بالنساء.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج.

صبيان وقدر منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون، فسلم عمر ثم سأل المرأة ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت الجوع، قال: وأي شيء في هذا القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر، فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فأقبل عَلَيَّ ـ هذا قول أسلم ـ فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة من شحم، وقال: احمله عليّ قلت: أنا أحمله عنك، قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة، لا أم لك، فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذري عليّ وأنا أحرُّ لك، وجعل ينفخ تحت القدر، وكانت لحيته عظيمة فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم، ثم أنزلها وقال: ابغني شيئاً، فأتته بصفحة فأفرغها فيها، فجعل يقول لهم، أطعميهم وأنا أسطح لهم (أي أبسطه حتى يبرد)، فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمتُ فجَعلَتْ تقول جزاك الله خيراً، كنتَ بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتيني هناك إن شاء الله، ثم تنحى عنها ناحية ثم استقبلها فربض مربضاً[1]، فقلت له: لك شأن غير هذا؟ فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرمون ثم ناموا وهدأوا فقام يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فَأَجْبَبْتُ أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت[2].

ومن الرحمة بين المسلمين الأوائل ما حدث بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما فقد روى الإمام أحمد أن عبد الرحمن بن عوف حين قدم المدينة المنوّرة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً،

---

(١) كمن في مكان لا يرى فيه.

(٢) من روائع حضارتنا ـ د. مصطفى السباعي ص ٦٩.

فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأة فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها، فقال عبد الرحمن: «بارك الله في أهلك ومالك، دلوني على السوق»[1].

ولقد سار السلف الصالح من التابعين على درب الصحابة في التراحم والتعاطف والتواد، وقد تجلى هذا في بناء المؤسسات الخيرية كبناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر، ومنها بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً، ومنها السقايات في الطرقات العامة للناس جميعاً، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبْز ولحم وحساء وحلوى، ومنها حفر الآبار في الفلوات تسقي الماشية والزروع والمسافرين، وقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، ودمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية وقراها»[2].

ومن المؤسسات الخيرية التي يظهر فيها خلق التراحم بين المسلمين في عهد السلف الصالح ومن بعدهم إقامة «مؤسسات لليتامى واللقطاء لختانهم ورعايتهم ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة يعيشون فيها موفوري الكرامة»، لهم كل ما يحتاجون إليه من سكن وغذاء ولباس وتعليم.

وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ومؤسسات لإعداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم، ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور[3].

فما أروع عاطفة الرحمة هذه التي كانت بين المسلمين الأوائل، وما أعظم شعور التواصل والتواد بينهم، وما أحوجنا إلى هذا الشعور وتلك العاطفة في أيامنا هذه.

* * *

---

(١) حياة الصحابة ـ الكاندهلوي ١/٣٦٣.

(٢) من روائع حضارتنا ص ١٢٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٧.

ب ـ الرحمة بالأطفال:

إذا أردنا أن نعرف أثر الإيمان في غرس الرحمة في النفوس فلننظر إلى حال العرب في الجاهلية من حيث نظرتهم إلى الأولاد، وتعاملهم معهم، فمن صور الجاهلية العربية الأولى القسوةالتي عرف بعض العرب في الجزيرة العربية في تعاملهم مع أولادهم، ومن مظاهر هذه القسوة مظهران، فأما الأول فهو عادة وأد البنات، فقد كان العربي يقف مع ابنة له أمام بئر، وإن هي إلا لحظات حتى يباغتها من خلفها، فيدفعها إلى قاع البئر فتهوى إليه جثة هامدة، أو تصل إلى قاعه، وهي لا تزال على قيد الحياة، ثم ماذا؟، ثم يهيل عليها التراب حتى تسوىٰ بالأرض[1].

وليست هذه الرواية مجرد حكاية من الحكايات، أو أسطورة من الأساطير نسجتها عقولنا بقصد إظهار الصورة الكريهة للعرب قبل الإسلام، بل جاء ذكرها في كتاب الله تعالى ﴿ وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت؟ ﴾.

أما المظهر الثاني من مظاهر القسوة التي عرف بها العرب في جاهليتهم مع أولادهم، فقد أشار إليها القرآن الكريم ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلتهم كان خطئاً كبيراً ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره:

«كانوا يقتلون الأولاد من الإملاق وهو الفقر، أو خشية أن يحصل لهم تلف في المال، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك»[2].

هذه القسوة في بعض النفوس قبل الإسلام تحولت إلى رحمة ومحبة وعطف ومودة بعد أن من الله عليهم بنعمة الإيمان، كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في كثير من مواقفه يحاول أن يغرس هذه العاطفة، عاطفة الرحمة في النفوس تجاه الأولاد، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ قَبَّلَ

---

(١) البحر المحيط ـ ٨/٤٣٣ ـ الرياض.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٣٣.

الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعنده الأقرع بن حابس فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «من لا يرحم لا يرحم».

ومن رحمة رسول الله ﷺ بالأولاد تخفيفه الصلاة، فقد روى الشيخان أنه ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجده أمه».

ومن هدى رسول الله ﷺ ذلك أنه جعل نفقة المؤمن على أولاده وأهله خيراً من النفقة في سبيل الله، فقد روى مسلم أنه ﷺ قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك».

ولقد أحال الصحابة هذه التعاليم النبوية إلى تطبيق عملي في حياتهم، والدليل هذه الصورة المشرقة من حياة الفاروق عمر رضي الله عنه.

قَدِمَتْ إلى المدينة قافلةٌ من التجار، وفيها النساء والأطفال فقال عمر رضي الله عنه لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن تحرسهم هذه الليلة؟ فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه وقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال: اتقي الله وأحسني إلى صبيك ثم عاد إلى مكانه، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك إني لأراك أم سوء، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: وهي لا تعرفه أنه أمير المؤمنين، يا عبد الله لقد أبرمتني منذ الليلة، إني أريقهُ عن الفطام فيأبى (أي أحمله على الفطام كرهاً فيأبى) قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم[1]، قال: وكم له: قالت: كذا وكذا شهراً، قال: ويحك لا تعجليه، فصلىٰ الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم، قال: يا بؤسا لعمر! كم قتل

---

(١) أي لا يعطي للآباء عن أولادهم إلا من فطم.

من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق»[1].

واقتفى الخلف من التابعين أثر السلف من الصحابة، وإليك هذين النموذجين فإنهما إن دلا على شيء فإنما يدل على خلق الرحمة الذي كان بين المسلمين والأطفال في داخل المجتمع الإسلامي.

من المؤسسات الخيرية التي أنشئت مؤسسات لإعداد الأمهات بالحليب والسكر، وقد كان من ميزات صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه أنه جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر»[2].

وأما النموذج الثاني فمن أطرف المؤسسات الخيرية وقف الزبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ثم يرجعوا إلى أهلهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً[3].

فما أعظم هذه الرحمة التي كان السلف والخلف من هذه الأمة الإسلامية يعاملون بها الأطفال، وما أروع هذه الصور المشرقة التي نقلت عنهم والتي لم تعرف البشرية مثيلاً لها من قبل.

* * *

جـ ـ الرحمة بالأعداء:

وتمتد دائرة الرحمة وتتسع حتى تشمل الأعداء، ولقد كان رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في تعامله مع أعدائه برحمة وعطف وصفح وإحسان، ولعل من

---

(١) من روائع حضارتنا ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٧.

أعظم صور الرحمة التي عرف بها رسول الله ﷺ يوم أن دخل مكة المكرمة فاتحاً، فجمع الناس وخطب فيهم قائلاً:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. . . يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية الكريمة:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾.

ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[1].

ومن رحمته ﷺ بأعدائه ما رواه الشيخان ن أعرابياً مشركاً حاول أن يغتال رسول الله ﷺ، فوقف والسيف في يده يقول: يا محمد من يمنعك مني؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ في هدوء واطمئنان وقال: «الله»، فسقط السيف من يده، فتناوله رسول الله ووقف على رأس المشرك وقال: «وأنت من يمنعك مني؟» قال: لا أحد، فكن خير آخذ، فقال رسول الله ﷺ: «قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، فقال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى عنه رسول الله ﷺ، فجاء أصحابه وقال: جئتكم من عند خير الناس.

أما رحمة السلف الصالح بأعدائهم فقد بلغت من العظمة والسمو ما بهما نعتز كأمة مسلمة خرَّجَتْ أمثال هؤلاء الأفذاذ من الرجال الرحماء، الرحماء في أخلاقهم الجهادية، الرحماء في معاملاتهم مع أهل الذمة من اليهود والنصارى، الرحماء في فتوحاتهم لتحرير البشر من العبودية للبشر

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ط ١٩٨١/٢ م.

وإعطاء العبودية لله وحده، الرحماء في عدلهم وقضائهم مع ملل لا تدين بدين الإسلام،

فمن رحمتهم في جهادهم هذه الوصية الخالدة التي كان الخليفة الصديق رضي الله عنه يوصي بها المجاهدين الفاتحين:

«لا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

إنها الرحمة وراية الجهاد في أيدي المجاهدين، الرحمةالتي تجعل حركة الفتح الإسلامي حركة إنسانية خالصة لله وحده، لا من أجل جاه أو مال أو مغنم، أو في سبيل الوصول إلى مطامع دنيوية، أو مطامع نفسية، ومن هنا فإنها حركة جهادية منضبطة، قوامها الرحمة والإنسانية، تلك الرحمة التي تصيب الأطفال الصغار، والشيوخ الكبار، وتمتد لتشمل النبات فلا نخل يحرق ولا شجرة مثمرة تقطع، وتشمل الحيوان فلا شاة ولا بقرة ولا بعير يذبح إلا لمأكله.

فهل عرف تاريخ البشرية رحمة مثل ما عرف بها المجاهدون الفاتحون من السلف الصالح؟ وقد شهد بها غوستاف لوبون حين قال قولته المشهورة:

«ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من المسلمين».

وجمع خالد بن الوليد وأبو عبيدة رضي الله عنهما القادة من أهل المدن والقرى في الشام ممن يعتنقون العقيدة النصرانية وقالوا لهم: إنا كنا قد أخذنا منكم أموالاً على أن نحميكم وندافع عنكم، ونحن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم، فهذه أموالكم نردها إليكم، فقال النصارى من أهل المدن: «ردكم الله ونصركم، والله لحكمكم وعدلكم أحب إلينا من جور الروم وظلمهم، والله

لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئاً أخذوه»[1].

ومن صور رحمتهم بأهل الذمة ما رواه أبو يوسف في كتابه الخراج أن شيخاً كان يسأل الناس على عهد عمر بن الخطاب فسأله ما أنت يا شيخ؟ قال: ذمي وكان يهودياً يسأل الصدقة، فقال له عمر: ما أنصفناك، أكلنا شيبتك ثم نضيعك في هرمك، ثم أخذه إلى بيته فأعطاه ما وجده وأرسل إلى خازن بيت المال يقول: انظر إلى هذا وضربائه فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم، وإنما الصدقات للفقراء والمساكين، وهذا من مساكين أهل الكتاب»[2].

وروى البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في طريقه إلى الشام مر بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن ينفق عليهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم، وأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شؤونه»[3].

ولقد سار التابعون على هذا النهج الرحيم، ففي حروب التتار في بلاد الشام وقع كثير من أسرى المسلمين والنصارى واليهود، فتدخل شيخ الإسلام ابن تيمية مع أمير التار في أمر الأسرى، وفك أسرهم، فأجابه الأمير إلى فك أسرى المسلمين دون النصارى واليهود، فأبى شيخ الإسلام ذلك وقال له: لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، ولا تدع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة»[4].

فليت المستشرقين من اليهود والنصارى وأتباعهم يفهمون هذه الحقيقة، ويدركون عظمة الرحمة التي عرف بها السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

---

(١) من روائع حضارتنا ص ١٠٣.

(٢) نقلاً عن كتاب معالم الحضارة في الإسلام ـ عبد الله علوان ص ١٥٠.

(٣) نقلاً عن كتاب معالم الحضارة في الإسلام ـ عبد الله علوان ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٤) من روائع حضارتنا ص ١٠٣.

د ـ الرحمة بالحيوان:

وإن الرحمة التي هي ثمرة من ثمرات الإيمان ليست محصورة في دائرة بني آدم، وإنما تتعداها حتى تشمل الحيوانات، وكان من هدى رسول الله ﷺ أن يغرس في نفوس الصحابة هذه الصورة من الرحمة، ومن يراجع السنّة النبوية المطهرة يجد مصداق ذلك، فقد روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت النار، لا هي أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وفي حديث آخر رواه الشيخان حدث رسول الله ﷺ أصحابه فقال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رَقِيَ فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له».

بل الرحمة بالحيوان خلق يجب على المؤمن أن يتخلق به وهو يقوده إلى الذبح، وهذا ما علم به رسول الله أصحابه فقال في حديث رواه مسلم:

«إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

ومن هديه ﷺ في ذلك أنه كان ينهي أن يفجع الطير بأولاده، ولما أخذ بعضهم فرخى حمرة[1] وجاءت منزعجة قال: من فجع هذه بولديها، ردوا إليها ولديها».

وماذا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين في الرحمة والرفق بالحيوان؟ فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَمُرُّ برجل يسحب شاة برجلها ليذبحها، فيقول له: ويلك قُدْها إلى الموت قَوْداً جميلاً[2].

---

(١) طائر صغير.

(٢) من روائع حضارتنا ص ١١٤.

وقد ذهب قولـه هذا مثـلاً بين الناس «والله لـو أن بغلة تعثرت في أرض العـراق لخشيت أن يسألني الله عنهـا يوم القيـامة، لم لم تمهـد لها الـطريق يـا عمر؟».

وكان أبو الدرداء يتبع الصبيان فيشتري منهم العصافير فيـرسلها ويقـول: اذهبي فعيشي[1]، وروى البخـاري ومسلم أن عبد الله بن عمـر مـر بفتيـان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، فلما رأوه توقفوا، فقـال رضي الله عنه: من فعـل هذا؟ لعن الله من فعـل هذا، إن رسـول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيـه الروح غرضاً.

ويـروي المؤرخون أن عمـرو بن العاص حين فتح مصر نـزلت حمامـة بفسطاطه[2]، فاتخذت من أعلاه عشاً، وحين أراد الـرحيل لم يشـأ أن يهيجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله فكانت مدينة الفسطاط[3].

وأذاع عمـر بن عبد العـزيز رضي الله عنـه في أإحدى رسـائله إلى الولاة في الأمصار الإسلامية أن ينهوا النـاس عن ركض الفرس في غيـر حق، وكتب إلى صاحب السكك[4] ألا يسمحوا لأحد بإلجام دابته بلجام ثقيل[5].

ومن الصـور المشـرقـة في حضـارتنـا الإسـلاميـة في الـرفق بـالحيـوان المؤسسات والأوقاف الاجتمـاعية التي أنشـأها المسلمـون، ومن هذه الأوقـاف أوقاف خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقـاف لرعي الحيـوانات المسنّـة العاجزة[6].

---

(١) تنبيه الغافلين ٢/ ٤١٥.
(٢) خيمته.
(٣) الإيمان والحياة ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.
(٤) وظيفة تشبهُ إدارة السير.
(٥) من روائع حضارتنا ص ١١٤.
(٦) المرجع السابق.

وعلى ضوء هذه التعاليم من هدى رسول الله ﷺ وأصحابه وتابعيهم بإحسان يقررون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال، فهم يقررون أن النفقة على الحيوان واجبة على مالكه، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه، وقد ذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا فقال بعضهم: إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه حيث لم تقدر على الانصراف»[1].

* * *

٣ ـ بين رحمة أهل الإيمان وقسوة أهل الكفر:

إذا كان الإيمان قد صنع هذه الصورة المشرقة من الرحمة فيما بين أهل الإيمان بعضهم مع بعض، والرحمة بالأعداء والحيوانات، فماذا يفعل الكفر إذن في واقع الناس؟.

وبما أن الرحمة قرين الإيمان، كذلك فإن القسوة قرين الكفر، وسأسوق هنا شواهد من حياة الكفار الرافضين لمنهج الإيمان، فيها بيان للناس كافة أثر الإيمان الحق في سلوكهم وأخلاقهم لا فيما بينهم فحسب إنما بينهم وبين سائر المخلوقات من جمادات وحيوانات:

أ ـ قسوة أهل الكفر على غيرهم:

انظر إلى قسوة الكفار من النصارى مع المسلمين في الحروب الصليبية الأولى، لقد ذبحوا في يوم واحد سبعين ألف مسلم ذبح النعاج حتى إنَّ الدماء كانت تجري أنهاراً في شوارع القدس والمسجد الأقصى[2].

وماذا فعل أهل الكفر من دعاة الصليب في الأندلس؟، تقول الدكتورة (زيغرد هونكة): «عندما ارتفع الصليب على الحمراء في إسبانيا، حرم الإسلام على المسلمين، وفرض عليهم تركه، كما حرم عليهم استخدام اللغة العربية والأسماء العربية، وارتداء اللباس العربي، ومن يخالف ذلك كان

---

(١) من روائع حضارتنا ص ١١٣.

(٢) معالم الحضارة في الإسلام ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

يحرق حياً بعد أن يعذب أشد العذاب»[1].

وتدبر في قسوة الكفار من اليهود، وخير مثال على قسوتهم ووحشيتهم وإرهابهم ما ارتكبوه من جريمة بشعة في مذبحة دير ياسين، إذ عمد هؤلاء الكفرة إلى قتل الأطفال والنساء والمسنين من الرجال بلا رحمة ولا شفقة ولا إنسانية، بقروا بطون النساء الحوامل، ودهسوا بأقدامهم رؤوس الأطفال الرضع فهشموها ووضعوا رؤوس الشهداء فوق الصخور والأحجار وكسروا جماجمها، وما فعلوه في لبنان ليس عنا ببعيد. وماذا عن قسوة أهل الكفر من أصحاب العقيدة الشيوعية الفاسدة؟ تدبر هذه الإحصائية[2]:

لقد قتل الشيوعيون في تركستان وحدها عام ١٩٣٤ م مائة ألف مسلم، وفي سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ م ألقى الشيوعيون القبض على ٥٠٠ ألف مسلم، فأعدمت فريقاً منهم، وأرسلت فريقاً آخر إلى مجاهل سيبريا، وتأمل في وسائل التعذيب التي كانوا يلجأون إليها لتعرف أن الكفر قرين القسوة والوحشية والهمجية، وأن الإيمان قرين الرحمة والعطف والشفقة والإنسانية. كان من وسائل الشيوعيين في تعذيب المسلمين ما يلي[3]:

* صب البترول على المعذب ثم إشعال النار فيه حتى يحترق.
* تمشيط جسم المسجون المعذب بأمشاط حديدية حادة.
* صب المواد الكيماوية الكاوية في أنوف المسجونين المعذبين وفي أعينهم.
* يقطّع جسم المعذب إلى قطع صغرى بالسكاكين.

أفرأيت كيف أن الإيمان يمنع صاحبه من تهييج حمامة فوق فسطاطٍ ويدفع الكفر صاحبه إلى حرق الإنسان بالبترول حتى يموت؟ أفرأيت كيف أن الإيمان يدفع المؤمن إلى مخافة أن يسأل عن دابة تتعثر في الأرض لماذا لم

---

(١) قادة الغرب يقولون ص ١٢.
(٢) الكيد الأحمر ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٣) الكيد الأحمر ص ٢٦٥.

يمهد لها الطريق، ويدفع الكفر صاحبه إلى إبادة مئات الآلاف من بني البشر دون إحساس بالمسؤولية أو وخز الضمير؟ وما يفعله أهل الكفر من الشيوعيين في أفغانستان المسلمة عنا ببعيد، يقول أحد الفرنسيين العاملين في القطاع الصحي بأفغانستان:

«لقد أصبح الموقف يتسم بالمأساة في أفغانستان، فالناس هناك يفقدون كل شيء . . . فقد أحرق السوفييت القرى، وقتلوا المدنيين من الناس، وأتلفوا المزارع، ولوثوا الحياة وأنظمة الريّ، ودمروا كل شيء[1].

وقارن بين ما يصنعه الكفر والإيمان؟ الإيمان رحمة مع الإنسان، مع الحيوان مع النبات والجماد، والكفر قسوة مع كل شيء، مع الإنسان، والحيوان، والنبات والجماد، فما أحوج الإنسان إلى أن يعود إلى منهج الإيمان الذي جاء به رسول الله ﷺ لتعود إليه الرحمة والعطف والشفقة والإنسانية.

ولعل من أبرز الشواهد على قسوة أهل الكفر مع غيرهم ما فعلته أمريكا مع اليابان حين ألقت بالقنبلة الذرية على مدينة هيروشيما وناغزاكي، واقرأ هذه الإحصائية الدقيقة:

«لقد نتج عن إلقاء قنبلة هيروشيما توليد حرارة بلغت عدة ملايين من الدرجات الحرارية سببت شعلة من النار على ارتفاع ٨٥٠ م فوق المدينة المنكوبة، فتحولت المدينة إلى كتلة من الرماد بما فيها من بشر ومبانٍ وسيارات وقد غطى الإشعاع النووي ٩٩٪ من المدينة، وفي ثوان قليلة وصلت إلى مساحة ٣,٥ كم٢، وأدى هذا الإشعاع مع العوامل الأخرى إلى وفاة جميع السُّكَان في هذه المنطقة، أما السكان الذي يبتعدون بمسافة كيلو متر واحد عن مركز سقوط القنبلة فقد ماتوا من حروق شديدة، وقد بلغ عدد الضحايا في مدينة هيروشيما وحدها ١١٨,١١١ ألف شخص توفوا، و ٣,٦٧٧ فقدوا،

---

(١) مجلة الدعوة المصرية ص ٢٧ ربيع الأول عام ١٤٠٥ هـ.

و ٣٠,٥٢٤ ألف أصيبوا إصابات خطيرة، ومساحة هيروشيما التي تبلغ ٧٢,٧ كم٢ تحول ١٣,٢ كم٢ إلى رماد، و٣٠,٣ كم٢ أصيب بأضرار بالغة...»[١].

أرأيت إلى هذه القسوة الشنيعة التي يمثلها أهل الكفر من خلال إلقاء قنبلة نووية واحدة تدمر في طريقها كل شيء... تحرق في طريقها كل شيء... تبيد في طريقها كل شيء، فأين الإنسانية؟ وأين الشفقة؟ وأين الرحمة؟.

ب ـ قسوة أهل الكفر على بعضهم:

وقسوة أهل الكفر ليست محصورة على غيرهم ممن لا يعتنقون عقائدهم الجاهلية إنما امتدَّت هذه القسوة لتشمل أولئك الذين يدينون بدينهم، وانظر مثلاً إلى قسوة المسيحيين في تعاملهم مع بعضهم، ولعلنا إلى يومنا هذا نسمع بالجرائم التي يرتكبونها فيما بينهم في دولة إيرلندا الشمالية حول ما يسمى بالصراع بين البروتستانت والكاثوليك، ثم ما فعلته بريطانيا المسيحية في غزوها لجزر فولكلاند مع الأرجنتين الذين يدينون بالعقيدة النصرانية المحرفة، وما يفعلهُ البيض في جنوب إفريقيا ضد السكان الأصليين من السود وتجمعهم عقيدة الشرك الواحدة وهي النصرانية، ثم ما فعلته دول أوروبا الغربية المتحالفة بالشعب الألماني خلال الحرب العالمية الثانية، وكلهم يدينون بدين النصرانية.

وإليك هذه الوثيقة التاريخية التي إن دلت على شيء فإنما تدل على حقيقة التلازم بين الكفر على مختلف ألوانه وأشكاله وبين القسوة والوحشية والهمجية، فحين قدم النصارى من أوروبا واستولوا على القسطنطينية عام ١٢٠٤ م يقول البابا (آنست الثالث) في وصف ما فعلهُ هؤلاء في إخوانهم الأرثوذكس:

---

(١) ملحق جريدة المدينة السعودية عدد ٩١ تاريخ ١٤٠٥/٣/١٣ هـ ص ٢٠.

«إن اتباع المسيح وناصري دينه الذين كان يجب أن يستلوا سيوفهم ضد عدو المسيحية الأكبر (يعني الإسلام) قد سفكوا الدم المسيحي الحرام، وغرقوا في بحره، هؤلاء لم يحترموا الدين ولا السن ولا الجنس، فارتكبوا الزنى في وضح النهار، لقد سلمت الراهبات والعذارى والأمهات لوحشية الجنود، ولم يكتفِ هؤلاء بسلب ذخائر الأمبراطور، ولا نهب متاع الأفراد، بل لقد وضعوا أيديهم على أرض الكنائس وثروتها، وانتهكوا حرمات الكنائس وسلبوا أيقوناتها وصلبانها وآثارها ومخلفات القديسين»[1].

ويقول المؤرخ (شارل ديل): «لقد دخل الجنود السكارى من النصارى كنيسة سانت صوفيا، وأتلفوا الكتب المقدسة، وداسوا بأقدامهم صور الشهداء، وجلست عاهرة على كرسي البطريرك، وارتفع صوتها بالغناء»[2].

إنه يحق للمؤمن الذي يدين بالإسلام أن يعتز ويرفع رأسه باستعلاء حين يرى آثار رحمة الصحابة والتابعين بالنصارى واليهود وممن عاشوا في ديار الإسلام حيناً طويلاً من الزمان، وشهدوا بأنفسهم على عظمة الرحمة والعدالة التي عرف بها المجاهدون الفاتحون من السلف الصالح.

وماذا عن قسوة أهل الكفر من الشيوعيين فيما بينهم، أكتفي هنا بذكر صور من الإرهاب الذي مارسه ستالين مع رفاقه ضد رفاقهم من الشيوعيين، يقول (بوخارين): في عام ١٩١٩ م كنا نقاتل في سبيل بقائنا، وقد أعدمنا أناساً غير أننا خلال تنفيذ العمل كنا نحمل أرواحنا على أكفنا، أما الآن فإن ما يجري هو إبادة جماعية لرجال عزل مع زوجاتهم وأطفالهم»[3].

واقرأ هذه المراسيم والأوامر التي صدرت في عهد ستالين حتى تدرك قسوة أهل الكفر على بعضهم:

---

(١) من روائع حضارتنا ص ١٠٧.

(٢) مع روائع حضارتنا ص ١٠٨.

(٣) الكيد الأحمر ص ٢٨٢.

«ففي سنة ١٩٣٥ م صدر مرسوم يقضي بأن يعاقب بالسجن خمس سنوات من نقل سكنه، وفي العام نفسه في ٩ حزيران صدر مرسوم يقضي بأن يعاقب بالموت من فر إلى الخارج من العسكريين أو المدنيين، لذلك فمن عثر عليه يفر يقتل رمياً بالرصاص، وفي ٧ نيسان ١٩٣٦ م صدر مرسوم شديد الغرابة وهو يتضمن إمكان إنزال جميع العقوبات حتى عقوبة الموت بالأطفال في سن الثانية عشرة فما فوق، فغدا سن التكليف الكامل عند الشيوعيين ١٢ سنة فما فوق»[١].

وقد بلغ حصاد حكم ستالين من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٥٣ م بما لا يقل عن ثلاثين مليون ضحية»[٢].

أما قسوة أهل الكفر على بعضهم على مستوى الأفراد فقد بلغت حداً لا يطاق، وإليك هذه النماذج من واقع الحضارة الغربية التي أفلست من القيم الأخلاقية والإنسانية:

ففي مجال القسوة في التعامل مع الأطفال فقد نشرت مجلة نيويورك الأمريكية حديثاً عن الصرعة الأوروبية الحديثة ألا وهي اغتصاب الأطفال، وإن هذه الصرعة باتت تنتشر في معظم البلاد الأوروبية ومنها ألمانيا الغربية وفرنسا، وقد سردت المجلة مجموعة من القصص وقعت للأطفال يكاد الحيوان المتوحش لا يلجأ إليها مما ولدَّتْ للأطفال تأثيراً نفسياً أقرب إلى الإعاقة[٣].

وإليك هذه الحادثة: «فتاة فرنسية تبلغ من العمر ١٤ عاماً داخل إحدى عربات القطار في طريقها إلى أسرة انجليزية تقيم معها، فتقدم باتجاه الفتاة ثلاثة من الشبان، واعتدوا عليها بقسوة ووحشية، والأبشع من هذا أنه حدث

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٩.
(٢) الكيد الأحمر ص ٣٢٩.
(٣) مجلة المجتمع الكويتية عدد ٢٨ محرم عام ١٤٠٥ هـ. ص ٣٤.

أمام الركاب الذين فقدوا كل نخوة أو إنسانية أو شفقة، ولم يحرك أحدهم ساكناً على الرغم من صراخ التلميذة الصغيرة»[1].

وفي مجال القسوة في نطاق الأسرة أقرأ هذا الخبر:

«دام الخلاف بين الشقيق وشقيقته سنوات طيولة وقاطع كل منهما الآخر إلى أن اكتشفا أن أمهما توفيت عن عمر يناهز ثمانين عاماً وكانت قد ماتت داخل شقتها هي، وبقيت جثتها فيها تتحلل وتتعفن مدة عام كامل، حدث ذلك في ولاية مينيسونا الأمريكية»[2].

ألا ما أشنع هذه القسوة في التعامل مع أم عجوز يمضي على وفاتها عام كامل ولا يدري أولادها بحالها؟.

وفي مجال القسوة في تعامل أهل الكفر مع أنفسهم اقرأ هذه الإحصائية:

«قام مكتب الإحصاء في أمريكا بدراسة ظاهرة الانتحار، فأصدر تقريراً جاء فيه أن ٢١٣٧٨ ألف حالة وفاة عام ١٩٦٦ م حدثت نتيجة الانتحار، ويذهب أحد العلماء الأمريكيين (أورين شبندر) بأن عدد الذين لديهم ميول انتحارية يصل إلى عشرين مليون يمثلون ١٠٪ من الأمريكان»[3].

ولم ينج الموتى من قسوة أهل الكفر، وإليك هذا الخبر:

«شركة أمريكية تدعى (قراولر) لدفن الموتى أعلنت عن قائمة أسعارها في دفن الموتى، فقدمت الأسعار الآتية:

نقل الجثة من المستشفى إلى بيت الجنائز ٧٠ دولار، الحنوط ١٣٥ دولار، الصندوق ٢٢٠٠ دولار، إعداد الجثة للصندوق ٦٠ دولار، إيجار غرفة

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ـ الصفحة الأخيرة عدد الأحد ٢٤ شوّال عام ١٤٠٤ هـ.

(٢) جريدة الشرق الأوسط ـ الصفحة الأخيرة عدد ١٩ جمادي الأول عام ١٤٠٥ هـ.

(٣) مجلة التضامن الإسلامي السعودية ص ٥٣ ـ ٥٤ عدد رجب ١٣٩٩ هـ.

ليوم واحد ٤٠ دولار، زهـور ٥٠ دولار، نقل الجثـة إلى المقابـر ١٠٠ دولار، نقـل أهل الميت إلى المقـابر ٢٠٠ دولار، أعمـال كتابيـة و خدمـات العاملين ٩٠٠ دولار، المجموع في حدود ٤ آلاف دولار، هـذا غير شـراء قطعـة أرض في المقبرة، وكتابة اسم الميت. . . وهذه تصل إلى حوالي ألفي دولار»[1].

لقد وصلت القسوة بأهل الكفر إلى أن يجعلوا الموت تجارة، فكل شيء هناك في أمريكا تجارة حتى الميت لا ينجـو وقد فـارق الحياة من هـذه القسوة التي لا تعرف رحمة أو إنسانية أو شفقة.

بعد هذه الشواهد ـ ومـا أكثرهـا ـ يتأكـد لنا صـدق ما أثبتنـاه أن الإيمان الحق من ثمراته في واقع حياة الناس الرحمـة، الـرحمـة بالأطفـال، والرحمـة بالنساء، والرحمة بالحيوان، وأن الكفر من ثمراتـه السيئة القسـوة، القسوة مـع الإنسان، والقسوة مع الحيوان، والقسوة مع الميت، فما أحوج البشـرية اليـوم إلى منهج الإيمان الحق لحاجتها الماسة إلى الرحمة.

* * *

(١) جريدة المدينة ص ٩ عدد ٢٦ شوّال عام ١٤٠٤ هـ.



المبحث الثاني
الإيمان والصبر

- الصبر ثمرة إيمانية.
- مجالات الصبر.
- وسائل تعين المسلم على الصبر.



المبحث الثاني
الإيمان والصبر

١ - الصبر ثمرة إيمانية:

الصبر ثمرة من ثمرات الإيمان، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (البقرة ١٥٣)، وفي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (آل عمران ٢٠٠).

ورسول الله ﷺ في سنّته النبوية قرن الإيمان بالصبر في أحاديث كثيرة منها قوله: «فيما رواه مسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1]، وفي حديث آخر رواه الترمذي أنه ﷺ قال: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقىٰ الله تعالى وما عليه خطيئة»[2].

فما المراد من الصبر؟.

الصبر «قوة خلقية من قوى الإرادة، تمكن الإنسان من ضبط نفسه

(١) رياض الصالحين - باب الصبر.
(٢) المرجع السابق.

لتحمل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع والسأم والملل والعجلة والرعونة، والغضب والطيش»[٣].

٢ ـ مجالات الصبر:

وللصبر مجالات متعددة، أذكرها فيما يلي:

أ ـ الصبر على تكاليف الدعوة:

لقد ألقى الله تعالى على عاتق المسلم أمانة عظيمة، وحملهُ مسؤولية ثقيلة تتمثل في تبليغ دعوة الله إلى الناس، وهذه الوظيفة الكريمة قام بها أول من قام من الناس الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ومن أجلها، من أجل إخراجهم من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده نالوا ما نالوا من السخرية والإيذاء، ومن أجل أن يسلم الناس لرب العالمين سفكت دماء العشرات من الأنبياء[١] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (البقرة ٦١).

ومن صور الصبر على تكاليف الدعوة الصبر على الإيذاء المادي، وقد تعرض الأنبياء والرسل وأتباعهم لهذا النوع من الإيذاء فصبروا، فهذا الخليل إبراهيم عليه السلام تجمع له أكوام من الحطب، ثم يضرم فيها النيران، ثم يلقىٰ فيها الخليل صلوات الله وسلامه عليه لا لذنب فعله إلا لأنه دعاهم إلى إعطاء الألوهية والربوبية والسلطان لله وحده، وصبر النبي الداعية فجاء النصر من عند الله ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾.

وفي الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعود قال: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي أن نبياً من الأنبياء ضربه قومهُ فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢].

---

(١) الأخلاق الإسلامية الميداني ٢/٢٩٣.

(٢) مختصر ابن كثير ١/٢٧٤.

(٣) رياض الصالحين ـ باب الصبر ـ وقيل هذا النبي هو نوح عليه السلام.

وأتباع الرسل تعرضوا لهذا النوع من الإيذاء المادي فصبروا، وقد نقل القرآن الكريم مشهداً من مشاهد هؤلاء الدعاة الصابرين في سورة البروج ﴿ والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود. قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود ﴾ (البروج).

ففي نجران[1] في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ أمر طاغية من الطغاة بالأخدود في أفواه السكك فخُدَّتْ، وأضرم النيران، وقال من لم يرجع عن دينه، فأحموه فيها، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق[2].

قال القرطبي: (قال علماؤنا: أعلم الله عزّ وجلّ المؤمنين من هذه الأمة في هذه السورة ما كان يلقاه من وَحَّدَ قبلهم من الشدائد، وذكر لهم رسول الله ﷺ قصة الغلام[2] ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها ليتأسوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه، وعظم صبره وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم»[3].

وكان رسول الله ﷺ في بعض الأحيان ـ كما ذكر القرطبي ـ يذكر الصحابة بذكر الموحدين قبلهم على الإيذاء، فقد روى البخاري عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٢٨٧ ـ ٢٨٩.

(٢) المرجع السابق ١٩/٢٩٣.

(٣) المرجع السابق.

فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٤).

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يصبر على تكاليف الدعوة وتبعاتها فيقول سبحانه: ﴿ واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وها هو رسول الله ﷺ في مدينة الطائف قد اجتمع من حوله السفهاء والصبيان يسبونه ويشتمونه ويرمونه بالحجارة حتى خضبت قدماه بالدماء، فإلى من سيرفع رسول الله شكواه؟ وقف صلوات الله وسلامه عليه يدعو بهذا الدعاء صابراً محتسباً، مفوضاً أمره إلى الله:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، أنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري... إن لم يكن بك عَليَّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل فيَّ غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبىٰ حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»(١).

وتعرض صحابة رسول الله ﷺ للإيذاء الحسي فصبروا، فهذا أمية بن خلف يخرج بلالاً الحبشي رضي الله عنه وقت الظهيرة، فيطرحهُ على ظهره، في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يتهدده قائلاً: إنك ستظل هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد أو تعبد اللات والعزى، فكان بلال رضي الله عنه يردد بصبر وإرادة وعزيمة الهتاف الخالد: أحد أحد، أحد.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص.
(٢) حيٰاة الصحابة جـ ١/.

وكـان بنو مخـزوم يخرجـون آل ياسـر، الأم والأب والولـد، يعـذبـونهم برمضاء مكة، ويحرقون أجسادهم بالحديـد المحمّىٰ، فأمـا ياسـر فلم يتحمل العـذاب لكبر سنّـه فسقط شهيداً، وأمـا سمية فقـد أغلظت القـول لأبي جهـل فطعنها بحربة في أحشائها فكانت أول شهيدة في الإسلام، ومر رسـول الله ﷺ فرآهم فقال: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة[٣].

فما أحوج الدعاة في زماننا أن يتخـذوا الأنبياء السـابقين ورسول الله ﷺ وأصحابه قدوة لهم في طريق الـدعوة إلى الله في الصبـر على الإيذاء المـادي الذي يتعرضون له في بعض المجتمعات التي تعلن الحرب على الله ورسوله.

ومن صور الصبر على تكاليف الدعوة الصبر عن الإغراءات المادية التي قد تعرض للدعاة مقابل تخليهم عن الدعوة إلى الله، ولنا في رسول الله القدوة الحسنة، فقد بعثت قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليقول له[١]:

«يا محمد إن كنت تـريد بمـا جئت به مـالاً جمعنا لـك من أموالنـا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، وإن كنت تريـد به ملكـاً ملكناك علينا. . . فلما فرغ قال له رسول الله ﷺ: «استمع مني يـا أبا الـوليد، باسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ إلى قولـه تعـالى: ﴿ فإن أعـرضوا فقـل أنذرتكم صـاعقـة مثـل صـاعقـة عـاد وثمـود ﴾ (فصلت)[٣].

ومن الصبر على تكاليف الدعوة الصبر على حرب الشبهات والإشاعـات التي تثيرها الجاهلية وأتباعها على الدعوة من جانب، وعلى حملتها من جـانب آخر، وهذا ما سلكته الجاهلية الأولى مع قادة الدعوة، وهم الأنبياء والرسل.

ومن هذه الشبهات التي أثاروها اتهام الرسل بأنهم سحرة ومجانين، قال

---

(١) حياة الصحابة ـ جـ ١/ .

(٢) حياة الصحابة جـ ١/ .

(٣) الآية ١٣ .

تعالى: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ (الذاريات ٣٩).

ولنا في رسول الله صلوات الله وسلامه عليه القدوة في الصبر على حرب الشبهات والإشاعات فقد اتهموه باتهامات شتى، اتهموه في دعوته حين قالوا: (إن هذا إلا أساطير الأولين)[1] واتهموه في شخصه الكريم فقالوا: حيناً إنه كاهن أو شاعر، وقالوا حيناً آخر: إنه كاذب أو ساحر (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون[2] بل وصل الأمر بالمنافقين في المدينة المنوّرة أن يتهموه في عرضه وشرفه حين أشاعوا حادثة الإفك، ومع ذلك صبر رسول الله ﷺ على تلك الشبهات والإشاعات ليضرب بذلك أعظم القدوة للدعاة إلى الله في كل عصر وجيل.

ب ـ الصبر على تكاليف الجهاد:

والجهاد في ساحات الوغى وبين صهيل الخيول، وصليل السيوف، وتطاير الرماح، ولمعان الأسنّة، ونزف الدماء يحتاج إلى مزيد من الصبر والمصابرة، ولهذا فإن القرآن الكريم قرن بين الصبر والجهاد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ (النحل ١١٠)، وفي مواجهة المسلمين للأعداء يدعوهم الله إلى التحلي بالصبر كسبب من أسباب النصر فيقول: ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ (الأنفال ٦٥)، ويجعل المولى تبارك وتعالى الصبر في مواطن الجهاد سبباً لدخول الجنة فيقول: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (آل عمران ١٤٢)، فدخول الجنة لا يحصل حتى يتبلىٰ المؤمنون، ويرى الله المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء[1].

---

(١) الأنعام ٢٥.

(٢) الحاقة ٤١ ـ ٤٢.

(٣) مختصر ابن كثير ١/٣٢١.

ولقد صبر رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يجاهدون لإعلاء كلمة الله. وإليك صورتين من صبر رسول الله في جهاده.

ففي غزوة أحد حين انكشف المسلمون خلص إلى رسول الله ﷺ، فرماه عقبة بن أبي وقاص فكسر رباعيته اليمنى، وجرح شفته السفلى، وشج عبد الله بن شهاب الزهري رسول الله في جبهته، وجرحه ابن قمئة في وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر المشرك ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون.. وجعل الدم يسيل على وجهه صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»[٢].

وفي غزوة حنين شد المشركون على الصحابة في وادي حنين شدة رجل واحد على غفلة منهم، فانفضوا راجعين لا يلوي أحد على أحد، فانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين وهو يقول:

إليَّ أيها الناس؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، فما بقي مع رسول الله ﷺ إلا نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيته[١] والصحابة يومئذٍ إثنا عشر ألفاً[٢].

وإليك أيضاً صورتين من صبر الصحابة وهم في أرض الجهاد يقاتلون لإعلاء كلمة الله.

فعلى أرض أحد وحينما أحاط المشركون برسول الله ﷺ بعد نزول الرماة رأى أنس بن النضر انقضاض بعض الصحابة فقال: (اللهم إني أعتذر إليك ممع صنع هؤلاء (يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين)، ثم تقدم فاستقبلهُ سعد بن معاذ فقال له: يا سعد الجنة ورب

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٦٣ مؤسسة الرسالة ط ٢/١٩٨١.
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥.
(٣) المرجع السابق ص ٢٦٥.

النضر إني أجد ريحها دون أُحُد، قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه[1].

وفي يوم اليمامة[2] حمل سالم مولى أبي حذيفة اللواء، فقال له المسلمون: يا سالم إنا نخاف أن نؤتى من قبلك، فقال: بئس حامل القرآن أنا، إن أتيتم من قبلي، واستمات في القتال وفي يده راية المهاجرين ثم قال: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله، فحفر لنفسه حفرة كخندق، وقام فيها يقاتل وقطعت يمينهُ فأخذ اللواء بيساره، فقطعت يساره فاعتنق اللواء وهو يقول: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل[3] وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثيرا[4] حتى سقط رضي الله عنه شهيداً[5].

جـ ـ الصبر على مصيبة الموت:

إنه مما لا شك فيه أن الموت سنّة الله في خلقه، فقد قضى الله تعالى أن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن كل نفس ذائقة الموت، فالناس ميتون أسياداً كانوا أم عبيداً، أغنياء أم فقراء، شباباً أم كهولاً، نساءً أم رجالاً، فأين الأمم التي عاشت فوق البسيطة حيناً طويلاً من الزمان؟ فأين أمة فرعون؟ وأين أمة عاد وثمود؟ وأين أصحاب مدين والأيكة؟ إنهم عظام نخرة ولحوم بالية.

والمسلم قد يصاب في الحياة بمصيبة الموت، وقد يفقد زوجته وقد يتوفى عنه ولده، وقد تداهمهُ مصيبة عامة من زِلزال أو فيضان أو بركان، أو كارثة سيارة أو طائرة فيخسر فيها أسرته جميعاً، وخير وسيلة تعينهُ على هذه المصيبة الصبر والتسليم لله.

---

(١) رياض الصالحين ـ باب المجاهدة.

(٢) شهداء الإسلام ص ٥٧.

(٣) آل عمران ١٤٤.

(٤) آل عمران ١٤٦.

(٥) شهداء الإسلام ص ٥٧.

ولقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى ذلك كما جاء في مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان في قوله: (إذا مات ولد لعبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة سموه بيت الحمد).

ومن توجيهه ﷺ في الصبر على مصيبة الموت أن المسلم إذا جاءه من يخبره بوفاة عزيز عليه فعليه أن يتذرع بالصبر عند الصدمة الأولى وألَّا يضيق صدره، ويضطرب فؤاده، وترتجف أعصابهُ، وتخور قواه لهذا الخبر، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ أتى على امرأةٍ تبكي على صبي لها، فقال: اتقِ الله واصبري فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله، فأخذها مثل الموت، فأتت به، فلم تجد على بابه بوابين فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

قال ابن قيم الجوزية معلقاً على هذا الحديث:

«إن مفاجأت المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب، وتزعجه بصدمها، فإن صبر للصدمة الأولى انكسر حدها، وضعفت قوتها، فهان عليه استدامة الصبر... وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدي شيئاً جاءت تعتذر إلى رسول الله كأنها تقولُ له قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى»[1].

ولنا في مواجهة مصيبة الموت القدوة الحسنة في حياة الصحابة، ففي صحيح البخاري عن أنس قال: اشتكى ابن لأبي طلحة رضي الله عنه، فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأته امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً وسجته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الصبر.

(٢) رياض الصالحين ـ باب الصبر.

أن يكون قد استراح، فظن أبو طلحة أنها صادقة، قال: فبات معها، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره ما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما».

قال ابن عُيَيْنَة: فقال رجل من الأنصار رأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن(٢).

وامرأة أبي طلحة رضي الله عنها إنما فعلت ذلك لتبين أنه ليس من الإسلام في شيء أن تقابل المرأة المسلمة نبأ الوفاة بشق الثياب، وتمزيق الشعر، ولطْم الخدود، وشق الجيوب، إنما خير وسيلة تلجأ إليها المسلمة لمواجهة هذه المصيبة هي الاستعانة بالصبر.

د ـ الصبر على مصيبة المرض:

قد يصاب الإنسان بمرض في بدنه لسببين اثنين:

- إما أن يكون قد أهمل رعاية صحته فوقع فيما حرم الله ورسوله، فما يصيبه من مرض فبما كسبت يداه.
- وإما أن يكون قضاء من الله وقدراً عليه لابتلائه واختباره، ومواجهة المرض يكون بسلاحين اثنين:

فأما السلاح الأول فهو التداوي والأخذ بالأسباب انطلاقاً من حديث رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا وأنزل معه دواء، فإذا أصاب الدواء الداء برىء بإذن الله».

ويخطىء الذين يستسلمون لأمراضهم بدعوى أن هذا بلاء من الله، أو أن الدواء لا ينفع مع قضاء الله، كذلك يخطىء من يحاول وقاية المرض بالتعاويذ والرقي والتمائم التي تخالف هدى القرآن والسنّة.

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الصبر.

وأما السلاح الثاني فهو التسليم لله، والصبر على محنة المرض.

وقد ضرب الله في القرآن الكريم مثلاً يحتذى به في مقام الصبر على لأمراض فقال تعالى: ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه أهله ومثلهم معهم، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ (الأنبياء ٨٥).

«وأيوب عليه السلام هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله (أني مسنى الضر) ووصف ربه بصفته (وأنت أرحم الراحمين)، ولا يقترح شيئاً على ربه تأدباً لله وتوقيراً، فهو نموذج للعابد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي أصابه، ويتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانا إلى علمه بالحال، وغناه عن السؤال.

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب عليه السلام إلى ربه بهذه الثقة، وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية البلاء[1].

وهذا عروة بن الزبير أحد التابعين رضي الله عنه لما وقعت في رجله الأكلة جمع الوليدُ بنُ عبد الملك له الأطباءَ فأجمعوا على أنهم إذا لم ينشروها قتلته، فقال: شأنكم بها، قالوا: نسقيك شيئاً لئلا تحس بما نصنع بك، قال: لا، شأنكم بها، فنشروها بالمنشار، فلما رأى القدمَ بأيديهم دَعَا بها فَقَلَّبَهَا في يده ثم قال: «أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام قط، ودخل ابن له هو أكبر أولاده اصطبله فرفسته دابة فقتلته فقال رضي الله عنه حين علم بوفاته وهو في مجلسه: اللهم إنه كان لي أربعة أولاد فأخذت واحداً، وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد، والله لئن أخذت فلقد أبقيت، ولئن ابتليت طالما عافيت»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ١/٢٣٩٢.

(٢) صفة الصفوة ٣/٨٦ - ٨٧.

فما أعظم هذا الصبر صبر على مصيبة وفاة ولده، وصبر على مصيبة المرض ونشر رجله.

هـ ـ الصبر على طاعة الله:

ومن مجالات الصبر، الصبر على طاعة الله، ومن الأدلة على أن القيام بالواجبات الدينية تحتاج إلى صبرٍ ما يأتي:

ـ فمن العبادات ما يكون أداؤها شاقاً على النفس بسبب الكسل كالصلاة ولهذا قال تعالى: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[1] ومنها ما يكون أداؤها شاقاً على النفس بسبب البخل كالزكاة، ولهذا أمر الله تعالى نبيهُ أن يعبده ويصطبر على عبادة ربه (فاعبده واصطبر لعبادته)[2].

ـ ومخالطة الناس والتعامل معهم بالحسنى، يحتاجان إلى صبر، قال تعالى: ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون؟ ﴾[3] فهذه الآية تدل على أن ضمن مجالات الامتحان الرباني للناس امتحان بعضهم ببعض، والنجاح في هذا الامتحان يحتاج إلى صبر.

ـ وكظم الغيظ، وإخماد جذورة الغضب، والدفع بالتي هي أحسن أمور تحتاج إلى التحلي بخلق الصبر كما قال تعالى: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[4].

ومن الصبر على طاعة الله اجتناب محارمه ونواهيه، ومقاومة الهوى، ودفع ما تشتهيه النفس، وما يميل إليه الطبع، قال تعالى: ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾، ونهيُ النفس عن

---

(١) طه ١٣٢.
(٢) مريم ٦٥.
(٣) الفرقان ٢٠.
(٤) فصلت ٣٥.

أهوائها ورغباتها وشهواتها ومطامعها وآمالها يحتاج إلى صبر.

* * *

٣ ـ وسائل تعين المسلم على الصبر:

إذا كان الإنسان معرضاً للمحنة والمصيبة في كل أحواله، محنة في دعوته، محنة في جهاده، محنة في نفسه وأهله وماله، فكيف يستطيع المسلم أن يواجه هذه المحن والمصائب؟ ثم ما هي الوسائل التي تعينه على الصبر؟.

هناك وسائل كثيرة أذكر منها ما يأتي:

* الالتجاء إلى الله:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ (البقرة).

بقول ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ يهون كل شيء أمام المسلم، فيهدأ قلبه، وتسكن روحه، ويطمئن فؤاده، وتزول المصائب والمحن ويثبت أمامها وإن كانت كالجبال الشامخة والأعاصير العاتية، فالمآل إلى الله، والمرجع إلى الله، والإنسان بل الناس، بل الكون كله لله، فلماذا الضجر؟ ولماذا الفزع والجزع؟.

بقول ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ يلتجأ المسلم إلى قوة الله التي لا يعجزها شيء فينزل الله عليه صلواته ورحماته ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾.

وما أحسن ما قاله شاعر حكيم:

إذا بليت فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... ما لامرىء حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأس إن الصانع الله

ب ـ الصلاة:

الوسيلة الثانية التي تعين المسلم المصاب على الصبر هي الصلاة:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ فبالصلاة يتصل المسلم بالله القادر القاهر الذي يملك القوة والملك جميعاً، وبالصلاة يرتفع المسلم عن التعلق بالأسباب المادية القاصرة، ويتوجه بقلبه إلى مالك الأسباب، بل إلى مالك الكون كله، فيزداد أملًا وتفاؤلاً، وينشرح صدره، وتطمأن نفسه.

إنها كما قال صاحب الظلال رحمه الله «الروح والندى في ظلال الهاجرة إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود»[1].

ومن هنا كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة وإذا نزلت به شدة قال: أرحنا بها يا بلال.

ولقد أثبت علماء النفس لما للعبادات الإسلامية وفي مقدمتها الصلاة من تأثير كبير في إدخال السعادة والطمأنينة في نفوس المصابين بالأمراض النفسية نتيجة تعرضهم لمحن وأمراض في حياتهم.

جـ ـ احتساب الأجر عند الله:

ومما يعين المسلم على مواجهة المصيبة احتساب الأجر عند الله، فإذا أصيب في دعوته وجهاده تذكر قول رسول الله ﷺ كما في الحديث المتفق عليه «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[2].

وإذا أصيب في بدنه تذكر حديث رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم:

«من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله دخل على امرأة فقال لها: مالك تزفزين؟ قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، قال: لا تسبى الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير الخبث».

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٤٢.

(٢) رياض الصالحين ـ باب الصبر.

وإذا أصيب في زوجته أو ولده تذكر حديث رسول الله ﷺ كما في حديث الترمذي:

«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة».

* * *



المبحث الثالث
الإيمان وهداية القلوب

- أقسام القلب.
- وسائل علاج أمراض القلب.
- الإيمان وطمأنينة القلب.



المبحث الثالث
الإيمان وهداية القلوب

لقد خلق الله الإنسان لحكمة جليلة، وغاية عظيمة، تلكم هي إقامة خلافة الله في الأرض، وتحقيق عبوديته الكاملة عليها، «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة»[1] (البقرة)، وزودهُ بمواد العلم والعمل من السمع والفؤاد للقيام بذلك، وجعلهُ مسؤولاً عن هذه الأعضاء إن خيراً فخير، وإن شراً فشر كما قال سبحانه: ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾.

وصلاح أعضاء الإنسان مرتبط بصلاح عضو هام، ألا وهو القلب، فبفساده يفسد البدن، كله وبصلاحه يصلح البدن كله، مصداقاً لحديثه ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله».

والقلب لا يصلح ولا يهتدي إلا بالإيمان لقوله تعالى: ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه، والله بكل شيء عليم ﴾ (التغابن ١١).

١ ـ أقسام القلب:

والقلب كما يرى ابن قيم الجوزية رحمه الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القلب السليم، والقلب الميت، والقلب المريض.

---

(١) ٣٠.
(٢) الإسراء ٣٦.

* القلب السليم:

القلب السليم هو القلب الذي يكون صاحبهُ مستسلماً لله في أقواله وأفعاله، وسره وعلانيته، وظاهره وباطنه، فهو إن أحب أحب في الله، وإن غضب غضب لله، وإن منع منع لله، وإن أعطى أعطى لله، وإن آخى آخى في الله، وإن جاهد جاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، وإن حكم حكم بنظام الله وشرعه، وإن أحل أحل ما أحله الله، وإن حرم حرم ما حرم الله، إنه القلب الذي قال عنه ابن قيم الجوزية:

«هو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيهُ، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبته لله، وفي خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته على كل حال، والتباعد عن سخطه بكل طريق»[1].

وهذا القلب السليم هو الذي قال عنه سبحانه: ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[2].

وأصحاب هذه القلوب السليمة هم الذين يجب أن يصاحبوا في الحياة الدنيا، وهم الذين يُبْحَثُ عنهم ويطلبون في كل مكان، وتبذل المشاق من أجل الوصول إليهم، لأن في مخالَطَتِهم دواء، وفي مصاحبتهم عافية، وفي مؤاخاتهم نجاة.

* القلب الميت:

أما القلب الميت فهو ذلك القلب الذي لا حياة فيه، إنه مجرد عضلة نابضة ولكنها لا تنبض بنبضات الإيمان، ولا تتدفق فيها دماء الحياة التي بها تقوم الأرواح وتحيا.

فهو كما وصفهُ ابن قيم الجوزية:

«القلب الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره... بل هو

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ص ٧.
(٢) الشعراء ٨٩.

واقف مع شهواته ولذاذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه . . . إن أحب لهواه، وإن أبغض لهـواه، وإن أعطى أعـطى لهواه، وإن منـع منـع لهـواه، فـالهـوى إمامهُ، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه»[1].

وأصحاب هذه القلوب على أصناف متنوعة، فالكفرة الجاحـدون لوجـود الله هم أصحاب هذه القلوب الميتة، والمستكبرون عن عبـادة الله. والخضوع لسلطانه وأحكامه، والمتبعون لشهوات بطونهم وفروجهم ولذائذهم هم كذلـك من أصحاب هذه القلوب الميتة.

«ومخـالـطة صـاحب هـذا القلب سقم، ومعـاشـرتـه سم، ومجـالستـه هلاك»[2].

* القلب المريض:

والقلب المـريض وسط بين القلب الميت والقلب السليم، فـإذا غلبت عليـه صفات الشهـوة، واللذة. والبهيمية كـان إلى القلب الميت أقـرب، وإذا غلبت عليه صفات العبودية والخضوع والمحبة واللين والاستسـلام لله كان إلى القلب السليم أقرب.

* * *

٢ ـ وسائل علاج أمراض القلب:

ولكي يحـافظ المسلم على بقاء قلبـه، سليماً معـافى، ويعالـج قلبـه إن أصابه شيء من القَسَوةِ والصدأ كان لا بد من تبيان الوسائل العلاجية في ذلـك وأذكر منها ما يأتي:

* اجتناب المعاصي:

إن المعـاصي التي يقع المسلم فيهـا لا بد أن تتـرك آثارهـا السيئـة على

---

(١) المرجع السابق ١/٩.

(٢) إغاثة اللهفان ١/٩.

القلب، كما قال تعالى: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (المطففون).

«فالقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظْلِم، وَيَرِينُ عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه، ويحجبه عن النور، ويفقده الحساسية حتى يتبلد ويموت»[1].

روى الترمذي والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت»، ولفظ النسائي «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانون يكسبون ﴾.

وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ويموت[2]، وفي الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال:

«تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تغدُو القلوب على قلبين قلب أسود مِرْبَاداً كالكوز مُجْخيًا، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضرهُ فتنة ما دامت السموات والأرض».

ورسول الله ﷺ يبين في هذا الحديث أن القلب المريض إذا عرضت عليه تلك الفتن أشر بها وكأنما القلب في مثل هذه الحالة بمثابة إسفنج يمتص الماء ويشربه فلا يدع منه قطرة واحدة، وحينئذٍ تنكت في القلب نكتة سوداء حتى يصبح مع تراكم النكت السوداء كالكوز منكوساً، ووجه الشبه هنا أن

---

(١) في ظلال القرآن ٣٨٥٨/٦.

(٢) المرجع السابق ٣٨٥٨/٦.

القلب يصل إلى درجة لا يقبل معها خيراً أو حكمة كالكوز المنكوس الذي لا يثبت في قاعه الماء.

فإذا أصيب القلب بمرض النكت السوداء أدى ذلك إلى أمراض جانبية خطيرة ومنها، أن هذه القلوب لا تنكر المنكر، ولا تعرف المعروف، بل تصل في بعض الأحيان إلى جعل المعروف منكراً، وجعل المنكر معروفاً، وذلك مبلغ عظيم من الانحراف عن صراط الله وسنّنه.

والذي لا يتبع منهاج الله في تحديد المنكر والمعروف لا بد أن يكون متبعاً لهواه، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله:

«إلا ما أشرب من هواه».

والنوع الثاني: من القلوب هي تلك التي تعرض عليها الفتن والمعاصي فتأباها لأنها منارة بنور الإيمان، وترفضها لأنها محاطة بسياج من نور الله، وتلكم هي قلوب عباد الله المستمسكين بكتابه، والمهتدين بهدى رسوله ﷺ.

*** الإكثار من تلاوة القرآن الكريم:**

ومن سبل علاج القلوب المريضة الإكثار من تلاوة القرآن الكريم، ومما لا شك فيه أن خيرَ وقاية للقلوب من الإصابة بجراثيم الشهوة والغفلة والنسيان والنكت السوداء إنما هو كتاب الله، قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[1] فالقرآن الكريم موعظة وشفاء للقلوب وهدى ورحمة للمؤمنين بالله.

روى البيهقي في شعب الإيمان أن رسول الله ﷺ قال:

«إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء، قيل يا رسول الله: وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت، وتلاوة القرآن».

ولكي يكون القرآن الكريم دواء ناجعاً فلا بد من التدبر في معاني آياته

---

(١) يونس ٥٧.

تدبراً يدفع عن القارىء الغفلة أو الشرود والنسيان، والقلب المتفتح هو ذاك الذي يتدبر كلام الله، ولا يغفل عن معناه كما قال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾(1).

قال الحسن البصري: «إن من كان قبلكم ـ يعني الصحابة ـ رأوا أن هذا القرآن رسائل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها في النهار».

والقلوب السليمة هي التي وصفها الله بقوله:

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾(2) والقلب القاسي قد يجد معاناة في بادىء الأمر لدى تلاوته لكتاب الله، وربما ضاق صدره ولكنه بالإخلاص لله، وطلب العون منه، والإقبال إليه، والتدبر في كلامه سرعان ما يجد في ترتيله وتلاوته حلاوة ما بعدها حلاوة.

* **الإكثار من ذكر الله:**

وذكر الله وسيلة هامة من وسائل إزالة الصدأ والقساوة من القلوب، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في حديث البخاري: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت»، فبذكر الله تطمئن القلوب وتحيا ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبالغفلة عن ذكره تصدأ وتموت وتقسو.

والأحاديث في فضائل الذكر كثيرة منها ما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون لله كثيراً والذاكرات».

ومما يستحب الإكثار من ذكره ما جاء في الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير في يومه مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذاك حتى

---

(1) محمد ٢٤.

(2) الأنفال ٢.

يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه».

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ يحضُ على الإكثار من قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويجعله مائة مرة، وذلك لأن القلوب القاسية المريضة لا يؤثر فيها إلا الإكثار والتكرار، فكما أن العضو إذا أصابه مرض عضال، طلب الطبيب من صاحبه أن يتعاطى الدواء أياماً وربما شهوراً على أن تكون الجرعات الدوائية متتالية متتابعة، فكذلك مرض القلوب إذا استعصى على صاحبه كان لا بد من ملازمة هذا النوع من الذكر والإكثار منه ليكون هذا الدواء ناجعاً ومفيداً.

ورب قائل يقول: ما فائدة الذكر والإكثار منه للذي يحمل بين جنبيه قلباً سليماً؟ والجواب على هذا أن ذكر الله وسيلة وقائية تقي القلب السليم من الإصابة بمرض الغفلة أو الهوى أو النسيان أو الصدأ، فلكي يظل قلب المسلم سليماً من جميع الأمراض والأسقام كان لزاماً عليه أن يتخذ لنفسه وردا من الأذكار المأثورة الصحيحة الثابتة في السنّة النبوية يداوم عليه، ويلتزم به، فإن فعل ذلك كانت تلك الأذكار حفظاً له ووقاية.

*** الإكثار من ذكر الموت:**

ومما يلين قساوة القلب، ويجلي صدأه ورانه الإكثار من ذكر الموت، ولقد مضى في الحديث الذي رواه البيهقي أنه ﷺ قال: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء، قيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت، وتلاوة القرآن»، وفي حديث الترمذي أنه ﷺ أوصى أصحابهُ وأمته من بعدهم فقال: ﴿ أكثروا من ذكر هازم اللذات ﴾.

وهذا الدواء في علاج أمراض القلوب دواء فعال، وتأثيره مضمون إذا أخذ بإخلاص ويقين، وقد جاءت امرأةٌ إلى عائشة رضي الله عنها تشكو إليها قساوة قلبها، فقالت: عائشة: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت، فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٥٦٠ مؤسسة الحلبي وشركاه ط ١٩٦٧ م.

والصحابة رضوان الله تعالى عليهم سلمت قلوبهم وصحت لأنهم كانوا يعالجونها بهذا الدواء الذي وصفه رسول الله: «أكثروا من ذكر هازم اللذات» فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء) وكان الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يقول: (ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل).

وقد قال بعضهم في هذا المعنى:

تأهب للذي لا بد منه ... فإن الموت ميقات العباد
أترضىٰ أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

وقال آخر:

يا من بدنياه اشتغل ... وغره طول الأمل
الموت يأتي بغتة ... والقبر صندوق العلم

هذه هي أهم الوسائل العلاجية لعلاج أمراض القلوب اجتناب المعاصي، الإكثار من تلاوة القرآن، الإكثار من ذكر الله، الإكثار من ذكر الموت... من أخذ بها، وأحالها إلى تطبيق على دخل في قوله تعالى:

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[1].

* * *

٣ - الإيمان وطمأنينة القلب:

ومن ثمرات الإيمان وآثاره أن الإيمان يبعث الطمأنينة في القلب والسكينة في النفس، ويقي الإنسان من الأمراض النفسية التي شاعت في المجتمعات البشرية في هذا القرن، يعرف أحد العلماء المختصين بعلم النفس المرض النفسي فيقول:

---

(١) الشعراء ٨٩.

«هو حالة من الصراعات الداخلية، وتصدع العلاقات الشخصية. الاجتماعية، يصاحبها ظهور أعراض مختلفة أهمها القلق والخوف والاكتئاب والوساوس، الأفعال القهرية، الحساسية الزائدة، اضطرابات النوم، الأمراض الهستيرية»[1].

والمؤمن الحق لا مكان للصراعات الداخلية في نفسه ما دامت هذه النفس قد استقت تعاليمها ومبادئها وتصوراتها من ينبوع القرآن الصافي، ولا مكان للأمراض النفسية والعصبية والهستيرية ما دامت هذه النفس المؤمنة قد تربَّت على عقيدة التوحيد، تلك العقيدة التي تمنحه السكينة والصبر إذا ألمت به النائبات، وتمنحهُ الطمأنينية والتسليم لله إن تعرض لعوادي الدهر، ومصائب الزمان.

وها هو ابن القيم يقول:
(في القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكن إلا بالاجتماع عليه، والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه، والصبر على ذلك إلى وقت لقائه).

ونظرة إلى أوضاع الذين يعيشون في بلاد الغرب تظهر أهمية الإيمان في إضفاء الأمن والسكينة على النفس، ففي السويد مثلاً وهي من أرقى دول العالم مادياً أذاعت وزارة الشؤون الاجتماعية فيها عام (١٩٧٣ م) تقريراً خطيراً ذكرت فيه أن ٢٥٪ من سكان السويد مصابون بأمراض عصبية ونفسية، وأن ٣٠٪ من مجموع النفقات الطبية تنفق في علاج هذه الأمراض[2].

وفي أمريكا أشار تقرير مكتب الإحصاء أن (٢١٣٧٨) ألف حالة وفاة عام ١٩٦٦ م حدثت نتيجة الانتحار[3].

---

(١) مجلة الدعوة السعودية عدد ٧١٨ ـ ٣ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ.
(٢) مجلة التضامن الإسلامي ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٣) مجلة التضامن الإسلامي ص ٥٣.

وفي ألمانيا الاتحادية ذكرت الأبحاث العلمية أن عدد الأطفال والشباب الألمان الذين يحاولون الانتحار بسبب الضغوط النفسية في ازدياد مستمر فقد زاد عدد محاولات الانتحار في الفترة ما بين عام (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ م) بنسبة ١٠٪[١].

وأثر الإيمان في زرع السكينة والطمأنينة في نفس صاحبه هو ما اعترف به ممن كان يدين بغير الإسلام، فلما هداه الله تعالى إلى هذا الدين الحق وجد أن الضياع النفسي الذي كان يعيشهُ قد تلاشى، وأن التمزق الروحي الذي كان يعاني منه قد تبدد، يقول: (الآن قلت) الذي تسمى (له على عمر) بعد إسلامه:

«لقد اخترت الإسلام لأنه دين عقلاني، دين روحاني أصيل، بعد أن ضقت ذرعاً بمادية الغرب... في الشرق هنا أشعر بالأمن النفسي والمادي معاً... إن الشباب الأوربي يعيش الآن في تمزق روحي وضياع نفسي بغيض، والإسلام هو القادر على أن يكفل إيجاد الدواء الناجع لأمراض البشرية جمعاء»[٢].

والإيمان الحق هو خير وسيلة لعلاج المصابين بالأمراض النفسية، وإعادة الهداية إلى قلوبهم، والطمأنينة إلى نفوسهم، يقول الدكتور يسرى عبد المحسن أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بكلية طب قصر العيني بجامعة القاهرة عندما سئل عن حالة طالب يتردد إلى العيادات النفسية، ويعاني تمزقاً داخلياً:

«عندما بدأت علاج هذا الشاب وجدت أنه لا يفكر في الله سبحانه وتعالى، وأنه يعتقد أن وجود الله أو عدم وجوده شيء عبثي، ولذلك قررت أن أتعامل معه بدون دواء، وبالتدريج بدأت أقنعهُ بأن الدين موجود داخله

---

(١) مجلة البلاغ الكويتية ص ٥٦.

(٢) مجلة الرسالة الإسلامية ـ العددان ٩٠ ـ ٩١ ربيع الأول والآخر ١٣٩٦ هـ.

بالفطرة، وأنه عندما يتحدث عن وجوده أو عدمه فإن هـذا لن ينفي وجوده في الفطرة، وفي جلسة تـالية قـال لي، لقد فكـرت أن أصلي، وبعد فتـرة جاءني وقال لي: أنا الآن أصلي، وبالفعل بدأ هذا الشاب يهدأ ويستريح، والحمد لله شفي بدون أدوية، شفي بالإيمان بالله»[1].

وعـرضت حالـة امرأة تعـاني من مرض الاكتئاب عـلى الـدكتور يسـرى فقال:

«كثير من حالات الاكتئاب التي تأتي لي تكون بسبب عدم الالتـزام بأداء الفرائض الدينية وهؤلاء أحاول أن أعيد إليهم الصلة التي تربطهم بالله سبحـانه وتعالى، وهذه السيدة سألتها: هل تصلين؟... قالت: لا، قلت لها: جربي، ومرة ثانية حضرت لي وقالت: جربت الصـلاة بانتـظام وبدأت تنتـظم، سألتهـا هـل تصـومين؟ قـالت: لا، قلت: جـربي أن تصـومي يـومـاً في الأسبـوع ثم يـومين، وبالتـدريج بـدأت تنتظم في أداء العبـادات، وفي نفس الوقت بـدأت أقلل من استخدام الأدوية، وهي تزيد من التصاقها بـالدين، حتى جـاء الوقت الذي منعت عنها الدواء، وزال الاكتئاب»[2].

وسئل الدكتـور أحمد عكـاشة أستـاذ الطب النفسي بجـامعة عين شمس عن حالة شاب جامعي فيها، ويشعر بيأس قاتل فقال:

«في البداية حاولت معه كثيراً، ولم أحصل على نتيجـة، ثم وجدت أنـه لا يملك أي ثقافة إسلامية، فقلت له: لنترك كل هذا العلاج الذي بـدأنا بـه، ونبدأ بقراءة القرآن الكريم، وحاول أن تصلي، وبعد شهر جاءني، وقـد تحول إلى إنسان مختلف تمامـاً، ولا مني لأنني لم أرشده لهـذا العلاج من البـداية، وقال لي: إنه وجـد أن العلاج عنـد الله سبحانـه وتعالى أقـوى وأفضل من أي علاج»[3].

* * *

(١) المسلمون ص ٨ العدد ١٧ السبت ١٣ ـ ١٩ رمضان ١٤٠٥ هـ.

(٢) المرجع السابق.

(٣) جريدة المسلمون ص ٩ عدد ١٧ السبت ١٣ ـ ١٩ رمضان ١٤٠٥ هـ.

المبحث الرابع

الإيمان والاستعلاء على شهوات الدنيا

- قيمة الدنيا في ميزان القرآن والسنّة .
- حال رسول الله وأصحابه .
- منهج المؤمن في النظر إلى الحياة الدنيا .



المبحث الرابع
الإيمان والاستعلاء على شهوات الدنيا

١ ـ قيمة الدنيا في ميزان القرآن والسنّة:

الاستعلاء على شهوات الدنيا، والزهد فيها، والتقلل منها، وعدم الالتهاء بأموالها وملذاتها ثمرة من ثمرات الإيمان، وإلى هذا المعنى أشار المولى عز وجلّ في محكم كتابه فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾.

فما قيمة الدنيا في ميزان القرآن والسنّة؟.

لقد بين الله تعالى في محكم كتابه قيمة الدنيا وتفاهتها وحقارتها قياساً لما ادخرهُ لعباده الصالحين في الجنة، فالدنيا لهو ولعب، والحياة الحقيقية إنما هناك، هناك في الآخرة ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (العنكبوت ٦٤).

«فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهواً ولعباً حين لا ينظر فيها إلى الآخرة، حين تكون هي الغاية العليا للناس، حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة، فأما الحياة الآخرة فهي الحياة الفائضة بالحيوية، هي الحيوان لشدة ما فيها من الحيوية والامتلاء»[١].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٥١.

وضرب الله مثلاً في القرآن الكريم فجعل الحياة الدنيا كمثل زرع خضر يصبح بعد ذلك حطاماً ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ (الحديد ٢٠).

إنه سبحانه يوهن أمر الحياة الدنيا ويحقرها[1]، فهي زينة وتفاخر وتكاثر، ومثلها كمثل الزارع يعجبهُ نبات ذلك الزرع الذي ينبت بالغيث، وكما يعجب الزارع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها، وأميل الناس إليها، ثم ماذا يحدث لذلك الزرع؟ «يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعدما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً، وهكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه، يكون غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، وإذا كان هذا حال الدنيا فالآخرة كائنة لا محالة، والعاقل هو الذي يتخذ الحياة الدنيا معبراً للآخرة وذلك بالتزود منها بالأعمال الصالحة.

والحياة الدنيا زينة وشهوات ولكنها كلها متاع «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب ﴾ (آل عمران).

لقد جمع الله في هذه الآية الكريمة أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان، النساء، والبنين، والأموال المكدسة، والخيل، والأرض المخصبة والأنعام، وهي خلاصة للرغائب الأرضية، ذلك كله متاع الحياة الدنيا لا الحياة الرفيعة، ولا الآفاق البعيدة، متاع هذه الأرض القريب[2].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٥٣.

(٢) في ظلال القرآن ١/٣٧٤ ـ ٣٧٥.

وكـذلك فـإن السنّة النبـوية بينت قيمـة الدنيـا وحقيقتها، وقبـل أن أورد بعض الأحـاديث النبويـة أثبت هنا أن الهـدف من ذكر تلك الأحـاديث ليس ذم الدنيا ذماً يدعونا إلى أن نهـرب منها، ونتخلى عن طيبـاتها، وإنمـا الهدف من ذكرها بيان قيمة الدنيا قياساً لما أعدهُ الله لعباده الصالحين يوم الآخرة.

روى مسلم أن رسول الله ﷺ مَرَّ بجدى أسك ميت فتنـاوله فـأخذ بـأذنه ثم قال: «أيكم يُحِبُّ أن يكون هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ ثم قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كـان حياً كـان عيباً إنـه أسك فكيف وهو ميت، فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[1].

هذه هي الدنيا، وهذه هي قيمتها عند الله... هذه هي الدنيا بشهواتهـا النسائية والمالية والأرضية أهون على الله من هذا الجدي الأسك الميت، وإذا كـانت هذه قيمتهـا فلماذا يتحـاسد النـاس من أجلهـا ويتقـاتلون ويتبـاغضـون ويتشاجرون؟.

وروى الترمذي وقال حديث حسن صحيح أنه ﷺ قال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافراً منها جرعة ماء»[2].

هذه هي حقيقة الدنيا لا تساوي عند الله بذهبها وفضتهـا جناح بعـوضة، هذه هي قيمة الدنيا بـأموالهـا كلها لا تعـدل عند الله جنـاح بعوضـة، هذه هي الدنيا بشهواتها كلها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فـإذا كانت هـذه هي قيمة الدنيا فلماذا يكون الإنسان عبداً لها، يخضع لشهواتها ولا يخضعها لنفسه؟.

وروى الترمذي في حديث آخر أنه ﷺ قال:

«إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»[3].

---

(١) رياض الصالحين ـ باب فضل الزهد في الدنيا.

(٢) المصدر السابق ـ باب فضل الزهد.

(٣) المصدر السابلق ـ باب فضل الزهد.

إنها فتنة، تفتن الإنسان عن طاعة الله بشهواتها، قد تفتنه عن الصراط المستقيم بأموالها فيتبع السبل الشيطانية الجاهلية، إنها فتنة، والإنسان العاقل يتحرك على هذه البسيطة بحذر ويقظة وانتباه خشية أن تفتنه الدنيا فتزل أقدامهُ في المعاصي العقائدية والسلوكية والخلقية فيخسر الدنيا والآخرة معاً.

٢ ـ حال رسول الله ﷺ وأصحابه:

أ ـ حال رسول الله ﷺ:

إذا كانت هذه هي الدنيا وحقيقتها وقيمتها فإن رسول الله ﷺ قد تقلل منها، وزهد في متاعها، وإليك هذه الصور من سيرته:

* ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه». رواه مسلم(١).

وروى البخاري عن عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال: مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها. رواه الترمذي وحسنه(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد من خبزُ شعير يومين متتابعين حتى قبض، متفق عليه(٤).

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الزهد ص ٢١٧ ـ الدقل: رديء التمر.
(٢) المرجع السابق باب الزهد ص ٢١٨.
(٣) المرجع السابق باب الزهد.
(٤) المرجع السابق باب الزهد.

وفي حديث آخر قالت لعروة بن الزبير رضي الله عنه: والله يا ابن أخي إن كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار»[٥]. متفق عليه.

هذا حال رسول الله ﷺ وآل بيته، وتلك هي الحياة المتواضعة التي عاشها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فلماذا رضي بهذه الحياة؟.

إنه ﷺ لم يكن كذلك لأنه لا يملك من الدنيا شيئاً، فلو أراد أن يكون نبياً ملكاً لكان ما أراد، ولو تمنى أن تساق إليه الفواكه والطيبات من نعيم الجنة لسيقت إليه، وأنه ﷺ رضي بهذه الحياة المتواضعة عن طواعية نفس ليكون القدوة العملية لما أمر الله به في كتابه الكريم، ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والمسلمون ليسوا على درجة واحدة من الناحية المالية، فمنهم الأغنياء والموسرون، ومنهم الفقراء المحتاجون، ومنهم ما بين هؤلاء وهؤلاء، وحينما يوجد في الأمة فقراء ينامون على حصير فإنهم يجدون خير مواساة لهم في رسول الله ﷺ، وحينما يوجد في الأمة فقراء يمر الهلال والهلال ولا توقد في بيوتهم نار يجدون العزاء والسلوان في آل بيت رسول الله، وحينما يوجد في الأمة رجال لا يشبعون من خبز شعير يومين متتالين تطمئن نفوسهم وتسكن لأن لهم الأسوة الحسنة في رسول الله.

ب ـ حال الصحابة:

فماذا عن حال صحابة رسول الله ﷺ؟.

إنهم كانوا مقتدين برسولهم ﷺ في الزهد في الدنيا والاستعلاء على شهواتها، والتقلل من زينتها ومتاعها، وهذه صور من حياتهم:

روى البخاري عن أبي هريرة قال: رأيت سبعين من أهل الصُّفَّة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزاراً وإما كساءً قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الزهد.

نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته»[1].

وفي رواية أخرى للبخاري أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائماً فقال: قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو خير مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، إن غطى بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطى بها رجلاه بدا رأسه ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ، وأمر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم نجد غيره، فكان أبو عبيدة يُعْطينا تمرة تمرة، فقيل كيف تصنعون بها قال: نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل» رواه مسلم[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما. .» رواه مسلم[4].

وقد يقول قائل: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مجبرين على هذا الزهد في الحياة الدنيا لأنهم فقراء، دفعتهم الظروف الاقتصادية الصعبة يومئذٍ إلى التقلل منها؟ وهذا القول مردود لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يزالوا متخلقين بهذا الخلق، خلق الاستعلاء على شهوات الدنيا ولذائذها وأموالها بعد أن ملكوا البلاد والأمصار، وإليك صوراً من حياتهم تؤكد هذا المعنى:

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الزهد.
(٢) رياض الصالحين ـ باب الزهد.
(٣) رياض الصالحين ـ باب الزهد.
(٤) رياض الصالحين ـ باب الزهد.

فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يختار التقشف طواعية وهو الذي ينفق على الفقراء في المجلس الواحد ثلاثين ألفاً[1]، فقد روى أبو نعيم في الحلية أن مولى له دخل عليه وقد قدم من العراق يسلم عليه فقال: أهديت إليك هدية قال: وما هي؟ قال: جوارشي، قال: وما جوارشي؟ قال: تهضم الطعام فقال: فما ملأت بطني طعاماً منذ أربعين سنة فما أصنع به[2]؟.

وجاء إليه من يقول: يا أبا عبد الرحمن إني أتيتك بثوب لين مما يصنع بخراسان، وتقر عيناي أن أراه عليك، فإن عليك ثياباً خشنة، فقال: أرنيه حتى أنظر إليه، قال: فلمسه بيده وقال: أحرير هذا؟ قلت: لا إنه من قطن، قال: إني أخاف أن ألبسه، أخاف أن أكون مختالاً فخوراً، والله لا يحب كل مختال فخور»[3].

ولقد زهد ابن عمر في المال، ولم يكن زهده عن فقر ـ كما قلت ـ فقد كان ثرياً تأتيه الأموال الطائلة فلا يمنع فقيراً أو مسكيناً حقه منها، ولم يكن زهده كذلك عن بخل فقد كان سخياً كريماً، قال ميمون بن مهران: لقد دخلت على ابن عمر فقدرت كل شيء في بيته من أثاث ما يساوي مائة درهم[4].

وهذا عمير بن سعد يكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدع حمص ويقبل عليه، ويحمل معه ما جبى من فيء المسلمين، فتلقى رضي الله عنه كتاب الخليفة، فأخذ جراب زاده، وحمل على عاتقه قصعته ووعاء وضوئه، وأمسك بيده حربته، وخلف حمص وإمارتها وراءه، وانطلق يحث الخطا مشياً على قدمه إلى المدينة المنوّرة فما كاد يبلغ عُميرٌ المدينة المنوّرة حتى كان قد شَحَبَ لونه، وهزل جسمه، وطال شعره، وظهرت عليه وعثاء

---

(١) حلية الأوليا ـ أبو نعيم الأصفهاني ١/٢٩٥ ـ ٢٩٦ طبعة السعادة ـ مصر.
(٢) الحلية ١/٣٠٠.
(٣) المصدر السابق ١/٣٠٢.
(٤) سيرة أعلام النبلاء ٣/١٤١ ـ الذهبي ـ دار المعارف بمصر.

السفر، فلما رآه الخليفة الفاروق دهش لحاله فقال: ما بك يا عمير؟ فقال: ما بي من شيء يا أمير المؤمنين ـ فأنا صحيح معافى ـ بحمد الله ـ أحمل معي الدنيا كلها، وأجرها من قرنيها، فقال: وما معك من الدنيا؟ قال: معي جرابي وقد وضعت فيه زادي، ومعي قصعتي آكل فيها، وأغسل عليها رأسي وثيابي، ومعي قربة لوضوئي وشرابي، ثم إن الدنيا كلها ـ يا أمير المؤمنين ـ تَبَعٌ لمتاعي هذا، وفضلَةٌ لا حاجة لي ولا لأحدغيري فيها»(١).

أرأيت إلى زهد هذا الصحابي وهو أمير على مدينة حمص، ليس معه من الدنيا إلا قصعتهُ يأكل فيها، وقربة يتوضىء منها ويشرب؟ أهذا زهد عن فقر أم غنى؟.

هؤلاء هم الصحابة، وهذه حالهم من الفقر والحاجة والفاقة، وذاك زهدهم في الحياة الدنيا مع الغنى والثراء، ومع ذلك أتدري ما الذي فعلوه؟ هؤلاء الصحابة الذين لا يجدون كفناً يكفنون به صحابياً شهيداً؟ هؤلاء الذين يخرجون ليلاً ولا يخرجهم إلا الجوع؟ هؤلاء الذين لا يجدون من الطعام إلا تمرة يأكلونها ثم يشربون عليها الماء؟ فماذا فعلوا؟ وماذا صنعوا؟.

إنهم حين خضعوا لله، وأذلوا أنفسهم لله، وأعطوا العبودية لله، ووضعوا جباههم على الأرض سجداً لله، وأخرجوا من قلوبهم حب الدنيا وشهواتها... أكرمهم الله تعالى ففتح لهم البلاد والأمصار، بل فتحت لهم خزائن الأرض، فاستولوا على خزائن كسرى وقيصر، فالغنى والثراء ليس وحده سبباً للعزة والنصر والقوة، كما أن الفقر ليس سبباً في الضعف والهزيمة، وخير دليل على هذا حال صحابة رسول الله ﷺ، وليس معنى هذا أن تركن الأمة إلى فقرها وترضى به، بل هي مكلفة بالسعي والعمل والحركة والاستفادة مما سخره الله في الأرض، ولكن المعنى الذي يحب تأكيده هنا أن الفقر مع الإيمان والشعور بالافتقار إلى الله وعزه وكرمه، وأن الزهد مع الغنى

---

(١) صورة من حياة الصحابة ـ د. عبد الرحمن الباشا ٤/٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩.

والاستعلاء على شهوات الدنيا ولذائذها مع القدرة، هو ما كان عليه حال السلف الصالح، وما أجدر الأمة الإسلامية اليوم أن تقتدي بهم في حال فقرهم وغناهم، فلنعم الغنى إذا دفع الأمة إلى مزيد من الإيمان والشكر، ولنعم الفقر إذا دفع الأمة إلى مزيد من الشعور بالافتقار إلى الله، والطمع فيما عنده، ولبئس الغنى إذا دفعها إلى مزيد من البطر والجحود والفساد وكفران النعمة.

* * *

٣ - منهج المؤمن في النظر إلى الحياة الدنيا:

والمؤمن في نظرته إلى الحياة الدنيا يختلف عن أصحاب العقائد المادية الذين يجعلون الحياة الدنيا غاية لهم في هذا الوجود، فهم إن عملوا فمن أجل شهوة، وإن تحركوا فمن أجل نزوة، وإن سعوا فمن أجل لذة، ومنهج المؤمن في نظرته إلى الحياة الدنيا يتمثل فيما يأتي:

أ - حب الشهوات الدنيوية فطرة:

إن حب الشهوات الدنيوية فطرة فطر الله عليها الناس، وهذا ما أثبته الله تعالى في محكم كتابه بقوله: ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا﴾[1] (آل عمران).

يقول صاحب الظلال رحمهُ الله في تفسيره هذه الآية:

«صياغة الفعل للمجهول (زين للناس) تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل، فهو محبب ومزين، وهذا تقرير للواقع، ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل لا حاجة إلى إنكاره، ولا إلى استنكاره في ذاته، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد، ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فِطْرةِ الإنسان جانباً آخر يوازن ذلك الميل، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده، وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها، هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس، ووقفها عند الحد السليم من هذه

(١) آل عمران

الشهوات، الحد الباني للنفس وللحياة، مع التطلع المستمر إلى ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذي تهدف إليه النفخة العلوية، وربط القلب البشري بالملأ الأعلى والدار الآخرة ورضوان الله. . . وهذه الشهوات مستحبة مستلذة، وليست مستقذرة ولا كريهة، والتعبير لا يدعو إلى استقزارها وكراهيتها، إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكانها لا تتعداه، ولا تطغي على ما هو أكرم في الحياة وأعلى. . . والإسلام هنا يمتاز بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كبتها وقمعها، والذين يتحدثون في هذه الأيام عن «الكبت» وأضراره وعن «العقد النفسية» التي ينشئها الكبت والقمع يقررون أن السبب الرئيسي للعقد هو «الكبت» وليس «الضبط»[1].

وهذه الشهوات الدنيوية ليست مذمومة لذاتها، وإنما تذم بالنظر إلى القصد بها، والهدف منها، فالنساء فتنة كما جاء في الحديث الصحيح، ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب، مرغوب فيه، مندوب إليه، من ذلك قوله ﷺ فيما رواه النسائي ومسلم:

«الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»، وفي الحديث الآخر:
«حبب إليَّ النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة». وحب البنين قد يكون مذموماً إذا كان بقصد التفاخر والزينة، ويكون مرغوباً فيه إذا كان بقصد تكثير أمة محمد ﷺ كما جاء في الحديث:
«تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

وحب المال كذلك إذا كان بقصد الخيلاء والتكبر على الفقراء، فهذا مذموم وإذا كان للنفقة في القربات وصلة الأرحام، ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً[2].

---

(١) في ظلال القرآن جـ ١/٣٧٣ ـ ٣٧٤.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٧٠.

ب ـ الزهد في الدنيا:

والمراد بالزهد في الدنيا أن يخرج المؤمن حب شهوات الدنيا من قلبه، لكي لا تكون هذه الشهوات سبباً في طغيانه، ونسيانه، للآخرة والتزود لها، وليس هناك أي تعارض بين الزهد والسعي والعمل وعمارة الأرض، فالمؤمن مأمور بالسعي في مناكب الأرض وابتغاء الرزق، ولقد سئل رسول الله ﷺ عن حقيقة الزهد فقال: «إنه ما هو بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك».

وهذا بيان من رسول الله ﷺ أن الذين يحرمون ما أحله الله وإباحة ما حرمه الله بدعوى الزهد في الدنيا ليسوا على التصور الإيماني الصحيح، كما أنه ليس من الزهد أن يضيِّعَ المؤمن ماله الحلال بزعم أن المال يشغله عن الآخرة.

ومن الزهد أن يزهد المؤمن فيما عند الناس، وهذا ما أثبته رسول الله ﷺ فقد روى ابن ماجة وغيره أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»[1].

ومن الزهد كذلك أن ينظر المؤمن إلى من هو أسفل منه لأن في ذلك دفعاً له إلى أن يشكر الله على نعمائه، روى البخاري أنه ﷺ قال:

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»[2].

وأؤكد هنا أنه لا تعارض بين الزهد في الدنيا وبين الأخذ من طيباتها يقول الله تعالى: ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ (الأعراف ٣٢).

---

(١) رياض الصالحين ـ باب الزهد.

(٢) المرجع السابق ـ باب الزهد.

جـ ـ الحياة رحلة سفر:

والمؤمن ينظر إلى الحياة الدنيا أنها رحلة سفر قصيرة ولا بد أن تنتهي هذه الرحلة، ويغادرها المسافر إلى عالم آخر تاركاً وراءه شهواتها وملذاتها، وأموالها ونساءها، مخلفاً وراءه آماله ومطامعه، ورغباته ومطامحه، وهذا المعنى أكده رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة ـ سبق الإشارة إليها ـ منها قوله عليه الصلاة والسلام:

«ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» رواه الترمذي وحسنه، ومنها قوله لعبد الله بن عمر:

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» رواه البخاري.

والذي ينظر إلى الحياة الدنيا أنها رحلة سفر يتخذها معبراً للآخرة، فيتزود منها بالعمل الصالح، كما قال الشاعر:

تزود من الدنيا فإنك راحل ... وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع

فما المال والأهلون إلا وديعةٌ ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

فما ينفع الميت في قبره ... إلا التقى والعمل الصالح

د ـ الحذر من الحرص على الدنيا:

والمؤمن كذلك من منهجه أنه يحذر من الحرص على الدنيا لقوله ﷺ فيما رواه الترمذي وحسنه «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[1].

«فهذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان ص ٩ ـ ابن رجب الحنبلي ـ خرج أحاديثه بدر البدر ـ الدار السلفية ط ١/١٤٠٤.

المذكورين والحالة هذه إلا قليل، فأخبر رسول الله ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد بدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساوياً وإما أكثر، يشير إلى أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين إلا القليل، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا»(١).

والحرص على المال على نوعين: أحدهما شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة والمبالغة في طلبه، والجد في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة، والنوع الثاني: أن يزيد على ما سبق ذكره حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة، ويمنع الحقوق الواجبة.

فأما الذي يحب المال حباً جماً ويحرص عليه حرصاً شديداً ويبالغ في جمعه، ويرهق نفسه في اكتسابه، فهذا الحرص معذب صاحبه، فهو لا يفرغ من محبته الدنيا لآخرته، لالتفاته لما يغني، وغفلته عما يدوم ويبقى.

وقد قال شاعر في هذا المعنى:

لا تغبطن أخا حرص على سعة ... وانظر إليه بعين الماقت الغالي
إن الحريص لمشغول بثروته ... عن السرور بما يحوي من المال(٢)

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصاً على الدنيا:

«أما بعد، فإنك أصبحت حريصاً على الدنيا، تخدمها وهي تخرجك عن نفسها بالأعراض والأمراض والآفات والعلل، كأنك لم تَرَ حريصاً محروماً، ولا زاهداً مرزوقاً، ولا ميتاً عن كثير، ولا متبلغاً عن الدنيا باليسير»(٣).

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان ص ١٠ ـ ١١.
(٢) المرجع السابق ص ١٤.
(٣) المرجع السابق ص ١٥.

وأما النوع الثاني من الحرص فهو مذموم لقولـه ﷺ في صحيح مسلم: «اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دمائهم، واستحلوا محارمهم».

وبعدُ فهذه هي الحياة الدنيا بزينتها وشهواتها، فالمؤمن العاقل هو الذي يأخذ نصيبه من الطيبات التي أباحهـا الله وأحلها لـه، ولا ينسى الآخرة، ولا يجعل الدنيا همه، ولا مبلغ علمه، ويتذكر قول شاعر حكيم:

تـزود من التقـوى فـإنـك لا تـدري	إذا جن ليلٌ هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً	وقد نسجت أكفـانه وهـو لا يدري؟
وكم من عـروس زينـوهـا لـزوجهـا	وقــد قبضت أرواحهم ليلة القـدر؟
وكم من صحيح مات من غيـر علةٍ	وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر؟

* * *

الخاتمـة

هذه هي عقيدة الإيمان، آثـارها وثمراتها، فما أحـوجنا في هـذا العصر وأمتنا الإسلامية تتعرض لغزو شرس يستهدف كيانها ووجودها أن نعود إلى هذه العقيدة السماوية العظيمة التي ارتضاها الله لنا وللبشـرية، فنغـرسها في نفـوس النشيء المسلم وعقـولهم، لنحميهم بذلـك من خطر العقـائد الجـاهليـة التي تهب بعواصفها ورياحها علينا من كل جانب.

ثم ما أحوجنا بعد ذلك أيضاً أن نحيل هذه العقيدة الإيمانية النظريـة إلى تطبيق عملي، إلى تطبيق عملي في أنفسنا وأسرنا، في جامعاتنا ومصانعنا، في ثكناتنا ومزارعنا، في ولاياتنا ومحاكمنا. فنعيد بذلك تاريخ السلف الصالح عزة وقوة وسيادة، فـالصحابـة والتابعـون من بعدهم لم يـواجهوا أعـداءهم إلا بهذه العقيـدة، ولم يسـودوا في العـالم حينـاً من الـزمـان إلا حينمـا تمسكـوا بهـذه الرسالة، ولم تبقَ راية الحضارة البشريـة في أيديهم قـرونـاً طـويلة إلا باتبـاعهم صراط الله المستقيم، ونبذهم للسبل البشرية الجاهلية.

وصدق الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال:

«والله لقد كنا أذل قوم في الجاهلية، فأعزنا الله بالإسلام، فمهمـا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله».

ألا فلنتدبر قول خليفتنا عمر رضي الله عنه ولنقل كما قال ـ إنه لا عز لنـا إلا بهذا الإسـلام، ومهما ابتغينـا العزة بـالمبادىء البشـريـة الـوضعيـة من اشتراكية إلى ديمقراطية إلى قومية إلى وطنية أذلنا الله.

* * *

المصــادر والمراجــع

١ - الله جل جلاله - سعيد حوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٣٩٩/٣.

٢ - إحياء علوم الدين - الغزالي، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة.

٣ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ابن قيم الجوزية.

٤ - الأفعى اليهودية - عبدالله التل، المكتب الإسلامي.

٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، د. محمد الجلنيد، دار المجتمع، جدة ١٤٠٦ هـ.

٦ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - جلال الدين العمري، شركة الشعاع، الكويت.

٧ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان - الأردن.

٨ - الإيمان والحياة: د. يوسف القرضاوي.

٩ - البحر المحيط: أبو حيان، مكتبة ومطابع النصر الحديث، الرياض.

١٠ - البدعة والمصالح المرسلة: د. يوسف توفيق الواعي، مكتبة دار التراث، الكويت ط ١٤٠٤/١ هـ.

١١ - التذكرة في أحوال الموتى: القرطبي، تحقيق د. أحمد السقا، المكتبة العلمية.

١٢ - الترغيب والترهيب: المنذري.

١٣ - تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد: الصنعاني، مؤسسة النور، الرياض.

١٤ - تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط ١٩٨١/٢.

١٥ - التيجانية - علي محمد الدخيل الله، دار طيبة، الرياض.
١٦ - تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد: سليمان بن عبد الله بن محمد، المكتب الإسلامي.
١٧ - جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي، والألهند.
١٨ - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٧.
١٩ - الحجاب: أبو الأعلى المودودي.
٢٠ - حركة الفتح الإسلامي - د. شكري فيصل.
٢١ - حد الإسلام وحقيقة الإيمان: عبد الحميد الشاذلي، جامعة أم القرى ط ١٤٠٤/١.
٢٢ - حقوق الإنسان وحرياته الأساسية: عبد العزيز الشيشاني.
٢٣ - حقيقة التوحيد: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة.
٢٤ - حياة الصحابة: محمد يوسف الكاندهلوي، دار المعرفة، بيروت.
٢٥ - الخمر بين الطب والفقه: د. محمد علي البار، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط ٥.
٢٦ - خلق المسلم: محمد الغزالي، دار القلم، دمشق ط ١٤٠٠/٢ هـ.
٢٧ - رجال من التاريخ: علي الطنطاوي، مؤسسة الرسالة، ط ١٩٨٢/٨.
٢٨ - الرسالة التدمرية: تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.
٢٩ - الردة عن الإسلام: د. عبد الله أحمد قادري، مكتبة طيبة ط ١٤٠٥/٢.
٣٠ - رياض الصالحين: النووي.
٣١ - سبل السلام: الصنعاني، شركة سبابي الحلبي، ط ١٩٦٠/٤.
٣٢ - السلطان محمد الفاتح: د. عبد السلام فهمي، دار القلم ط ٢.
٣٣ - السياسة الشرعية: ابن تيمية، دار المعرفة، ط ١٩٦٦/٤.
٣٤ - شرح العقيدة الطحاوية: حققها وراجعها جماعة من العلماء. خرّج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط ٨.
٣٥ - شهداء الإسلام: د. علي النشار، المكتب الإسلامي، ط ١٣٩٧/٢.
٣٦ - صور من حياة الصحابة: د. عبد الرحمن رأفت الباشا، دار النفائس، ط ١٣٩٩/٨ هـ.
٣٧ - صورة من حياة التابعين: د. عبدالرحمن رأفت الباشا.

٣٨ - الصوفية معتقداً ومسلكاً: د. جابر طعيمة، عالم الكتب، الرياض ط ١.
٣٩ - صلاح الدين الأيوبي: أبو الحسن الندوي، دار القلم.
٤٠ - طريق الدعوة في ظلال القرآن: أحمد فائز، مؤسسة الرسالة.
٤١ - عدة الصابرين: ابن قيم الجوزية، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٤٢ - العلمانية نشأتها وتطورها: د. سفر عبد الرحمن الحوالي، دار مكة.
٤٣ - العلاقات الجنسية غير الشرعية: د. عبد الملك السعدي.
٤٤ - عقيدة المؤمن: أبو بكر الجزائري، مطبعة الحلبي، ١٩٧٧.
٤٥ - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة.
٤٦ - فتح القدير: الشوكاني، ط ١٣٤٩، مصر.
٤٧ - فقه السنة: سيد سابق، دار اليان، الكويت.
٤٨ - الفقه على المذاهب الأربعة. عبد الرحمن الجزيري -
٤٩ - في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، ط ١٤٠٢/١٠.
٥٠ - قادة الغرب يقولون: جلال العالم.
٥١ - كشاف القناع: البهوتي، مكتبة النصر الحديثة.
٥٢ - الكيد الأحمر: عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني.
٥٣ - مجتمع الكراهية: سعد جمعة، دار الكاتب العربي، بيروت.
٥٤ - مجموعة فتاوى ابن تيمية: ط ١٣٩٨/١ هـ.
٥٥ - مختصر تفسير ابن كثير: دار القرآن الكريم، ط ١٤٠١/٧ هـ.
٥٦ - مختصر منهاج القاصدين: المقدسي، دار البيان، دمشق.
٥٧ - المصطلحات الأربعة: عبد المتعالي الجبري، دار الاعتصام ط ١٣٩٩/٢.
٥٨ - مصعب بن عمير: محمد حسن بريغش، دار القلم، دمشق.
٥٩ - معالم في الطريق: سيد قطب، دار الشروق.
٦٠ - معالم الحضارة في الإسلام: د. عبد الله علوان، دار السلام.
٦١ - مع التوحيد والأخلاق: عبد الحميد كشك، المكتب العربي الحديث.
٦٢ - نيل الأوطار: الشوكاني، دار الجيل، بيروت.
٦٣ - مفاتيح الغيب: الرازي، دار المكتب العلمية، طهران ط ٢.
٦٤ - نحو مجتمع إسلامي: سيد قطب، دار الشروق، ط ١٤٠٠/٤ هـ.
٦٥ - نفائس: تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية ط ١٩٧٤/٣.

٦٦ ـ وحدانية الله: جمال الدين عياد، نشر عكاظ.
٦٧ ـ وذكرهم بأيام الله: أنور الجندي، دار الاعتصام.
٦٨ ـ اليوم الآخر في ظلال القرآن: أحمد فائز، مؤسسة الرحالة، ط ١٩٨١/٥ م.

* * *

الفهـرســـت